الطبعة الثانية

لستَ مُلحِدًا.. لماذا؟

كريم فرحات



دار نهضة مصر للنشر

لسْتَ مُلحِدًا.. لماذا؟

قد يظن البعض أن الإيمان بوجود خالق يرتبط فقط بالكتب السماوية والإقرار بالأدلة الدينية. ولكن يغفل هؤلاء أن في دقائق حياتنا وتفاصيل ما منحنا الله من آيات ونعم، دلائل للإيمان - من دون تصريح - يدركها العقل قبل القلب. فشريط الحامض النووي للإنسان والدقة البالغة في تكوينه يشيران إلى وجود إله واحد صمم تلك الهندسة الوراثية بإرادة "كن"، لأنها لم تأت مصادفة أو بشكل عشوائي. لقد اكتشف الطب أسرار أجزاء الجسد البشري و مهامها و لكنه لم يستطع عمل بنكرياس على سبيل المثال أو كلية أو خلية في المخ. وهكذا فإننا ندرك لو تأملنا - ببعض من الهدوء ومن دون ضجة - أن في أنفسنا دلائل قدرة الله، وإثباتات وجوده.

هكذا يعرض لك هذا الكتاب أدلته العلمية على وجود الله، فيناقش من ألحد أو من يسير في هذا الطريق - بالعقل قبل القلب - في أسباب إيمانه وتمسكه بفكرة وجود الخالق.

الناشر




6 221133 348416

لست ملحدًا .. لماذا؟

تأليف

كريـم فرحات



العنوان:

لســـت ملـحـدًا.. لماذا؟

تاليف:

كريم فرحات

إشراف عام:

داليا محمد إبراهيم

الترقيم الدولي: 5-4711-14-977-978
رقــم الإيـــداع: 23772 / 2013
الطبعة الثانية: إبــريـــل 2014



أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة 1938

21 شارع أحمد عرابي -
المهندسين - الجيزة

تليفــون: 33466434 - 33472864 02
فاكـــس: 33462576 02
خدمة العملاء: 16766
Website: www.nahdetmisr.com
E-mail: publishing@nahdetmisr.com

لســت ملحــدًا.. لماذا؟

المحتويات

إهداء

إليه!!

وإلى كل باحثٍ عن الحق، وكل حر عن الخلق،

إلى جدتي التي علمتني أن أقبل الآخر مهما كان

وإلى أمي التي علمتني أن أحب ذلك الآخر مهما كان

إلى أبي الذي علمني أن أبحث عن الحق أينما كان

وإلى دينا وحسن وأمينة الذين أعطوا لحياتي معنًى وعنوانًا

كريم فرحات

لماذا هذا الكتاب؟

بقلم: فاروق شوشة

أمين عام مجمع اللغة العربية

صانـع هذا الكتاب شـاب مصـري عصري، تثقـف ثقافة علمية، واختار تخصصًا عمليًا، لكن قلبه المسكون بجوهر الإيمان العميق، وعقلـه المتوهـج بالمعرفـة، ووجدانه المفعـم بالروحانيـة، جعلته يطـرح بينه وبين نفسـه الأسـئلة الأولى عن هذا الكـون وعن خالقه الأعظم: كيف؟ ولماذا؟ وإلى أين؟

ولأن المعرفـة الضروريـة للتصـدي لمثـل هـذه الأسـئلة التـي شـغلت العقل الإنسـاني منذ بداية الوجـود، كانت طـوْع يديه، فقد استطاع أن يحلق في فضاءاتها بجناحين: فلسفي وعلمي، وأن يتكئ طيلـة الوقت إلى إيمان راسـخ لا يتزعزع في كل خطـوة تقوده نحو المجهول الذي يتكشـف باسـتمرار عن جديد، وعن مجهول أعظم يتكشف من ورائه.

ولسـت أزعم لنفسـي، وأنا المشـغول طيلة حياتي بالشـعر أولاً وباللغـة ثانيًـا، أنـي صالـح لتقديـم مثـل هـذا الكتـاب الخطيـر في موضوعـه، الجريء في طرح قضاياه، إلـى قارئ هذا الزمان. كل ما أعرفه عن نفسـي، أني مُقدِّر لهذا الجهـد العرفاني المخلص، وهذا التناول الفلسفي العلمي الفريد لقضية القضايا الشاغلة للإنسان على ظهـر هذا الكوكب منذ وجـوده، ومُقدّر لمؤلف هـذا الكتاب الذي أرى فيه نموذجًا رفيعًا لشباب مصر من علمائها ومثقفيها ومفكريها، الذين تشغلهم القضايا الجادة، ولا يضنّون على التأهل - في تناولها - بـكل وسـائل المعرفة الضرورية، المؤلفة بالعربيـة وبغير العربية، للتوصل إلى ما يشبه النظرية أو الرؤية الجديدة، التي تواكب أحدث مـا بلغه العلم نظريًـا وتجريبيًا، وخلاصة ما صاغه الفكر الفلسـفي: الإسلامي والغربي، في إضاءة هذا المجال.

والذي لاشـك فيـه أن أي اختصار أو تلخيـص لما حوته فصول هـذا الكتـاب لابـد أن يؤدي إلى تشـويه كامـل لمعظم مـا تضيء به صفحاتـه من اجتهادات عقليـة، ووثبات تأمليـة، وفتوحات روحية وعرفانيـة، وجـدلٍ خـلاق يعـرض الفكرة علـى نقيضهـا، ويمتحن النظريـة بمـا يضادها، ويقلب النظر مـرة ومرة ومـرة، موقنًا أن نوره الداخلـي يضيء مسـيرته، ويقـوده في الاتجاه الصحيـح، مهما كان عناء البحث والغوص العميق في طبقاته.

إن مجـرد التسـاؤل عـن أهميـة الآثـار المترتبـة علـى وجـود الديـن، والآثار المتوقعة لغيابه على المسـتويين الفردي والجمعي، والنظريات والأطروحات العلمية التي حاولت تفسـير نشـأة الكون وتطـوره، ومناقشـة أنـواع السـببية وعلاقتهـا بقضية وجـود الخالق الأعظـم، كلّ ذلك مجـرد أمثلة على محتويات هـذا الكتاب، الذي يتطلـب تهيئة معرفية لدى قارئه، واسـتعدادًا فكريًّـا وثقافيًا وروحيًّا للتعامل مع فصوله وقضاياه، وهو ما يوجب توجيه نظر شبابنا الجاد ومفكرينا الموغلين في دروب العلم والفلسـفة، لكي يتسـلحوا بما تتطلبه وحدة المعرفة، من أجل تقليب وجهات النظر، وخوض هذه التجربة الفريدة من تجارب القراءة الكاشفة والمثيرة والممتعة.

وأنـا علـى ثقة مـن أن موقفهم المعرفـي من قضايا هـذا الكتاب بعـد إتمام قراءته، لن يكون أبـدًا مماثلاً لحالهم قبل البدء في قراءته واسـتيعاب عناصـره ومكوناتـه، لأنه كتـاب من شـأنه أن يُغيِّر، وأن يضيف، وأن يفسّر بقدر ما تستطيع أدواته ووسائله ومداخلاته.

وكم كنت أودّ لو أن فصول الكتاب اتسـعت لفصل سادس ينقل فيه المؤلف إلى قارئه الحصيلة المعرفية الجديدة التي أتت بها علوم الفضاء وبخاصة الاستكشافات المدهشة في مجال علم الفلك، وما تجمّـع لـدى عدد من المؤسسـات العلمية والبحثيـة الكبرى – مثل مؤسسة ناسـا الأمريكية – من تصورات جديدة عن الكون وأسراره

واحتمالات الحياة في بعض كواكبه، والتقدم المذهل في مسيرة الإنسان الذي حمله جناحا العلم إلى مسافات لم تكن تخطر على بال أحد، وإلى مغامرات كانت وما تزال ضربًا من الخيال العلمي، لكنه خيال ملهم، وحافز على المزيد من جهود المعرفة والاكتشاف. مثل هذا الفصل الجديد كان سيضيف - بكل تأكيد - إلى مادة الكتاب، ما ينقصها من أجل اكتمال المعرفة بالكون أرضًا وفضاء، بحثًا في الأعماق وانطلاقا وسبْحًا في الآفاق.

والأمل معقود أن تكون الطبعة الجديدة من هذا الكتاب الجديد، المثير والمتميز، مثيرة لقدْر أكبر من الأسئلة، بغض النظر عما سوف تحققه من يقين الإجابات.

تقديم (المؤلف)

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ (الفرقان: 45)..

سؤال للتفكر: أليس الظل دليلاً على وجود الشمس؟ أم أن الشمس هي الدليل عليه كما تقول الآية السابقة؟ اقرأ السطور التالية لتعرف الإجابة!

يُحكى عن بعض شيوخ الإسلام منذ مئات السنين، أن امرأة عجوزًا دخلت قرية في خراسان ووجدت احتفالية كبيرة. فلما سألت عن السبب قال لها البعض إن شيخ الإسلام قد قدم مائة دليل على وجود الله في كتاب. نظرت إليهم بأسى وتمتمت: وهل كان لديه مائة شك في وجود الله؟! فلما حُكيت قصتها إلى الشيخ، دمعت عيناه ورفع يديه ضارعًا إلى السماء وقال: اللهم إيمانًا كإيمان عجائز خراسان! اللهم إيماناً كإيمان عجائز خراسان!

حاولتُ في هذا الكتاب تناول قضية وجود الله من منطلق فلسفي ومنطلق علمي.

إن قضية وجود الله هي مسألة قديمة شغلت الإنسان في كل العصور بأشكال مختلفة. وقد تكون قد أخذت- وما زالت تأخذ- كل ذلك الاهتمام لأنها تزعم أنها ترد على الأسئلة الثلاثة الكبرى التي حيرت الجميع عبر الأزمان: من أين؟ وإلى أين؟ ولماذا؟ .

نزعم أنه لا يستطيع أحدٌ الإحاطة التامة بذلك الموضوع ، ولكننا في السطور القادمة نتساءل: هل من الممكن إثبات وجود الله بشكل عقلي مجرد؟ أم أن هذه القضية (أعني الإيمان بالله) تستوجب قدرًا من الإيمان القلبي بالغيب؟ هل الإيمان اختيار حقيقي أم أنه مزيج من الوراثة والتمني والخوف؟ أيضاً ، هل الإيمان بعدم وجود إله اختيار حقيقي؟ أم أنه تكبر وعدم وضوح رؤية وإيمانٌ أعمى بنظريات وأفكار غير مثبتة ومتغيرة؟

هل الإيمان بالله في ازدياد أم إلى انحسار؟ هل الإيمان بالله يفرق البشر أم يجمعهم؟ وهل يسعدهم أم يشقيهم؟ هل يؤدي إلى السلام المنشود أم إلى مزيدٍ من الحروب والصراعات؟

هل الإلحاد هو إنكار لوجود الله بالضرورة؟ أم أنه قد يكون طريقًا من طرق البحث عن ذلك الإله؟ وهل هناك فرق بين من لا يؤمن عن اقتناع ومن لا يؤمن لعدم كفاية الأدلة في رأيه؟ وهل هناك فرق بين من يؤمن بعدم وجود إله وبين من لا يؤمن بوجود إله؟!

إن كان وجود الله حقيقيًا ، فأي نسخة من نسخ الإيمان بالله هي الصحيحة؟ وكيف سمح ذلك الإله بوجود نسخ مختلفة لوجوده؟

كيف يستقيم عقلًا أن يكون هناك إله رحيم قادر ويسمح بوجود كل تلك الشرور في العالم؟ وكيف يستقيم عقلًا ألا يكون هناك إله مع وجود كل تلك الرحمة وذلك الجمال في العالم؟ ناهيك عن وجود العالم نفسه!

هل تعمد ذلك الإله أن يتركنا في تلك الحيرة حتى نؤمن به عن طريق الاختيار العقلي؟ أم أنه ليست هناك حيرة من الأصل وما هي إلا غشاوة على قلوب المتشككين وبصائر المرتابين؟

اقرأ سطور الكتاب التالية، وحاول أن تبحث معي عن إجابات لتلك الأسئلة، ثم قرر بنفسك لنفسك أي إيمان أيها القارئ الكريم تأمل؟ إيمانًا كإيمان ذلك الشيخ المذكور في صدر ذلك التقديم، أم إيماناً كإيمان عجائز خراسان؟!

والحق من وراء القصد...

كريم فرحات

القاهرة في ١١ من ديسمبر ٢٠١٣

الفصل الأول

الحـــل الوحيـــد!

" إنهـــا حقيقـــة: أن القليل من الفلســـفة قـــد تؤدي بالإنســـان إلى الإلحـــاد، ولكن العمق في الفلســـفة يُرجع عقول الإنسان إلى الدين.. "

«سير فرانسيس بيكون»

«هل تعلم أن الكافر ربع مسلم؟!!» قالها صاحبي وهو يتعمد إغاظتي..

نظرت إليه في بطء قائلًا: «ماذا تعني؟!»

أعني ما أقول تمامًا المنكر لوجود الله لسان حاله يقول إنه «لا إله..» والمسلم يؤمن بأنه «لا إله.. إلا الله ،محمد رسول الله» إذًا المنكر يؤمن بربع الشهادة!! قالها وهو يضحك منتظرًا مني إما أن أنهره وإما أن أقول له: بايخة! أو أن أضحك أنا أيضًا. ولكنني حدقت فيه لوهلة ليست بالوجيزة ثم استغرقت في تفكير عميق!

الغالب أنه لم يعجبه رد فعلي فتركني وانصرف وليته ما فعل..

أيقظتني عبارته كمن أفاقني بماء بارد. في الحقيقة ما جعلني أتوقف أمام عبارته أنها أزالت عندي معضلة فكرية استعصت عليَّ في وقت من الأوقات في فترة من فترات حياتي، في تلك الفترة لا أستطيع أن أقول إنني كنت مؤمنًا أو منكرًا.. أظن أن أقرب وصف لي في تلك المرحلة هو أنني كنت متشككًا، كانت دومًا عندي أسباب رجحان الإيمان أكثر وأقوى من أسباب الإنكار،

لذلك السبب آثرت أن أصف حالتي حينئذ بالتشكك وليس بالمصطلح المتعارف عليه حاليًا وهو «اللاأدرية» Agnostic..

عندما كنت في مرحلة التشكك هذه، كنت أظن أن اللاأدري لا جناح عليه لأنه تساوت عنده الكفة فلا هو مؤمن ولا هو كافر، فإن ثبت وجود الله فهو لم ينفه وإن لم يثبت أو ثبت عدم وجوده فهو لم يؤكده! وعلى الرغم من أن ظاهر العبارة السابقة يحتمل بعض الوجاهة فإن منطقها ينهار تمامًا عندما يفكر المرء بتجرد وحيادية، لأنه ليس هناك احتمالية ثالثة عندما نتكلم عن وجود الله، إما أن الله واجب الوجود (أي منذ الأزل) وإما أنه غير واجب الوجود، أما احتمالية «لا أعرف» هذه فهي هروب من الاختيار ومن السؤال!

أعني بغير واجب الوجود احتمالين:

1- إما أنه ذو وجود ولكنه غير أزلي.

2- وإما أنه ليس له وجود أصلًا.

فعبارة اللا أدري التي قد يُستند إليها أنه لو ثبت وجود الله فهو لم ينفه وإن لم يثبت أو ثبت عدم وجوده فهو لم يؤكده تصبح عبارة عبثية.. لماذا؟ لأنني ببساطة أستطيع أن أرد عليها قائلًا: إنه إذا ثبت وجود الله فهو لم يثبته وإن لم يثبت أو ثبت عدم وجوده فهو لم ينفه!! ويذكرني هذا بالقصة الفلسفية العبثية التي تحكي أنه كان هناك محامٍ حكيم في عصر من العصور.. فذهب إليه شخص وقال له علمني المحاماة على أن أعطيك أجرك ألف دينار عندما أفوز بأول قضية لي وتعطيني مثلها إن خسرت أول قضية لي..

وافقه المحامي القدير على ذلك وأخذ يعلمه كل فنون الجدال والمرافعة لمدة عام كامل، وعندما انتهى واستوعب التلميذ كل فنون الجدال طلب منه معلمه أن يدفع له أجره، فرد عليه التلميذ أنهما اتفقا ألا يدفع له أجره حتى يفوز بأول قضية له..

أحس المعلم أن جهده سيذهب هباءً فألهمه عقله بأن يرفع دعوى على تلميذه بألف دينار يأخذها إن فاز بها ويدفعها إن خسرها، وفي المحكمة وقف المعلم أمام القاضي يترافع قائلًا: يا سيادة القاضي، أريد ألَّا أضيع وقتك الثمين وأحل لك المسألة:

هناك احتمالان لا ثالث لهما: لو فزت أنا بهذه الدعوى فمن حقي الألف دينار وإن فاز تلميذي بها فأيضًا من حقي الألف دينار حسب الاتفاق المبرم بيننا منذ عام، ففي الحالتين من حقي الألف دينار!!..

ولأن التلميذ تعلم كل علوم الكلام وفنون البيان فقد وقف بدوره أمام القاضي قائلًا: يا سيادة القاضي، إن معلمي يضلل العدالة بعبارته السابقة وأنا أريد ألَّا أضيع وقتك الثمين وأحل لك المسألة:

هناك احتمالان لا ثالث لهما: إن فزت أنا بهذه الدعوى فمن حقي ألف دينار ومن حق معلمي عليَّ أن أدفع له ألف دينار حسب الاتفاق إذًا فلا أدفع له ولا يدفع لي.

وإن فاز هو بهذه الدعوى فمن حقه ألف دينار ومن حقي على معلمي ألف دينار حسب الاتفاق.. فلا يُدفع له ولا يَدفع..

فمن منهما المحق ومن منهما صاحب الحجة الأقوى؟!!

أردت أن أسوق تلك القصة التي تُعرف هي ومثيلتها في الفلسفة بالـ Paradox لألفت نظر القارئ لنقطة أراها مهمة.. وهي أن التركيب اللغوي لبعض الأسئلة أو التركيب لأحداث السؤال قد يؤدي إلى أن يكون السؤال لا معنى له من الأصل، فالدعوى المرفوعة في القصة باطلة من أساسها ولا يستطيع أن يقبلها القاضي من الأصل، وكان يجب على المتنازعين المعلم والتلميذ (خاصة المعلم) ليضمن حقه أن يضيف عبارة «على ألا تكون القضية الأولى للتلميذ بيني وبينه» في الاتفاق الأول فالاتفاق منقوص والدعوى مردودة..

الاتفاق منقوص لأنه غير مشروط والدعوى مردودة لأنه لا وجه للدعوى أصلاً لأنه عند رفع الدعوى لم يكن التلميذ قد فاز بأول قضية له أصلًا. (حسب الاتفاق) وفي الواقع هذا ما يحلو لبعض المتفلسفين أن يقوموا به عندما يريدون أن يهربوا من النتائج العقلية البديهية.. فنجد أحدهم مثلًا يسألك ظانًّا أنه يربكك: هل يستطيع ربك أن يخلق حجرًا لا يقدر على حمله؟! أو هل يستطيع ربك أن يخلق مخلوقًا أقوى منه؟! أو إلهًا آخر.. أو مثل ذلك..

والسؤال مردود من أصله لأن هناك فرقًا بين قدرة ذلك الإله وبين احتمالية أو إمكانية وجود حجر لا يقدر عليه الله، فتعريف «الله» عند المؤمن الموجه إليه السؤال أنه قادر على كل شيء.. ولكن ما هو تعريف ذلك الشيء؟

الأشياء المتصورة من حيث الوجود: إما أزلية الوجود، وإما قابلة أن توجد وإما غير قابلة للوجود أو قل إما واجبة وإما ممكنة وإما مستحيلة. وتعريف القدرة هو تنفيذ إرادة ما في الأمور الممكنة لا الواجبة ولا المستحيلة..

(وهناك شيء آخر ليس ككل الأشياء.. سمه إن شئت الله) والسائل يفترض أن ذلـك الحجـر لم يوجد بعد فهـو قطعًا غـير أزلي الوجـود.. ولكن هل هو قابـل أن يوجـد؟! الجـواب هو لا.. ليـس لأن الله غير قـادر عليه ولكن لأن «هـذا الـشيء» بديهي أن يكون أقل ممن أوجده من عـدم.. لأنه بما أنه كان في العدم وأصبح في الوجود فقط نتيجة للمسـبب، إذًا فالمسبب بديهي أن يكون أقـوى منـه؛ فليس محتملًا عقـلًا أن تكون النتيجة أقوى من السـبب، فيجب عـلى القارئ المنصف أن يكـون أمينًا ومتيقظًا لتلك الألعـاب التي لا تتعدى اللعب بالألفاظ أو بخلط ترتيب الحقائق ..

نعود الآن لصديقي الذي رماني بعبارة: إن المنكر ربع مسلم!

استوقفتني عبارته لأنها لفتت نظري إلى نقطـة يبدو أن عقلي الباطن كان يبحث عنها، وهي أن جزءًا من استدلالي على وجود الله كان يعتمد على نفي كل الاحتـمالات المسـتحيلة (أو الأخـرى التي قد تبدو في البدء مسـتحيلة)، فيبـدو أن بـدء الشـهادة بالنفـي «لا» لـه دلالة كبـيرة وكأن العبـارة ترد على معضلة فلسـفية وتقول «لا يمكن أو اسـتحالة أن يكون هناك إله عاقل قادر واجب الوجود بذاته إلا الله». وسنتعرض لتلك النقطة عندما نسوق منطقنا ببعـض التفصيـل.. ولكن ذلك يذكرني بالآية القرآنيـة الكريمة: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾﴾ (الإسراء:42-43).

وأيضـا: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَـٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (المؤمنون: 91).

وقبل أن أسوق استدلالي، أريد أن أبين أنه ليس الدليل الوحيد على وجود الله وليس حتى الدليل المنطقي الوحيد وكما يقول أحد سادات الصوفية: «كيف يستدل عليه وهو الدال على كل شيء؟»[1].

في زمننا هذا وفي زخم الحياة وأحداثها السريعة المتلاحقة أصبح العقل يستخدم النتيجة (المعلول) على أنها «الدليل» على وجود «السبب» (العلة) في حين أن المتأمل الحكيم يرى أن السبب هو الدليل على النتيجة وليس العكس!

وذهب بعض الفلاسفة أن العلة والمعلول لا ينفكان وقادهم ذلك بأن الكون قديم قدم خالقه عز وجل. ولم يفرقوا بين قدم الذات وقدم الزمان..

فأنت عندما ترى ظل الشجرة على الأرض، لا تقول إن ظل الشجرة قديم قدم الشجرة أو قديم قدم الشمس. فمن الممكن أن تكون قد استطالت الشجرة في الظلام مثلا فكانت الشجرة ولم يكن الظل. فالظل وهو النتيجة ليس قديماً قدم الشجرة وهي السبب (وفي الحقيقة أن الشجرة ليست السبب بل هي سبب من الأسباب والشمس مصدر الضوء الذي ستحجبه الشجرة هو سبب آخر والأرض التي ينعكس عليها الظل هي سبب ثالث أيضًا. وحقيقة الأمر أن الظل ليس حقيقيًا في ذاته بل هو انعكاس للحقيقة!

هي إذًا سبب «ضرورة قابل» وليس سبب «فاعل» ولذلك يرى بعض فلاسفة الإسلام وبعض السادة الصوفية أن الله «هو الفاعل» في كل شيء ولكل شيء لو قطع علينا المدد أو الإمداد لفنينا ! والمقصود بالفناء هنا ليس الموت بل الفناء التام! (كل من عليها فان)فالله هو السبب الأول وهو سبب فاعل وسبب ضرورة، ولذلك ضل الفلاسفة الذين ذهبوا إلى أن «الخالق»

(1) ابن عطاء الله السكندري تلميذ «المرسي أبو العباس» في كتابه الجميل «الحكم العطائية».

العلة الأولى لا تنفك عن «الخلق» المعلول في الزمن واستنتجوا تبعا لذلك أن الكون قديم قدم الله سبحانه.

فغير المؤمن الذي يقول: «لا إله» ويسكت، قد يكون قد قطع ربع الطريق لمعرفة الله.. أي أنه سلك هذا المنهج في التفكير ولكنه يعترف بأن عقله لا يستطيع أن يحل المسألة.. لأن عقله السوي يقول له إن لكل صنعة صانعًا وإن لهذا العالم خالقًا ولكنه يقف عند هذا الحد. لأنه يظن أن خالق العالم هذا هو مثل أي شيء ولكنه ليس بالضرورة كذلك..

ليس لأننا نُعرِّفه بهذا التعريف ولكن لأن هذا هو الحل الوحيد في المسألة. وهذا التفكير هو التفكير الحق وهو التفكير العلمي المتبع في إثبات النظريات وفي إثبات الحقائق العلمية. فقديماً طالما أثبتنا مسائل هندسية وحسابية بهذه الطريقة وذلك باستبعاد كل الحلول المستحيلة إلى أن يبقى حل واحد منطقي. وكوننا لا نرى السبب لا يعني أنه ليس هناك. بل قد يعني (في أغلب الأوقات) أننا محجوبون عنه. فنحن نرى المصباح الكهربائي ينير ولا نرى الموجات الكهربائية التي تسبب هذه الإضاءة. ولكننا نشهد بالعلم الذي يستند إلى المنطق أن هناك سببًا لهذه الإضاءة. أي إن هناك سببًا لتلك النتيجة. وبالتجربة العلمية والمشاهدة الحسية (ما نسميه بالعلم التجريبي) استطعنا أن نرى تلك الموجات...

فبالمثل نستطيع بالمنطق العلمي أن نقول إنه لا إله إلا من ليس كمثله شيء وهو ما نسميه الله.

ولكننا نعترف بقصور عقلنا عن مشـاهدته. والغريب أن اعترافنا بضعفنا هـذا وعدم قدرتنا على مشـاهدته هما اللذان قد يقربان البعض إلى مشـاهدته بالبصيرة لا بالبصر!!

أمـا النصـف الثـاني من الشـهادة وهو «محمد رسـول الله» فهـو إقرار بأن ذلـك الإلـه الذي ليس كمثلـه شيء لم يتركنا هكذا بل بعث إلينا من يرشـدنا إليـه والشريعة التي تهدينا إليه والحقيقة التي تقربنا منه. فهي تشـمل العقيدة والشريعة والحقيقة أو قل الإيمان والإسلام والإحسان. أو قل عليها التوحيد وعلوم السنة وعلوم التصوف. أو قل قيام القلب بوظائف الاستسلام وقيام الدين بوظائف الأحكام.

فلسـان حـال الملحد يقـول للمؤمن: تقـول إن لكل صنعـة صانعًا، فمن صانع الله؟ وكما أسـلفنا فذلك مردود عليه بـأن الصانع الذي يعتقده المؤمن هـو واجب الوجـود بذاته. ثم مـن قال للملحـد إن «الخالق» الـذي يعتقده المؤمـن هـو صنعة يتعين أن يكون لهـا صانع؟ وقد يتمادى الملحد في السـؤال بـأن يقـول: ذلك مجـرد تعريف لصورة ذهنيـة أو خيال وهـي فقط من صنع ذهن المؤمن.

ولكـن الحقيقـة البسـيطة التي يتجنبها بعـض غير المؤمنين، هـي أن لكل مصنـوع صانعًـا فلا بد من صانع لهـذا الكون، ما صفاتـه؟ كيف هو واجب الوجود بذاته؟ إنهما سؤالان مختلفان وغير مرتبطين بالضرورة.

ثـم لـو كان الملحد صادقًا في سـؤاله عـن كيفية وجوب وجـود الله بذاته فلماذا لم يسـأل نفسـه أولًا (وهو الذي لا يؤمن بخالق) كيف أن ذلك الكون اللاعاقل موجود بذاته أيضًا؟!! مع أن كل شيء فيه له سبب؟. فهل يعقل أن

تكون جزئيات الكون حتمية الأسباب وإجمالي الكون لا سبب له؟! أم تراها كانت هناك منذ الأزل؟

فهل يصدق بل ويؤمن ذلك الملحد حقا أن هناك ذرة لا عاقلة بسيطة التكوين (لا يراها الآن، بل يستنتجها ويستنتجها بالعقل المجرد) كان لها وجود أزلي خرجت منها الحياة من كائنات وأفلاك وبحار وإنسان، ولا يستطيع أن يصدق أنه لا يستحيل عقلًا أن يوجد إله عاقل أزلي قادر على أن يوجد كل شيء من العدم.. ثم ما الذي أثار تلك الذرة اللا عاقلة لتخرج لنا هذا العالم؟ ما المؤثر الذي أثر عليها-و هي الأزلية في نظره- وما الدافع لديها -و هي غير العاقلة-؟ وهل هذا المؤثر من خارجها أم جزء منها؟ فإن كان من خارجها فهذه الذرة إذا ليست بداية الكون وإن كان من ضمنها فالمؤثر والمؤثر عليه شيء واحد وهذا لا يستقيم إلا لو كان شيئا واحدا مركبًا وذا أجزاء. فما الذي دفع بعضه للتأثير على بعضه الآخر. هل ذلك مؤثر ثالث من خارجها أم من ضمنها أيضًا؟؟

بعض غير المؤمنين المعاصرين مثل ريتشارد داوكنز وغيره يؤمن بأن للكون بداية بسيطة كالذرة ثم تطور على مدار بلايين السنين وأدى إلى ظهور العنكبوت والثعبان والخفاش والحوت ثم الإنسان ! ويؤمن بأن ذلك أكثر منطقية وعلمية من وجود إله عاقل (معقد التركيب في نظره) دون أن يوجده أحد.. ومع أنه يعترف أن نظرية النشوء والارتقاء (سنتعرض لها في الفصل الثالث) تُعنى فقط بالأحياء ولا تعنى بعلم الطبيعة أو الفيزياء أو الفلك، ولكنه يرى أن العلم قادر على أن يخرج لنا نظريات مماثلة (تفسر لنا تطور الكون والتطورات الفيزيائية والكيميائية له من أبسطها وصولا لأعقدها).

ومـع احتـمال إمكانية أن تفـسر نظرية داروين للنشـوء والارتقاء بعض التطـورات في السلسـلة الواحدة، عجـزت أن تثبت جدارتهـا أو مصداقيتها العلمية بالنسـبة للتطور ما بين السلسـلات المختلفة. فقـد تكون جديرة بأن تفـسر علاقـة التطـور ما بين البغـل والحمار والحصـان مثلا ولكنهـا لا تثبت بالدليـل القطعـي ناهيـك عن التجريبي بين السـمكة والجمـل أو بين القنفذ والإنسان! وفي جميع الأحوال، ما المانع أن يكون ذلك التطور هو الآلية التي أقرها الخالق لمخلوقاته؟!

في نهاية تلك النقطة ،حيث إن تلك النظرية لا تفسر كيفية بداية المخلوقات الحيـة ،يجب الاتفاق بـين المنصفين مؤمنهم وكافرهم أن إيجاد شيء من العدم يستحيل عقلا إلا بوجود إرادة مؤثرة (عقل) وراء إدراكنا يستطيع فعل ذلك وإلا من أين جاءت تلك الذرة البسـيطة اللا عاقلة وكيف أتت من العدم إلى الوجـود ومـا دافعها أن تتحول وتتطور إلى سـمكة ثم قنفذ ثم إنسـان؟! ألا يتطلب ذلك قدرًا أكبر من الإيمان الأعمى في نظريات قد تكون قد اكتسبت شهرتها فقط لأنها لاقت هوى عند البعض؟!

جـرى النقاش القادم الممتع بين الفلاسـفة عبر العصـور. فالفارابي وابن سـينا مثلًا ذهبا بقدم العالم. وفند الغزالي آراءهما في كتابه (تهافت الفلاسـفة) ثم رد ابن رشد على الغزالي في كتابه: (تهافت التهافت).

فالفارابي وابن سينا ذهبا إلى استحالة تأخر المعلول- وهو العالم في حالتنا هذه(صـدور حـادث من قديم) عـن العلة (الله سـبحانه) لأن ذلـك التأخر سـيكون أحد ثلاثة أمـور وكلها (في نظرهم) لا تتفق مع الشروط المسـتنبطة الضرورية لصدور العالم من الخالق القديم.

1- أيكون ذلك التأخر لأن العالم كان مستحيلًا ثم أصبح ممكنًا؟ لا يجوز ذلك، فلا بد أن تكون **إمكانية** حدوث العالم قديمة.

2- أم يكون ذلك التأخر لأن الله ما كان قادرًا (سبحانه حاشا لله) ثم قدر أو كان غير مريد ثم أراد؟ لا يجوز ذلك أيضًا لأن قدرته وإرادته قديمتان ثابتتان.

3- ثم إن كان ذلك التأخر صحيحًا ، فلماذا اختار الله أن يؤثر وقتًا لاحقًا ليوجد فيه العالم؟ هل لأن ذلك الوقت أفضل من غيره؟ والمفروض أن الأوقات متساوية في جواز تعلق إرادته بها!

هـذا مضمون آراء الفلاسـفة الذين ذهبـوا إلى قدم العـالم وهم بذلك قد خالفوا فلاسـفة الإغريق ومنهم أرسـطو فقدم العالم عندهم لا يعني أنه غير معلول لله كما ذهب أرسطو. بل يعني عندهم أنه غير متأخر عليه بالزمن مثل الضوء للشمس والخاتم لليد.

ورد عليهم الغزالي وفند آراءهم بحجتين:

أولًا: بعدم استحالة صدور «حادث» (غير قديم) من قديم:

ذهب الغزالي بعدم اسـتحالة صدور «حادث» (غير قديم) من قديم وهو بذلـك يفنـد مقدمات دليلهم. فما المانـع (في رأيـه) أن الله أراد حدوث العالم منذ الأزل وأراد حدوثه في وقت معين؟ فوجد العالم في الوقت المحدد بإرادة الخالـق الأزليـة؟! وهو بذلـك يفند مقدمـات دليلهم ويفنـد نقطتهم الأولى والثانيـة. فـرد ضمنيا عـلى الأولى بأن العـالم **الممكن** حدوثه منـذ الأزل (غير مسـتحيل). ورد على النقطة الثانية بأن الله (سبحانه) ذو إرادة وقدرة أزليتين

قديمتين ولكن آثار تلك الإرادة قد تحدث في زمن متأخر أما رده على نقطتهم الثالثة فيتلخص في حجتين: أولًا :لا ينبغي أن نقيس إرادة الله على إرادتنا وبالتالي يسقط تساؤلهم عن لماذا آثر الله وقتا لاحقًا ليوجد فيه العالم. ثانيًا: أنه حتى لو قسنا إرادة الله على إرادتنا فالإرادة صفة من شأنها تمييز الشيء عن مثله. ونحن كبشر نفعل ذلك.

وضرب مثلًا رجلًا متشوفًا للثمر وأمامه ثمرتان متساويتان ولا يستطيع أخذهما معًا. فهو في هذه الحالة يختار واحدة وبالتالي خصص الشيء عن مثله. فبالمثل تخصيص الله لوقت لاحق لا شيء فيه لأن الأزمان جميعها متساوية قبل ظهور الأحداث فيها. وبالتالي فند (في رأيه) حجج الفارابي وابن سينا باستحالة عدم قدم العالم.(باستحالة حدوث العالم) أي فند رأيهم بزعمهم أن العالم قديم قدم الله.

أما ابن رشد فقد وافق الغزالي بجواز تأخر المعلول (العالم) عن إرادة العلة (الله) ولكنه ذهب إلى أنه كان يتعين على الغزالي أن يفند آراء الفلاسفة من منطلقين:

(١) إما أن يذهب إلى أن فعل الخلق الحادث لا يوجب تغيرًا في الفاعل أو:

(ب) أن من التغيرات ما يجوز أن يحدث للقديم من غير مغير وهذا (في نظر ابن رشد)،ما لم يقم به الغزالي.

ورد على مثال الغزالي بالتمرتين ذاهبًا إلى أن اختيار المثل عن المثل هو في واقع الأمر اختيار المثل **بدلًا** عن المثل وليس إيثارًا لأحدهما بل هو إرادة أخذ أحدهما **بدلًا** من عدم الأخذ بكليهما معًا» فهي إرادة تؤثر الأخذ عن الترك.

فـلا يجـوز أن نقول (في نظره) إن الله آثر وقتًا على وقت لخلق العالم، بل إنه آثر خلق العالم وإيجاده على عدمه.

مـا سـبق كان رأى بعـض الفلاسـفة ورد الغزالى عليهم ثم رد ابن رشـد عليه في مسألة **استحالة ظهور حادث من قديم.**

2 - وما يلي فهو بخصوص المسألة الثانية التي أثارها الفلاسفة وهي:

ثانيا: استحالة تقدم الله على العالم:

رأى الفلاسفة أن تقدم الله على العالم يكون أحد أمرين: إما تقدمًا بالذات وإما تقدمًا بالزمان.

فلـو كان تقدمًا بالذات كتقدم حركة الشـخص عـلى حركة ظله أو حركة اليد على حركة خاتمها، فهذا التقدم (وإن كان بالذات المحركة) فإنها لا تعني تقدمًا بالزمن. بل هي قد تعني مسـاواة زمنية في أغلبها. (وبالتالي العالم قديم – زمنيًا – قدم الله – في نظرهم) وأما إن كان تقدم الله على العالم بالزمن فهنا (في نظرهم) تكمن المشـكلة: لأن ذلك سيعني بالضرورة وجود زمن يفصل بـين وجود الله القديم الأزلي وبين خلق العـالم المحدث. ولأن الله قديم أزلي (هو الأول) فسـيكون ذلك الزمـن الفاصل زمنًا لا أول لـه فيكون قديماً هو أيضًـا. وتعريـف الزمن أنه قدر الحركـة ، ولا حركة دون متحـرك فهناك إذًا حركـة قديمة ومتحـرك قديم لا أول له وهو العـالم أو بعض العالم.. وبذلك يستحيل (في نظرهم) حدوث العالم سواء كان تأخرًا ذاتيًا أو زمنيًا. إذًا فالعالم (في نظرهـم) قديـم. (و لو لم تكن هناك حركة بـين وجود الله والعالم –أي لا زمن – سيؤدي ذلك أيضًا إلى نتيجة حتمية (في نظرهم) وهي أن العالم الحالي

لا يفصل وجوده عن وجود الله أية زمن وبالتالي نخلص إلى أنه قديم قدم وجود الله -أي أزلي).

أما الغزالي فرد عليهم بأن الزمان نفسه هو مخلوق من مخلوقات الله وقوله بحدوث العالم (تأخر العالم عن الله) يعني ببساطة انفراد الله قبل الوجود. (وهذا قريب من تصور السادة الصوفية بما يسمونه **مقام الأحدية أو مقام جمع الجمع**. وهو يعني (في نظرهم) أنه كان الله الأحد ولم يكن شيء (ويسمونه أيضًا العماء) وهم يذهبون إلى أنه في هذا المقام تستهلك صفات الله في ذاته سبحانه: فهو خالق قبل أن يخلق وهو رزاق قبل أن يرزق وهكذا، وهذا ما يسمونه بمقام جمع الجمع كما قلنا. لأن الصوفي المتحقق بهذا المقام (في نظرهم) لا يرى الموجودات ولكن يرى إمداد الله سبحانه للخلق في كل لحظة وكل طرفة عين ويرى فواصل العدم التي تفصل الإمداد فهو لا يرى العالم بل يرى الخالق الممد في كل طرفة عين فهذا هو مقام جمع الجمع (يسمونه أيضًا تعين صلوحي قديم).

أما **مقام الجمع** عندهم فهو المتحقق بتعلق الصفات بالذات (يسمونه تعلق تنجيزي حادث) فهذا **مقام الواحدية** التي تعلقت صفات الله بذات الله لتنجيز الحوادث في العالم فيكون المتحقق بمقام الجمع عندهم هو الذي يرى الله من خلال العالم من خلال كل صغيرة وكبيرة في العالم أما مقام جمع الجمع فهو لا يرى العالم أصلا بل يرى إمداد الله كل لحظة.

فلعل الغزالي يشير إلى مقام الأحدية في كلامه عندما يذهب إلى انفراد الله قبل العالم. ويرد عليهم بأن الزمان نفسه مخلوق فقبل العالم الحادث ما كان

زمـان أصلًا وبذلك يكون العالم متأخرًا عـن الله القديم وتبطل حجتهم (في نظره) .

أما ابن رشـد فهو يوافق الغزالي في أن تقدم الله على العالم ليس زمانيًا وأن الله لا يلحقه زمانٌ أصلًا. فالوجود في نظره نوعان:

إمـا متحـرك زماني وإما ثابـت أزلي. فإذا تقدم متحرك عـلى متحرك كان هـذا التقـدم زمانيًا وإن تقـدم ثابت على متحرك (كتقـدم الله على العالم) فلا يمكـن أن يقال إنهما معًا أو إن الثابت يسـبق المتحـرك زمانيًا وهو هنا يخالف الفـارابي وابن سـينا بأنه لـو تقدم الله على العـالم لكان هنـاك فاصل زمني لا أول لـه وبالتـالي خالف حجتهـم التي تقول باسـتحالة تقـدم الله على العالم. ولكنـه يخالف الغزالي بقوله (قول ابن رشـد) إن الزمـن قديم ولذلك فالعالم حادث. وهو هنا يستشـهد ببرهان أرسـطو على قدم العالم فيحدد «الآن» بأنه نهاية ماض وبداية مسـتقبل. فتصور «آن» ليس قبله ماضٍ «مستحيل» فلكل قبل قبل وكل زمان مسبوق بزمان إلى ما لا أول له فالزمان قديم والعالم قديم (في رأيه).

دعونا نَعُد إلى مثل الظل والشـمس السـابق. فهل الظل دليل على وجود الشـمس أم الشـمس هي دليل الظل؟ توجد آية في القرآن كانت تسـتوقفني دومًـا وهـي: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴾ (الفرقان:45).

كانت تستوقفني هذه الآية لأن مؤداها أن الشمس دليل على الظل وليس العكـس. وكأن السـبب هو الـدال على النتيجة. وكأنها تريـد أن تقول إن الله سـبحانه وتعالى (السـبب الأول لكل شيء هو الدليل على جميع الخلق وليس

العكس، وكان ابن عطاء الله السكندري يقول نفس الشيء بقوله: كيف يستدل عليه وهو الدال على كل شيء؟!!

فلا يعقل أن يستدل بشيء على الذي ليس كمثله شيء ولذلك كانت عبارة لا إله (أي لا إله متصور) .. لأن العقل لا يتصور إلا ما عقل ولا يعقل إلا ما شاهد.. فكأن الشهادة تقول: نشهد أن كل إله متصور في عقولنا ليس بإله. وإنما الإله الحق هو «الله» الذي ليس كمثله شيء وقد يكون ذلك سبب بدء الشهادة بالنفي. وربما يكون ذلك ما أعضل عن فهمه بعض الفلاسفة بقولهم إنه لو سلمنا أن كل شيء له خالق لقلنا بأن الله له خالق وهكذا إلى ما لا بداية له. وهذا عبث لأن تصور شيء لا بداية له أو سلسلة من الأشياء لا بداية لها محال. ولكن الرد الأكثر منطقية لتلك المسألة هو أنه هناك إله ليس كمثله شيء قديم لا أول له ولا سبب له. هذا هو الحل الوحيد الذي يفسر وجود العالم: أنه «لا إله إلا من ليس كمثله شيء»!!

ثالثًا: أما المسألة الثالثة التي أثارها الفلاسفة في قدم العالم فمضمونها هو: أنه بما أن إمكان حدوث العالم قديم فالعالم إذا قديم:

ذهب الفلاسفة بأن إمكان العالم قديم لا أول له لأن العالم ما كان مستحيلًا ثم أصبح ممكنًا. والحال (في نظرهم) أن الإمكان وصف إضافي لا يجوز أن يقوم بنفسه فلا إمكان بدون كائن مثلما أنه «لا سواد» بدون شيء أسود: فهناك إذًا كائن قديم وهو العالم..

أما الغزالي فنفى وجوب أن يقتضي الإمكان وجود الكائن فالقول يحكم بأن الشيء ممكن أو مستحيل. ويسمى ممكنًا كل ما يراه العقل غير مستحيل.

أما ابن رشد فانتصر لآراء الفلاسفة وذهب إلى ما ذهب إليه أرسطاطاليس وهو عدم جواز تكَون شيء من لا شيء فيقول بمادة أزلية غير معلولة تكونت منها الأشياء وتكون العالم. وأنا أرى أن هناك فرقًا بين إمكانية وجود الشيء والشيء نفسه. فإمكانية خروج طفل من رحم الأم لا تعني على الإطلاق أن الأم وطفلها لهما نفس العمر أو القدم.

الحجة الثانية التي يسوقها الملحدون هي شبهة النقص في الكون وشبهة الشر في الكون وكيف يستقيمان مع خالق كامل الرحمة وكامل القدرة.

وفي الواقع تلك من الحجج التي ألبست عليَّ فترة من الفترات إلى أن أزاحها الله عني بفضله فأصبحت وكأن لم تكن، الإشكال كله يحل عندما يوقن المرء أن درجة إتقان الكون الذي يراه تدل على خالق حكيم. فعندما يرى إحكام الكون وسرعة الأجرام المنضبطة التي تمكن علماء الفلك من توقع حدوث كسوف أو خسوف باليوم والساعة والثانية وعندما يرى دقة وإحكام خلق الإنسان ذكاءه وإبداعه ويرى دقة الأنظمة المختلفة داخله من نظام تنفسي ونظام هضمي وهكذا.. عندما يرى كل هذا وغيره يوقن الإنسان السوي أن لهذا الكون مهندسًا أول حكيمًا خبيرًا وقائمًا بذاته على شئون عباده وكل يوم هو في شأن من شئونهم. وعندما يرى مثل هذه الأنظمة في جسم كائنات ضئيلة مثل النمل أو ما هو دونها يوقن تمام اليقين أن مبدع الإنسان هو مبدع النمل ومبدع الجمادات التي تطوف بداخلها الإلكترونات هو نفسه مبدع الكواكب التي تطوف حول شمسها والتي تطوف بدورها حول مركزه مجرتها، وعندما يتدبر الإنسان السوي في كل هذا وغيره وعندما يتأمل في ضعفه وحاجته إلى الطعام وحاجته إلى الإيواء وحاجته إلى التنفس يعلم أنه الفقير إلى ذلك الخالق الغني، وعندما يرى أن الجمادات من أرض

وتربة وشمس وبذور تخدم ما هو أعلى منها وهو النبات ويرى النبات يخدم الحيوان ويرى الحيوان يخدم الإنسان، فمن يجب أن يقوم الإنسان بخدمته يا ترى؟ عندما يرى الإنسان السوى النقص الذي هو فيه، يعلم أن عقله القاصر لا يستطيع أن يحيط بحكمة الخالق علمًا. فيرى الكوارث الطبيعية في الكون والحروب ويرى البعض من الناس (على قلة نسبتهم) من يولد ببعض المعوقات فيظن أن هذا نقص ولا يعترف بقصور عقله وضعف جسمه وينسى أن جميعنا معوق بشكل أو بآخر وإنما هي معوقات ظاهرة وأخرى مستترة! ويسلم أن خالق ذلك الكون القادر الحكيم له حكمة في ذلك. وكم من أشياء كثيرة من مرض وغيره مرت على الإنسان ثم تبين له أنها خير له: فلا يحكم على تمام الكمال ناقص بل يحكم عليه الحكيم الخبير، ثم إن ذلك الإنسان السوي المؤمن بالخالق الحكيم، يؤمن أيضًا بأن هذه الدار ليست المنتهى ولذلك فإن الإشكال محلول بالنسبة إليه؛ لأنه لم يقل مؤمن أبدًا إن هذه هي دار الكمال!!

فلو كانت هذه الدنيا كاملة ففيم الآخرة؟! ثم هل يعرف الكمال إلا بتحقق النقصان؟! هل تعرف الصحة إلا بعد أن يمر المرء بتجربة المرض؟! هل تستطيع أن تشعر بالشبع دون أن تجوع؟!

يريدون كمالا تامًّا في هذه الدنيا، فهل ينقلب كل الناس آلهة تمشي على الأرض إذًا؟!

هل يتساءل الإنسان السوي عن «شكمان» السيارة ويقول عنها إنها نقص لأنها تخرج أدخنة؟! أم لها حكمة يا ترى وبها وبغيرها تجنح السيارة إلى تمام الكمال؟!

إذًا باختصار، يصعب على الإنسان السوي أن يعترف بنقصان عقله وعدم إحاطته التامة بحكمة الكون كله ويجب أن يعترف أيضًا باستحالة تمام الكمال في هذه الدار وإلا أمست جنة وأصبح الإنسان إلهًا يمشي على الأرض!

بقيت نقطة أخيرة وهي شعور ذات من نراه نقصًا. فمثلًا نحن نرى المجنون ونراه نقصًا في الكون. ولكن ألا نسأل أنفسنا كيف يرى المجنون نفسه أصلًا؟ يستطيع أن يفعل ما بدا له في الكون ولا يلومه أحد ويخدمه كل الناس. فهو كالملك يمشي على الأرض. وهل يتطلع العاقل لأكثر من ذلك؟ أن يفعل ما بدا له وأن يخدمه كل الناس؟! هل نراه نقصًا لأنه أقلية؟! هل لو أصبح أغلبية الناس مثله لاختلف الرأي؟! الحق أن ما يراه القاصر نقصًا وما يراه كمالا هما كلاهما نقص في حقيقتهما ولكن بدرجات متفاوتة وفي أشياء مختلفة، ووجودهما معًا هو الكمال بعينه. تمامًا مثل صفات الجلال والجمال لله عز وجل هما تمام الكمال!!.. فالكون ناقص لو تدبرت جزئياته على حدة ولكنه كامل لو نظرت إليه نظرة شاملة عامة.. فالقضية إذًا نسبية وتعتمد على منظورك إليها بل وإلى منظورها إلى نفسها أيضًا، فنرى مثلًا من ولد أعمى له قدرات خاصة لا تكون عند المبصر وهكذا..

تمامًا مثل صفات الله عز وجل من جمال وجلال، فلو نظرت إلى صفات الجلال وحدها لتوهمت نقصًا ولو نظرت إلى صفات الجمال وحدها لتوهمت نقصًا، فمثلًا لو نظرت إلى صفته الجلالية: المنتقم.. وحدها لتحيرت ولكن لو نظرت إليها أنها انتقام من الظالم لنصرة المظلوم لعرفت فيها الكمال.. وكذلك لو نظرت إلى صفة الجمال مثل «الرحيم» قد تراها ضعفًا ولكن لو نظرت إلى تكامل صفات جلاله وجماله سبحانه وتعالى لعرفت الكمال وتذوقته، ومن ذاق عرف ومن عرف اغترف.. فانتبه..

وما الكون المنظور إلا آثار تعينات صفات جلاله وجماله، فيجب أن تنظر إلى هـذه الآثار من نفس المنطلق وسـوف تعرف حينئـذ أنك أنت المحجوب عن الكمال لا هو!!! بل هو الكمال بعينه سبحانه..

كلمنـا الملحدون عن الشر الـذي يرونه في الكون فدعونـا نحدثهم نحن عـن الخير الـذي نراه ولا يرونـه.. دعنا نحدثهـم عن الرحمـة منقطعة النظير بـين الأم ورضيعها سـواء من النـاس أو حتى الحيوانات المفترسـة. ما الذي يجعـل أنثـى النمر تـذود عن أطفالهـا وتعرض حياتهـا للخطر خارقـة نظرية الصراع من أجل البقاء؟!.. ما الذي يجعل الإنسان السوي يتطلع دائمًا للحق والعـدل؟!.. من الذي خلـق فوقنا الغلاف الجوي سـقفًا محفوظًا يحمينا من الشـهب والنيـازك؟ من الـذي يضبط الغلاف الجـوي ودرجة الحـرارة على الأرض فنسـتطيع أن نعيش فوقها آمنين مطمئنين؟! سيرد عليك الملحدون: بأننا وجدنا على تلك الأرض لأن بها هذه المواصفات وليس العكس! ولكن ما الذي جعلنا نستمر عليها وما الذي ضبط دقة حركة الأفلاك بشكل منقطع النظير؟ أليس هو العليم الخبير؟ نحن لا ننكر أن الكائنات تتطور وتتأقلم مع بيئتهـا، ولكننا نرجع هذا التأقلم إلى الخالق أيضًا، لأنه لا بد للإنسـان (حتى الآن) في أن يولد أسـمر البشرة ليحتمل الشـمس في إفريقيا أو أن يولد الدب القطبي بطريقته ليتحمل شدة البرودة، نحن لا نقول إن الله خلق الأنف حتى يسـتطيع الإنسان أن يضع نظارته عليه.. ولا نقول إن الإنسان فكر أن يصنع النظـارة بهذا الشـكل ليتمكـن أن يضعها على أنفه.. بل نقـول بالرأيين معًا.. لأنـه لو وجد الأنف بدون خبير بصير لوجدنا فيـه اختلافًا كبيرًا وقد يصبح كل يوم بشـكل أو في كل إنسان بشكل وهكذا.. فلولا توالي الإمداد ما وجد الإسعاد!! ويكفينا أن هناك عينًا ترى أصلًا لنضع أمامها النظارة!

ما الذي أتى بهذا النظام (الذي هو جزء من الخير) في هذا العالم؟ لو لم يوجده حكيم خبير لفسد العالم ولم يكن ليستمر إلى يومنا هذا ولولا هذا النظام لما تمكن الإنسان من أن يبني عليه أية قوانين رياضية ولما تمكن من اختراع أي شيء أو ترتيب أي شيء بناءً على أي شيء..

ينظر الملحد إلى الساعة المحكمة ولا يرى جمالها أو دقتها ولكنه يقول: لا يمكن أن يكون مهندسها حكيمًا لأن عقرب الساعات أقصر من عقرب الدقائق، ثم لا يمكن أن يكون هناك مهندس لها أصلًا لأنه من اختراع المهندس؟! أو يقول لا يمكن أن يكون ذلك الإنسان أنه هو مهندسها لأنه اخترع المهندس؟! أو يقول لا يمكن أن يكون ذلك الإنسان هو مهندسها لأنه لا عقارب له أو لا زمبلك له أو لأنه بدون بطارية!!، فهو بجهله يظن أنه يجب أن يكون السبب مثل النتيجة، ونحن نقول إن لكل نتيجة سببًا وليس لكل سبب سببٌ وإن وجد فلا يتحتم أن يكون مثله ! ولكن لا يعقل أن تكون أجزاء الساعة لها صانع وتتحرك بسبب والساعة نفسها لا يوجد لها صانع أو مسبب!

ثم يتمادى في هذيانه ليقول إنه يؤمن أن هذه الساعة كانت في الأصل لا شيء ثم بفعل «التطور والزمن» أصبحت ذرة ثم أصبحت نملة.. ثم لم تتحمل هذه النملة الحرارة فأصبحت عقربًا، وبعض النمل أصبح عقربًا للساعات والآخر للدقائق! ولا ننسى أن بعض النمل بقي كما هو.. وللأسف لم نجد كل المخلوقات التي مرت عليها النملة إلى أن أصبحت عقربًا لأننا لم نبحث جيدًا !، ومن الذي غير تلك المؤثرات يقولون الطبيعة، مع أن المؤثرات هذه هي الطبيعة التي نتحدث عنها نفسها!.. ثم بدأت العقارب تتحرك لوحدها (لماذا؟.. لا أحد يعرف) وأصبحت بألوان مختلفة جميلة من تلقاء

نفسـها، لماذا؟ لا أحد يعرف! وأصبحت دقتها متناهية يسـتخدمها الإنسـان (الذي هو أصله من ذات الذرة التي خرجت منها النملة) ويلبسـها في يديه، وعندمـا نسـأله: لماذا تؤمن أن الذرة جاءت مـن العدم ثم فعلت كل هذا ولا تؤمـن بعاقل خالق لا يحتاج إلى موجـد (مثل الذرة) لرد قائلًا بصوت مرتفع هداه الله: ومن خلق إلهكم هذا.؟! تمامًا مثل سـؤاله وكيف لا يحتاج مهندس الساعة إلى زمبلك؟!..وكأنه وجد إجابات كل الأسئلة الأخرى ليسأل ذلك السـؤال! فنرد عليه مشـفقين: لأن طبيعتهما مختلفة؛ فالله لا يحتاج إلى موجد كـما أن مهندس السـاعة لا يحتاج إلى زمبلك، رد المسـكين قائلًا: ولكن ذلك تعريف أنتم قائلوه، لقلنا له قبل أن نقول سلامًا: ذلك لأن ذلك هو التعريف الحق.. وذلك هو التعريف الوحيد الممكن.

فكما قلنا في مسـتهل حديثنا، الكافر يؤمن أنه لا إله، ولكنه يناقض نفسـه لأنـه يؤمن بأحد أمرين: إما أن هناك نقطـة بداية لا موجد لها وإما أن الكون قديم أو صدر عن ذرة قديمة.. والاعتقادان عبث، لأنه يستحيل عقلًا وتجربةً وجود شيء غير عاقل يوجد نفسـه بنفسـه من العدم، ويستحيل عقلًا وتجربة أيضًـا وجود شيء غير عاقل قديـم أزلي ثم تصدر عنه فجأة جميع الموجودات دون سـبب أو دافع أو دون وقوع حادث عـلى ذلك الذرة (لأنه لا يوجد إلا هـي أصلًا في اعتقاده)، فلسـان حال تلك الغير مؤمـن بخالق أن تلك الذرة هـي إلهه، وهـي إله مريح لا يطلب منه شـيئًا ولا ينهاه عن شيء . فما أسـهل ذلـك الاعتقـاد وأقربه إلى عقله وشـهوته وهواه (أفرأيت مـن اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم..).

أمـا المؤمـن، فهو كالكافر مع الفـرق أنه يقول مثله أنـه لا يعقل أن يكون هنـاك إلـه، إلا أن يكـون ذلك الإله هـو الله، فذلك هو الحـل الوحيد في نظر

المؤمـن، وكلمـة «الله» كلمة عجيبة كأن ألفها تدل عـلى الوحدانية وتدل على الأولوية وتدل على الاستقامة والتوازن بين الصفات الجلالية والجمالية، ولو حذفت الألف: لبقي «لله» وكأنك تقول للكل أنا وأنت في مقام المشاهدة أن كل شيء لله، وإذا حذفـت اللام، صارت: «له» وكأنك تقول في مقام المراقبة أن كل شيء مآلـه ومنتهـاه إلى الله، فإذا حذفت «الـلام الثانية» صارت «هو» وكأنـك في مقـام القرب تحكي عـن الله فهو الـذي بيده ملكوت السـموات والأرض هـو الرحمن الرحيـم، فكأن «هو» تحكي عن الله وبالله، فكان اللفظ العجيـب: «الله» هـو جمل مفيـدة متحـددة مؤداها أنه ليـس كمثله شيء وأن كل شيء منـه وبه وإليـه..!! وبذلك يجيب مثل ذلك اللفظ عن التسـاؤلات الثلاث المشهورة التي يسألها الإنسان دومًا:

1- من أين أتينا؟ من الله.

2- ولماذا أتينا؟ لنعيش لله.

3- وإلى أين سننتهي؟ له.

وسؤال رابع يسأله المؤمنون: كيف نعبده؟ وإجابته بالله أي بالاستعانة به (إياك نعبد وإياك نستعين)..

ومما سبق نخلص أنه:

1- أي شيء إما سبب أو نتيجة أو الاثنان معًا (سبب لشيء ونتيجة لشيء آخر). لاحظ أن «الله» في تعريفنا :ليس كمثله «شيء» وبذلك هو خارج عن هذا التعريف

2- السبب يسبق نتيجته دائمًا.

3- لا نتيجة دون سبب.

4- أي سبب قد يكون نتيجة لسبب سابق.

5- وبالتالي: أي نتيجة قد تكون سببًا لنتيجة تالية.

6- أي نتيجة لها سبب وليس بالضرورة أي سبب له سبب، (وإن كانت الأسباب التي نراها لها سبب يسبقها لأنها نتائج ولأنها «أشياء»).

7- لا يستحيل عقلًا أن يتواجد سبب دون سبب.

8- أي سبب له نتيجة (وإلا لم يكن بسبب).

9- لا توجد نتيجة مستمرة للأبد إلا بوجود سبب أبدي أو أسباب أبدية تمدها بالاستمرارية.

10- إذًا: لا يمكن تخيل نتيجة أبدية لسبب لا أبدي. إلا لو اعتمدت النتيجة على أسباب أخرى أبدية غير أزلية (وذلك محال) لأنها لو كانت غير أزلية لسبقت بعض النتائج بعض أسبابها وذلك محال (من 2 و3). وبالتالي قد يكون ذلك السبب (الأبدي غير الأزلي سببًا لاستمرارها وليس لوجودها وليس هذا ما نتكلم عنه وإنما نحن نتكلم عن أسباب الإيجاد).

11- لا يمكن تخيل أكثر من سبب واحد أزلي وإلا لفسدت النتائج، إلا لو اتفقت تلك الأسباب تمامًا الأمر الذي سيعني عقلا توحد الإرادة وهو ما يعني أنهم سبب واحد في النهاية وهو ما نطلق عليه الله..

.. هناك نقطة ثالثة قد يثيرها أحيانًا المعترضون على فكرة الإله وهي الآثار المترتبة على الإيمان بهذه الفكرة، أي نتيجة الإيمان بفكرة الله، وهل هي نتيجة إيجابية أم سلبية، هل هي فكرة حررت الإنسان من الظلم والطغيان

وعدم العبودية لأحد إلا الله؟ أم هي قيدت الإنسـان وسلبت حريته وعقله، هل من نتائج تلك الفكرة (فكرة الإيمان) تحقيق السلام أو بعضه أم العكس كان الصحيـح؟ هـل هـي أفيـون الشـعوب كـما ذهـب (كارل ماركـس) في أول نظريتـه (التـي يرى البعض أنه رجـع عن هذا الرأي قبـل وفاته) أم هي وقـود للشـعوب يحملهم على طلب العلـم والعمل وإقامـة الحضارة وعمارة الأرض؟! باختصـار وبالنظر في التاريخ النظريـة والتطبيق الواقعي هل كان الإيمان والدين نعمة أم نقمة على الإنسان؟ وعن أي دين نتحدث؟ وعن أي إيمان نتحدث ؟ ولماذا؟

الفصل الثاني

من خلق من؟: الله خلق الإنسان؟ أم الإنسان خلق الله (فكرة الله)؟

"الله هــو الذى يعطي للقيم معناهــا.. الله هو الذي يعطي الوجــود معناه. بدونه لا معنــى للوجود.. لا معنى للقيم .. وبديله هو العبث .. اللا معنى.."

«نجيب محفوظ»

الأسئلة السابقة التي أنهينا بها الفصل الأول تطرح نفسها بقوة في هذا العصر الذي أصبحت فيه المعلومات متاحة للجميع على الرغم من صعوبة إيجاد النظرة الحيادية للتاريخ بصفة عامة؛ لأنه كما هو متفق عليه فإن المنتصر هو الذي يكتب التاريخ دائماً..

دعونا نتناول تلك الأسئلة كلًّا على حدة ولكن قبل الخوض في هذا يجب أن ننوه قبل أن نتناول قضية ما ومدى جدارتها وتقييمنا لها ، يجب أن نتفق على بعض النقاط الواجب أخذها في الاعتبار في عملية التقييم:

1- الآثار المترتبة على وجود تلك القضية.

2- الآثار المترتبة على غياب تلك القضية (إن غابت في زمن ما) (تقييم استقرائي براجماتي)

3- الآثار المتوقعة لغياب تلك القضية (تقييم نظري عقلي.)

4- مدى تحقيق القضية للأهداف المرجوة منها (تقييم نظري واستقرائي).

5- تقييم النظريات البديلة لتلك القضية والآثار العملية أو النظرية لها..
6- مدى تقبل الجماهير لتلك القضية وهل هي في انتشار أم انحسار تقرير بيو (Pew report)[1].
7- مدى توافقها مع القواعد والقيم العامة التي يتقبلها أكثر الناس وتقييم الاختلافات أينما وجدت.

أولا: الآثار المترتبة على وجود الدين، حتى نكون على قدر الإمكان منصفين سنحاول أن نسرد رأي المتدينين من ناحية وغير المتدينين من ناحية أخرى ورأي المنصفين من الجانبين على قدر الإمكان:

1- رأي المتدينين (من يتمسك بالقضية):

(أ) يرى هؤلاء استحالة عيشهم دون عبادة إله يلجئون إليه عند الصعاب ويطهرون أنفسهم عند الزلل ويصبرون على البلاء ويأخذون حقهم ممن ظلمهم مستمدين قوتهم من الإله الذي يعبدونه ولا يعبدون غيره.. فكما أن العطش يدل على وجود الماء، فإن الفطرة المتعطشة إلى الدين دليل في نظرهم على وجود الله..

(ب) يرون أيضًا أن وجود ذلك الإله في قلوب المؤمنين به يحد من معدلات الجريمة والأعمال المنافية للقيم والآداب العامة ويزيد من قيم حب واحترام الآخر والعطف على المساكين.

(جـ) يرى أنصار ذلك الرأي أيضًا أن الإيمان بذلك الإله باعثٌ على عمارة الأرض وقيام حضارتها.

(1) http://www.pewforum.org/2012/12/18/global-relgious-landscape-exec.

(د) الإيمان بذلك الإله عن طريق الدين يرد بقدر معقول على الأسئلة الثلاثة التي يسألها كل عاقل: من أين ؟ وإلى أين؟ ولماذا؟

(هـ) الإيمان بذلك الإله يجعل المؤمن به لا يخضع إلا له.

2- أما الذين لا يؤمنون بتلك القضية فغالبًا ما يردون على النقاط السابقة كالآتي:

(ا) يرون أن عدم استطاعة العيش بدون ذلك الإله ما هو إلا شيء نفسي سيكولوجي لا أصل له. ودليلهم على ذلك وجود مؤمنين غير سعداء وكافرين سعداء.

(ب) يرون أيضًا أن الإنسان هو الذي خلق الله (اخترع فكرة الله) وليس العكس ويرون أن الإيمان ما هو إلا تمن (wishful thinking) اضطر إليها الإنسان لأنه يتمنى الأخذ بحقه في مكان آخر يطلق عليه المتدينون الآخرة.

(جـ) يرون أيضًا أن القيم هي التي تصنع الدين وليس العكس

3- أما المحايدون:

فيتناولون تلك المسألة بنوع من الواقعية وأيضًا من الناحية التنظيرية البحتة فيذهبون إلى أن الواقع يؤيد - غالبًا - أنصار الرأي الأول (من المؤمنين). فنجد أن معدلات الجريمة والانتحار أكبر في المجتمعات غير المؤمنة من نظيرتها في المجتمعات المؤمنة.. على الرغم من فقر وصعوبة المعيشة في معظم البلدان ذات الشعوب المؤمنة..

http://en.wikipedia.org/wiki/List_of_countries_by_suicide_rate

أما على نطاق التنظير، فيهتدي المنطق المنصف إلى أن الإنسان الذي يؤمن بدار للحساب وبإله عادل قوي يرتاح نفسيًا أن هناك من يأخذ حقه في النهاية وأنه منصور إن ظلم، غني وإن كان فقيرًا، قوي وإن كان ضعيفًا، على نقيض الإنسان الذي لا توجد عنده فرصة لأخذ حقه إلا في هذه الحياة، فيعيش يومه في صراع مع الآخر ومع نفسه، يقهره الظلم إن كان ضعيفًا،ويقهر غيره إن كان قويًا..

قد يرى غير المؤمن أن ذلك الإيمان قد يبعث على الاستكانة وعدم الأخذ بالأسباب.. ويرى أن ذلك الإيمان ما هو إلا مخدر يؤدي إلى تخاذل الشعوب كما ذهب ماركس(يقال إن ماركس تراجع عن ذلك الرأي في أواخر حياته) أن الدين هو أفيون الشعوب وأيًا ما كان يعنيه بالأفيون، وهل المقصود تخدير الشعوب للقضاء على همتها في العمل أم المقصود هو إدمان تلك الشعوب للدين حتى إنهم لا يستطيعون العيش بدونه، فلسان حال المعنيين أن الدين عنده يعطل الإنسان عن العمل لاعتماده على إله غيبي سيأخذ حقه في النهاية المرتقبة..

والرأي المنصف أن ذلك مردود عليه من جهتين: أن الدين الصحيح لا يخدر الشعوب ولا يمنعها عن المطالبة بحقها في الدنيا.. بل بالعكس فالدين الصحيح لا يقر الظالم بل يأمر بأخذ جميع التدابير لقمع الظلم ورد الحقوق لأهلها، وإن صح ذلك الادعاء في شأن بعض المذاهب، فلا نراه يصح بحال في شأن دين كالإسلام مثلًا.. (الذي نراه الدين الوحيد من وقت آدم إلى محمد عليه الصلاة والسلام). كما سنبين لاحقًا إن شاء الله..

الإسـلام في حقيقته بدايته ثورة إنسـانية كبرى، ثورة لتحرير الإنسان من عبادة الإنسـان إلى عبادة خالق الإنسان، وهو منذ بدايته ثورة على المعاملات الماليـة المجحفة، ثورة على اسـتعباد النسـاء والضعفاء، يسـتطيع المنصف أن يعتبر أن الإسلام أعظم ثورة عرفها البشر، توالت إرهاصات تلك الثورة منذ بدء الخليقة على أيدي أنبياء ورسـل قالوا بأن خالق الكون أرسلهم، آمن بهم مـن آمن وكفر بهم من كفر، ثورة اكتملت بآخر هؤلاء الرسـل وهو رسـول الإسـلام محمد ﷺ، آمن به من آمن وكفر به من كفر، حتى الذين لا يؤمنون به لا يستطيعون إنكار جسامة تلك (الثورات وجسارتها على الرغم من إيذاء من يشعل وقودها ومن يمسك برايتها، ويقود الجماهير بادئًا بنفسه..

أقـول هي أكبر ثـورة عرفها التاريخ لأن آثارها وآثار انتشـارها مسـتمرة حتى الآن، ثورة اسـتمراريتها عبر التاريـخ على الرغم من معاداتها ومحاربتها بشـتى الطـرق تثير تسـاؤلات عـدة، وقـد توحي بأن هنـاك يـدًا خفية تقف بجانبها وتساندها عبر العصور!!

ثورة شـعارها: «لا إله إلا الله» فكل مدعٍ بأنه إله أو يحكم كالإله بدءًا من الأسرة مـرورًا بالعمـــل وانتهاء بمقاليد الحُكم - فهـو لا وجود له.. «لا إله إلا الله» شعار قوي خلاق يبين الهدف ويمد الإنسان بالطاقة اللازمة لتحقيق الهدف.

«محمد رسـول الله» تبين الطريق الواجب اتخاذه لتحقيق الهدف، فالأولى هـي العقيـدة والثانيـة هي الشريعـة (أي الشـارع - الطريـق) ومنهما تنبعث الطريقة - أي الطريقة التي تسـلك بها ذلك الطريق، فالأولى مختصة بالإيمان

والثانية بالإسلام ومنهما ينبعث الإحسان، والإحسان كما هو مبين: «كتبه الله على كل شيء»..

والغريب في ذلك الشعار أنه هو ذاته أيضًا الهدف، فكما تتخذ الشركات متعددة الأجناس Multinationals رؤية وهدفًا (mission – vision)، تحدد تلك العبارة ذات الكلمات الأربع الرؤية والهدف، بل وتحدد معالم الطريق المستقيم (أقصر الطرق وأسرعها لتحقيق ذلك الهدف)..

فالهدف هو عبادة ذلك الإله الأحد بعمارة الأرض والاستخلاف فيها.. والرؤية هي معايشة أن لا إله إلا هو وبالتالي انبثاق النقاط الآتية بالتبعية:

1- عدم السماح بوقوع الظلم على نفسك.

2- عدم السماح بوقوع الظلم على غيرك.

3- عدم السماح بأن توقع أنت الظلم على غيرك.

4- عدم السماح بأن توقع أنت الظلم على نفسك

5- عدم السماح بوقوع الظلم على الله (إن الشرك لظلم عظيم)

6- عدم فعل ظلم أكبر لإنهاء ظلم أصغر.

إن كانت هذه هي الرؤية وهذا هو الهدف فكيف يكون دين كهذا أفيونًا للشعوب؟!

كيف يكون دينًا يعتبر «كلمة حق عند سلطان جائر» أعظم الجهاد في سبيل الله؟

كيف يكون أفيونًا للشعوب دينٌ قاعدته: ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةً وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴾ (الأنفال: 25).

هـذا ديـن يحفز المؤمن بـه أن يقاوم الظلـم حتى الموت لأنـه بذلك يبعث بموته الحياة في حياة العشرات من إخوانه البشر.

لعـل ماركـس كان معـذورًا عندما قال جملته الشـهيرة تلك بأنـه لم يطلع عـلى الإسـلام وحربه عـلى الظلم مع أن المنهـج العلمي كان يحتـم عليه عدم إصـدار حكم عام حتى يحيط بالموضوع من جميع جوانبه على قدر الإمكان.. مـع أن بعض المتخصصين في دراسـة الماركسـية - وتحديدًا الدكتور رشـدي فـكار - المتخصـص في دراسـة الماركسـية - يذهـب إلى رجـوع ماركـس في أخريـات حياتـه إلى الاعتراف بالدين بعـد رفضه لـه.. وأن رفضه للدين في نظريته كان من باعث سـياسي لا فلسـفي أو عقائـدي ويذكر أيضًا أن بعض كبار الفلاسـفة ومفكري الماركسـية من أمثال «روجيه جارودي» (فيلسوف فرنسي اهتدى إلى الإسلام مؤخرًا) يؤكدون ذلك، وينقل عن ماركس قوله: «الإلحـاد لا معنى له، لأنه إنكار للإله بـلا مبررات، اللهم إلا إذا كان الهدف أن يحل الإنسـان محل الإله» وقال أيضًا: «إن الإلحاد قد عاش وقته، إنه تعبير سـلبي لا يعني شيئًا بالنسبة للاشتراكيين الأصلاء، إن المعنى لديهم ليس هو إنـكار الإله وإنما هو تحرير الإنسـان» (من كتاب تأملات إسـلامية في قضايا الإنسان والمجتمع، (ص55 - 68 نشر مكتبة وهبة - القاهرة).

هـذا من الناحية التنظيرية، أما من الناحية التاريخية الواقعية، فإن من يقرأ التاريـخ المعـاصر بإنصاف ، يجد أن التيـار الدينـي كان وراء أغلب حركات التحرر المستميتة للاستعمار في المناطق الإسلامية، كالحركة السنوسية في ليبيا، ومقاومـة العز بن عبد السـلام في معركـة عين جالوت ومقاومة أبي الحسـن الشاذلي في موقعة المنصورة سنة 647 هـ وغيرها الكثير من الأمثلة..

(١) تكملة أثر الدين في الحضارة: الدين الصحيح يقول بوضوح ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا فَٱسۡتَغۡفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٞ مُّجِيبٞ﴾ (هود: 61).. وهناك في التراث الديني العشرات من الأمثلة التي تدعو إلى العمل وعمارة الأرض..

يقول المؤرخ والفيلسوف الاجتماعي الفرنسي الدكتور (جوستاف لوبون[1] عن مناهج العرب العلمية من كتابه«حضارة العرب»):

«لم يلبث العرب - بعد أن كانوا تلاميذ معتمدين على كتب اليونان - أن أدركوا أن التجربة والترصد خير من أفضل الكتب وعلى ما يبدو من ابتذال هذه الحقيقة جدَّ علماءُ القرون الوسطى في أوروبا ألف سنة قبل أن يعلموها..

ويعزى إلى روجر بيكون Roger Bacon[2] على العموم أنه أول من أقام التجربة والترصد اللذين هما ركنا المنهج العلمي الحديث، ولكن يجب أن نعترف اليوم بأن ذلك كله من عمل العرب وحدهم.. انتهى كلام جوستاف لوبون.

وفي ذلك يقول دولنبر في كتاب «تاريخ علم الفلك» تعدد راصدان أو ثلاثة بين الإغريق وتعدد عدد كبير من الرصاد بين العرب، وأما في الكيمياء فلا تجد مجربًا يونانيًا مع أن المجربين من العرب فيها يعدون بالمئات.

---

(1) جوستاف لوبون (7 مايو 1841 - 13 ديسمبر 1931) طبيب، ومؤرخ فرنسي، عني بالحضارة الشرقية. من أشهر آثاره: حضارة العرب وحضارات الهند و«باريس 1884» و«الحضارة المصرية» و«حضارة العرب في الأندلس». هو أحد أشهر فلاسفة الغرب وأحد الذين أنصفوا الأمة العربية والحضارة الإسلامية.

(2) روجر بيكون (1214 / 611 هـ - 1294 / 693 هـ)، ويعرف أيضًا باسم Doctor Mirabilis أي «المعلم المذهل» باللاتينية، كان فيلسوفًا إنجليزيًا وراهبًا فرانسيسكيًا وهو الذي وضع التأكيد على التجربة. ويشكر أحيانًا على إنجازه كأول أوروبي يضع قوانين المنهج العلمي وقد أثرت أعمال أفلاطون عليه عندما رأى العلوم الإسلامية.

ونشـأ عـن منهـاج العـرب التجريبـي وصولهـم إلى اكتشـافات مهمة في غضـون ثلاثـة أو أربعة قرون مـا يزيد على ما حققه الإغريـق في زمن أطول من ذلك كثيرًا..

و كان قـد انتقـل الميراث العلمي لليونان إلى البيزنطيين ولم يسـتفيدوا منه لمـدة طويلـة فلـما آل إلى العـرب المسـلمين حولوه إلى غـير ما كان عليـه تمامًا وجعلوه خلقًا آخر.

ولا ينكر منصف أن أفكار الحســن بن الهيثم[1] في علم البصريات عاشت في أوربـا إلى زمـان ليس ببعيد، كما نعلم أن أبحاث الطوسي[2] في الرياضيات وتناوله لهندسـة إقليدس ومعادلاته بقيت زمنًا طويلًا يتناولها علماء أوروبا.. وكذلك ابن سينا[3] في الطب في كتابه (القانون) بقي المرجع الأساسي لكليات الطب في أوروبا حتى القرن السابع عشر.

---

(1) أبو علي الحسن بن الحسن بن الهيثم (354 هـ/ 965م430- هـ/ 1040م) عالم موسوعي[4] مسلم قدم إسهامات كبيرة في الرياضيات والبصريات والفيزياء وعلم التشريح وعلم الفلك والهندسة والطب وطب العيون والفلسفة وعلم النفس والإدراك البصري والعلوم بصفة عامة بتجاربه التي أجراها مستخدمًا المنهج العلمي، وله العديد من المؤلفات والمكتشفات العلمية التي أكدها العلم الحديث

(2) أبو جعفر محمد بن محمد بن الحسن الطوسي (18 فبراير 1201 - 26 يونيو 1274)، المعروف باسم نصير الدين الطوسي عالم فلكي وبيولوجي وكيميائي ورياضياتي وفيلسوف وطبيب وفيزيائي ومتكلّم ومرجع شيعي فارسي

(3) ابن سينا هو أبو علي الحسين بن عبد الله بن الحسن بن علي بن سينا، عالم وطبيب مسلم من بخارى اشتهر بالطب والفلسفة واشتغل بهما. ولد في قرية أفشنة بالقرب من بخارى (في أوزبكستان حاليًا) من أب من مدينة بلخ (في أفغانستان حاليًا) وأم قروية سنة 370هـ (980م) وتوفي في مدينة همدان (في إيران حاليًا) سنة 427هـ (1037م). عرف باسم الشيخ الرئيس وسماه الغربيون: أمير الأطباء وأبو الطب الحديث.

ويذهب مفكر باكستان والهند وشاعرها الكبير المرحوم محمد إقبال[1] نقلًا عن «دوهرنج» قوله إن آراء روجر بيكون مستمدة أساسًا من الجامعات الإسلامية في الأندلس وأنه هو وفرنسيس بيكون[2] درسا العالم العربي دراسة عميقة على الرغم مما ينسب إليهما من فضلٍ في اكتشاف المنهج التجريبي في أوروبا.. والمجال هنا لا يسمح بالطبع بسرد كل علماء المسلمين العرب ولا إنجازاتهم.

(ب) الحد من معدلات الجريمة والأعمال المنافية للقيم: نظريًا لا ينكر منصف أن من يؤمن بيوم آخر سوف يحاسب فيه يُتوقع أن يكون معدل جرائمه أقل من ذلك الذي لا يؤمن بحساب بعد الموت ويؤمن بأنه لو أفلت من عقاب الدنيا لفاز فوزًا عظيمًا.

---

(1) هو إقبال ابن الشيخ نور محمد، كان أب تهو أي الشيخ ذي الحلقة بالأنف ولد في سيالكوت ـ إحدى مدن البنجاب الغربية ولد في الثالث من ذي القعدة 1294هـ الموافق 9 تشرين ثاني نوفمبر 1877م وهو المولود الثاني من الذكور.
أصل إقبال يعود إلى أسرة برهمية؛ حيث كان أسلافه ينتمون إلى جماعة من الياندبت في كشمير، واعتنق الإسلام أحد أجداده في عهد السلطان زين العابدين بادشاه (1421 ـ 1473م). قبل حكم الملك المغولي الشهير (أكبر) ونزح جد إقبال إلى سيالكوت التي نشأ فيها إقبال ودرس اللغة الفارسية والعربية إلى جانب لغته الأردية، رحل إقبال إلى أوروبا وحصل على درجة الدكتوراه من جامعة ميونخ في ألمانيا، وعاد إلى وطنه ولم يشعر إلا أنه خلق للأدب الرفيع وكان وثيق الصلة بأحداث المجتمع الهندي حتى أصبح رئيسًا لحزب العصبة الإسلامية في الهند ثم العضو البارز في مؤتمر الله أباد التاريخي حيث نادى بضرورة انفصال المسلمين عن الهندوس ورأى تأسيس دولة إسلامية اقترح لها اسم باكستان، توفي إقبال 1938 بعد أن اشتهر بشعره وفلسفته، وقد غنت له أم كلثوم إحدى قصائده وهي «حديث الروح».

(2) فرانسيس بيكون (بالإنجليزية: Francis Bacon) (م 22 يناير 1561 - 9 إبريل 1626) فيلسوف ورجل دولة وكاتب إنجليزي، معروف بقيادته للثورة العلمية عن طريق فلسفته الجديدة القائمة على «الملاحظة والتجريب».

وليس مستغربًا أن أعلى قائمة معدلات جرائم القتل في العالم خلت من أي دولة إسلامية وذلك حتى الدولة رقم 31 في الجدول المبين وهو لكل مائة ألف نسمة.

Showing latest available data.

Rank		Countries	Amount
1		United States	11.877
2		United Kingdom	6.523
3		Germany	6.507
4		France	3.771
5		Russia	2.952
6		Japan	2.853
7		South Africa	2.683
8		Canada	2.516
9		Italy	2.231
10		India	1.764
11		Korea, South	1.543
12		Mexico	1.516
13		Netherlands	1.422
14		Poland	1.404

Rank		Countries	Amount
15		Argentina	1.340
16		Sweden	1.234
17		Belgium	973
18		Spain	923
19		Chile	593
20		Thailand	565
21		Ukraine	553
22		Austria	552
23		Finland	520
24		Denmark	491
25		New Zealand	427
26		Hungary	420
27		Czeck Republic	372
28		Zimbabwe	351
29		Norway	330
30		Romania	312
31		Switzerland	307

المصادر: Nationmaster.com & Periodic World Crime Survey, UN.

على الرغم من افتقار معظم البلاد الإسلامية لإحصائيات دقيقة وعلى الرغم من إحجام البعض عن التقدم بشكاوى خاصة في بعض جرائم الشرف مثل الاغتصاب.. إلخ فإن المؤشرات تدل على الآتي:

أقل معدلات جريمة الاغتصاب كانت في الشرق الأوسط. في معدلات الحرية الإجمالية نجد: الولايات المتحدة ثم بريطانيا فألمانيا وفرنسا ثم جنوب إفريقيا..

ثانيًا: الآثار المترقبة والمتوقعة لغياب الدين على المستوى الفردي والمجتمع:

والآن نحاول أن نرصد آثار غياب قضية الدين في مجتمع ما على مستوى الأفراد وعلى مستوى المجتمع نفسه:

من الأشياء التي تستوقف المرء أن غياب الدين عن المجتمعات المتدينة (الشرقية) يؤدي دومًا إلى ضعفها وانحلالها. فنجد أن عصور الضعف في البلاد الإسلامية مثلًا هي العصور التي بعد فيها الشعب عن تقاليد الدين ولم يكن الإيمان هو المحرك الأساسي للتنمية في تلك العصور أما في عصور الازدهار الديني والتي كان الدين فيها حاضرًا، فقد كان المحرك الأساسي للتطور والتقدم في تلك المجتمعات..

على الصعيد الآخر نجد أن غياب الدين في المجتمعات الغربية وإن لم يؤدِّ مباشرة إلى ضعف تلك المجتمعات لكنه أدى إلى ازدياد معدل الجرائم والطلاق والتفسخ الأخلاقي في هذه المجتمعات وكما أسلفنا بعض الأرقام التي توضح ذلك - لا يفوتنا أن نذكر بعض الحقائق التاريخية التي كانت محددة في عصر النهضة الإسلامي والتي غابت بغياب الدين، فقد شهدت

تلـك المجتمعات طفرة هائلة في جميع مناحـي الحياة من علوم دينية ووضعية وآداب وفنون..

ثالثًا: الآثار المتوقعة لغياب قضية الدين من المجتمع:

لا أظن أن يعارض عاقل أن المتدين الذي يؤمن بحساب في الآخرة سيضع نصب عينيه الثواب والعقاب قبل أن يقدم على أي عمل. في المقابل، قد نجد بعض غير المؤمنين من ذوي الأخلاق الحميدة وقد يرجع ذلك لعوامل كثيرة منهـا التربية الجيدة ولكن ذلـك لا ينفي القاعدة العامة. أيضًا هناك مشـكلة أخلاقية بغياب الإيمان وهي نسبية جرم الأفعال عند غير المؤمنين. فهل إقامة علاقة عاطفية أو جنسـية خارج نطاق الزواج من الخطايا أم لا؟ وهل إقامة تلـك العلاقـة مع متزوج أو متزوجة من الخطايـا أم لا في عرف غير المتدينين ولمـاذا؟ هـذا مثال لبعض الأسـئلة التي عادةً لا تجد إجابـة عند غير المؤمنين وغيرها من الأسئلة الأخرى الكثيرة مثل:

هل الموت الرحيم وتحديد النسـل والإجهاض من الخطايا أم لا؟ في حين أننا نجد أن أغلب تلك المسائل شبه محسوم لدى المؤمنين.

رابعًا: ما مدى تحقيق الأهداف المرجوة للدين؟

للإجابة عن هذا السؤال يجب أن نسأل أنفسنا أولًا ما هي الأهداف التي زعم الدين أنه جاء من أجل تحقيقها:

1 – تحقيق السعادة للإنسان.

2 – العدالة الاجتماعية.

3 – المساواة.

4- إجابة تحير الإنسان عن سبب وكيفية وجوده.

5- عبادة خالق ذلك الكون بالشكل الصحيح.

أيضًا قبل أن نحاول الإجابة عن السؤال الأول نريد أن ننوه أن كيفية الاتجاه لتحقيق الهدف لا يقل أهمية عن تحقيق الهدف نفسه كما أسلفنا (في الفصل السابق).

ففي الواقع نحن أمام سؤالين:

(أ) هل حقق الدين أهدافه المعلنة؟

(ب) ما هو المنهج المتبع لتحقيق تلك الأهداف وهل تتماشى مع القيم الإنسانية التي قد يتفق عليها أغلب العقلاء أم لا؟.

لا يستطيع عاقل أن يتوهم - في أكثر أحلامه تفاؤلًا - أن نجاح أي قضية يعتبر نجاحًا لو حققت 100٪ من أهدافها وفي كل وقت، وحتى نكون موضوعيين يجب أن نعترف أن الدين لم يحقق تلك النسبة، ليس لأن ذلك محال فحسب بل لأن تحقيق أهداف الدين يجب أن يتم عن طريق المخلصين لهذا الدين، ماذا أريد أن أقول؟ أريد أن أقول إن القضية قضية تفاعلية عملية، لا نستطيع أن نحكم عليها من منطلق نظري بحت، ولكننا نستطيع أن نسأل: هل في أي زمن من الأزمان حققت القضية أهدافها اعتمادًا على منهجها واعتمادًا على المؤمنين المخلصين لتلك القضية أم لا؟.. وإن حدث ذلك، فما هو المنهج الذي كان متبعًا لتحقيق هذه الأهداف؟.. وإن لم تتحقق النسبة 100٪ فهل هذا راجع إلى قصور في الفكرة أم قصور في تطبيق الفكرة.. وإن كان قصورًا في الفكرة فما أوجه القصور إن وجدت؟!..

يتفق المنصفون على أن الإسلام حقق المعادلة الصعبة في عصور نهضته الذهبية مثل عصر الخليفة عمر بن عبد العزيز التي اشتهرت بأنها الفترة التي عم العدل والرخاء فيها أرجاء الدولة الأموية حتى إن الرجل كان يخرج الزكاة من أمواله فيبحث عن الفقراء فلا يجد من في حاجة إليها.. فيبحثون عن أهل الكتاب لإخراج الزكاة لهم فلا يجدون بينهم فقيرًا، ولا يجدون إلا أن يبتاعوا حبوبًا ليأكل منها الطير..

وهذا عصر الفاروق عمر بن الخطاب الذي اتسم بالعديد من الإنجازات الإدارية والحضارية كتدوين الدواوين واتخاذ التقويم الهجري وإنشاء بيت للمال والاهتمام بإنشاء المدن الجديدة وهو ما كان يسمى بتمصير الأمصار ويعتبر هذا العصر عصر اجتهاد وابتكار في أمور الدين فقُننت الجزية بأن يعفى منها الشيوخ والنساء والأطفال.

وتم تقسيمها شرائح حسب مستوى الدخل (48 درهمًا على الأغنياء وأربعة وعشرون على متوسطى الحال واثنا عشر درهمًا على الفقراء..).

وكان أعظم ما يميز ذلك العصر هو العدل بين جميع طوائف المجتمع من أغنياء وفقراء، مسلمين وغير مسلمين وهو ما نسميه في عصرنا الحديث إرساء مبدأ المواطنة.

وهو أول من عسس في الليل بنفسه ولم يفعلها حاكم قبل عمر، وقصته معروفة عندما كان يعسس ذات ليلة فسمع بائعة اللبن تقول لابنتها أن تخلط اللبن بالماء فترد عليها ابنتها بأن الخليفة عمر قد نهاهم عن فعل ذلك، فترد عليها الأم أن أين عمر منهم الآن؟ فترد الابنة الرد الشهير بأنه إن كان الخليفة لا يراهم الآن، فرب عمر يراهم في كل وقت!. فيعجب عمر بحصافتها

وأمانتها ويزوجها لابنه.. ويشاء الله العلي القدير أن تحمل منه في عمر بن عبد العزيز الذي ملأ الدنيا عدلًا ورخاء في عصره..

وعمر بن الخطاب أيضًا أول من عقد مؤتمرات سنوية للقادة والولاة ومحاسبتهم في موسم الحج وهو أول من مهد الطرق ومنها كلمته الشهيرة (لو عثرت بغلة في العراق لسألني الله تعالى عنها: لمَ لم تمهد لها الطريق يا عمر؟!).

- وهو أول من أعطى الفقراء والعجزة من أهل الكتاب من بيت مال المسلمين.
- وهو من منع هدم الكنائس.

في مجال الحرب:

- أقام المعسكرات الحربية الدائمة في دمشق وفلسطين والأردن.
- أول من أمر بالتجنيد الإجباري للشباب والقادرين.
- أول من حدد مدة غياب الجنود عن زوجاتهم بأربعة أشهر كحد أقصى..
- أول من أقام قوات احتياطية نظامية.
- أول من أمر قادته بموافاته بتقارير مفصلة مكتوبة بأحوال الرعية من الجيش.
- أول من دون دواوين للجند لتسجيل أسمائهم ورواتبهم.
- أول من خصص أطباء ومترجمين وقضاة ومرشدين لمرافقة الجيش.
- أول من أنشا مخازن للأغذية للجيش.

في مجـــال الســــياســـة:

1- أول من دون الدواوين.

2- أول من اتخذ دار الدقيق (التموين).

3- أول من أوقف في الإسلام (الأوقاف).

4- أول من أحصى أموال عماله وقواده وولاته وطالبهم بكشف حساب أموالهم (قانون من أين لك هذا).

5- أول من اتخذ بيت مال للمسلمين.

6- أول من ضرب الدراهم وقدر وزنها.

7- أول من أخذ زكاة الخيل.

8- أول من جعل نفقة اللقيط من بيت المال. (ومنهم أطفال الشوارع)

9- أول من مسح الأراضي وحدد مساحتها. (هيئة المساحة)

10- أول من اتخذ دارًا للضيافة.

11- أول من أقرض الفائض من بيت المال للتجارة..

هناك أمثلة أخرى كثيرة لأناس استطاعوا بإيمانهم بالقضية وهى الإيمان بـالله- أن يحققـوا نسـبة كبيرة من الأهـداف المعلنـة.. ولكننا آثرنـا أن نسرد المثالين السـابقين ولم نتطرق لفترة الرسـول (ﷺ) حتى لا يقال إن ذلك كان في عصر الوحي أو إنه استثناء..

والسـؤال المتبقــي في هــذه النقطـة هو هل هنـاك عصور أخرى لم يحقق الديـن هدفه فيهـا؟! وهل في هذه العصور إن وجـدت كان الحاكم بعيدًا أم قريبًـا من تطبيقات الديـــن؟ هل كـــان مؤمنًا بالقضيـة أم لا؟ نظرة سريعة

واقعيـة تدلنـا على أن عصـور التخلـف التـــي منـي بها الإسـلام كانت هي العصور التي بعد الحاكم وبعدت الشعوب عــن إيمانهم بالقضية وبتطبيقات القضية العملية..

لكن ماذا عن الأطروحات البديلة؟.. هل اسـتطاعت الإنسانية أن تقدم لأبنائهـا رخاءً وتقدمًا بنظريات وتطبيقات وضعية أم لا؟! هذا ما سـنحاول تناوله في الفصل القادم..

الفصل الثالث

بعض النظريات والأطروحات البديلة

"الدين والعلم كلاهما يحتاج في مضمونهما إلى الإيمان بالله. بل على الأحرى: الله يقف للأول (الدين) في البداية و للثاني (العلم) في نهاية كل التفكير. للأول، الله يمثل القاعدة، و للثاني يمثل تاج أية تفكير يُعنى بنظرة العالم.."

«ماكس بلانك»

الباب الأول

الأطروحات الاجتماعية والاقتصادية

دعونـا في السـطور القليلـة القادمة نسـتعرض بعضًا من هـذه النظريات ونقيمها من حيث قيمتها ومن حيث كفاءتها.

أولًا: الماركسية والشيوعية:

لا تعـد الفلسـفة الماركسـية اختراعًـا بل هـي في الواقـع دمج بـين مادية فيورباخ[1] وجدلية هيجل[2] وهو من أهم الفلاسفة الألمان ولد عام 1770م وتوفي 1837م. فلسفته تقوم على الجدلية المبنية على رصد تناقضات المجتمع ووضعها في سياق وحدة تتطور على شكل تناقضات Contradiction وإنكار (Negation).

وتعتمد الفلسفة الماركسية على ثلاثة محاور أساسية هي:

1- قانون نفي النفي.

2- وحدة صراع المتناقضات.

3- تحول الكم إلى الكيف.

(1) لودفيغ أندرياس فيورباخ فيلسوف ألماني ولد في 28 يوليو 1804 في مدينة لاندسهوت بولاية بافاريا الألمانية وتوفي في رايخنبرغ في 13 سبتمبر 1872. في البداية كان تلميذًا لهيغل ثم أصبح من أبرز معارضيه.

(2) ⚙غيورغ فيلهلم فريدريش هيغل (بالألمانية: Georg Wilhelm Friedrich Hegel) (ولد 27 أغسطس 1770 - 14 نوفمبر 1831) فيلسوف ألماني ولد في شتوتغارت، فورتيمبيرغ، في المنطقة الجنوبية الغربية من ألمانيا. يعتبر هيغل أحد أهم الفلاسفة الألمان حيث يعتبر أهم مؤسسي حركة الفلسفة المثالية الألمانية في أوائل القرن التاسع عشر الميلادي.

أمـا الماركسـية كمصطلح فتدخـل في علم الاجتماع والاقتصاد السـياسي والفلسفي .. سميت نسبة إلى منظرها الأول «كارل ماركس»[1] وهو فيلسوف ألمـاني وعالم اقتصاد أسـس مع فريدريـك إنجلز 4 النظرية الشـيوعية العلمية وهي أحد أقسـام الماركسـية الثلاثـة: النظرية الماركسـية للتاريخ - الاقتصاد السياسي الماركسي - والشيوعية العلمية:

النظريـة الماركسـية للتاريخ أو ما يعرف بالماديـة التاريخية هي نتاج تطبيق المنطـق الجدلي على التطور التاريخي للمجتمـع .. حيث تذهب النظرية إلى أن البناء الفوقي للمجتمع من قوانين وأخلاق وسياسات عامة هي نجاح للبناء التحتـي للمجتمع (مجموع علاقات المجتمـع الاقتصادية) وبالتالي خلاصتها أن أخلاق المجتمع هي مرآة متأثرة تأثيرًا مباشرًا بالعلاقات الاقتصادية).

أ- **الاقتصاد السياسي الماركسي:** تناوله ماركس في أهم كتبه: «رأس المال» نتيجة نقده والتأثر بالاقتصاد السياسي الإنجليزي لأدم سميث. فيذهب ماركس فيها إلى أن التطور الاقتصادي في المجتمع يخضع لقوانين (الدياليكتك) والصراع بين المتناقضات في المجتمع (الصراع

(1) ❁❁❁ كارل ماركس (5 مايو 1818 إلى 14 مارس 1883). كان فيلسوفًا ألمانيًا. وهو سياسي، وصحفي ، ومنظر اجتماعي ولد لعائلة يهودية. قام بتأليف العديد من المؤلفات إلا أن نظريته المتعلقة بالرأسمالية وتعارضها مع مبدأ أجور العمال هو ما أكسبه شهرة عالمية. لذلك يعتبر مؤسس الفلسفة الماركسية، ويعتبر مع صديقه فريدريك إنجلز المنظرين الرسميين الأساسيين للفكر الشيوعي.
شكل وقدم مع صديقه فريدريك إنجلز ما يدعى اليوم بالاشتراكية العلمية. (الشيوعية المعاصرة) .
ولد ماركس بمدينة (ترير) في ولاية (ريتانيا) الألمانية سنة 1818م والتحق بجامعة بون عام 1833 لدراسة القانون. أظهر ماركس اهتمامًا بالفلسفة رغم معارضة والده الذي أراد لماركس أن يصبح محاميًا. وقام ماركس بتقديم رسالة الدكتوراه في الفلسفة سنة 1840 وحاز على شهادة الدكتوراه
وصفه أحد أصدقائه بأنه عريض المنكبين واسع الجبهة كثيف الشعر وداكن إلى حد الزرقة. كان حيويًا نشيطًا لا يهدأ له بال لا ينام إلا أربع ساعات في اليوم.

بين الإقطاع والفلاح مثلًا) مما يؤدي إلى تحول الكم إلى الكيف بالثورات البرجوازية ومن ثم يتم نفي النفي ليظهر لاحقًا العامل ورب العمل.

2- **الشيوعية العلمية**: هي خلاصة أبحاث كارل ماركس وفريدريك إنجلز[1] حيث يذهبان إلى أن التطور الجدلي للرأسمالية سيقضي عليها ويأتي ذلك من فهم وحدة صراع التناقضات التنافسية بين الحركات أو اندماج شركات لتولد شركات عابرة للقارات احتكارية تقضي على الطبقة الوسطى فيبدأ التحول الكمي إلى الكيفي بثورات شعبية لتخلق مجتمع الشيوعية العلمية.

أما الشيوعية، فهي نظرية اجتماعية وحركة سياسية ترمي إلى السيطرة على المجتمع ومقدراته لصالح أفراد المجتمع بالتساوي. فإن كان مصطلح الماركسية يعبر عن فلسفة وأيديولوجية الأحزاب الشيوعية التي من المتوقع أن تقوم بتلك الثورات، فإن مصطلح «اللينينية» نسبة لفلاديمير لينين يعبر عن أسس التنظيم وآليات العمل في تلك الأحزاب.

---

(1) 4 فريدرخ إنغلز (28-11-1820 في «بارمن»، بروسيا (حاليًا فوبرتال، ألمانيا) - 5-8-1895) هو فيلسوف ورجل صناعة ألماني يُلقّب بـ«أبو النظرية الماركسية» إلى جانب كارل ماركس. اشتغل بالصناعة وعلم الاجتماع وكان كاتبًا ومنظرًا سياسيًا وفيلسوفًا. يعتبر أبا نظرية الماركسية بالإضافة إلى كارل ماركس نفسه. في عام 1845، نشر كتابه حالة الطبقة العاملة في إنجلترا اعتمادًا على ملاحظاته وأبحاثه الشخصية. في عام 1848، أصدر مع ماركس، بيانهما المشهور والمعروف ببيان الحزب الشيوعي، والذي يسمى اختصارًا البيان الشيوعي. فيما بعد، ساعد كارل ماركس ماديًا من أجل أن يكتب هذا الأخير كتابه الرأسمال. بعد وفاة ماركس، نشر إنجلز الجزأين الثاني والثالث من هذا الكتاب. إضافة إلى ذلك، نظم إنجلز مختلف تخمينات كارل ماركس، مما أعطى الجزء الرابع من كتاب الرأسمال. وهو من عائلة أصلها يهودي.

الرأسمالية: هي نظام اقتصادي ذو فلسفة اجتماعية وسياسية تقوم على حرية ملكية الفرد وتقوم أساسًا في جذورها على فلسفة الرومان ويظهر ذلك في رغبتها في امتلاك القوة وتقديس الحرية على حساب العدالة.

الأصل في تلك النظرية هو أن قوانين السوق الحر من عرض وطلب وغيره هي التي تحدد آليات المجتمع الاقتصادي، وأن السوق يترك لطبيعة تلك الآليات دون تدخل رقابي أو وقائي.

كانت بريطانيا حتى سنة 1875 من أكبر الدول الرأسمالية، ولكن في الربع الأخير من القرن التاسع عشر ظهرت ألمانيا والولايات المتحدة وبعد الحرب العالمية الثانية ظهرت اليابان. بدأ تدخل حكومي لتقنين الضمانات الاجتماعية كالمعاشات والبطالة والحجر والرعاية الصحية كإجراء وقائي بسبب ظهور العمال كقوة انتخابية وبسبب لجان حقوق الإنسان ولوقف المد الشيوعي الذي يدعو إلى نصرة العمال وإشراكهم في التملك والإنتاج.

لذلك، نستطيع أن نوجز بأن الشيوعية قد أخطأت السبيل لا في إصرارها على العدالة الاجتماعية ولكن في تضحيتها بالحرية من أجل العدالة!

والرأسمالية أيضًا أخطأت السبيل لا في إصرارها على احترام فردية الإنسان وحريته ولكن في تضحيتها بالعدالة في سبيل الحرية!

فلاديمير أليتش أوليانوف المعروف بلينين (ولد في 22 إبريل عام 1870 - توفي 21 يناير عام 1924) ثوري روسي ماركسي كان قائد الحزب البلشفي والثورة البلشفية، كما أسس المذهب اللينيني السياسي رافعًا شعاره: الأرض والخبز والسلام.

وفي النظريتين هناك دعوة لعبادة المجتمع أو السلطة (في الشيوعية) أو دعوة لعبادة الفرد (في الرأسمالية)، وهنا تبرز دعوة الإسلام لتحرير الإنسان أن يعبد الله وحده وليحقق التوازن بين العدالة الاجتماعية وبين الحرية الفردية!! علاوة على تهذيب العلاقة بين الفرد والمجتمع من ناحية (... الزكاة والحض على إعمار المجتمع..إلخ) وبين المجتمع والفرد من ناحية أخرى (مثل حماية الملكية الفردية وتوفير الحماية والضمانات الاجتماعية للفرد الضعيف من ناحية أخرى).

فإن كان شعار الماركسية، الجدلية بين تناقضات المجتمع، وإن كانت الرأسمالية شعارها: دعه يعمل دعه يمر (في إشارة إلى حرية الفرد المطلقة حتى لو كان على حساب العدالة الاجتماعية)، فإن شعار «لا إله إلا الله» يختزل ببلاغة غريبة العدالة الاجتماعية والحرية الفردية في آنٍ واحد! فالحرية في ذلك الشعار منبثقة من العدالة لا هادمة لها.

والآن بعد أن وقفنا على نظريتين اجتماعيتين اقتصاديتين نريد أن نقف عند نظريتين حاولتا تفسير السؤال الأول من الأسئلة الثلاث الكبرى: من أين؟ هاتان المحاولتان هما نظرية النشوء والارتقاء -الانتخاب الطبيعي لتشارلز داروين[1] ونظرية الانفجار الكبير. وهذا ما سنتناوله في الباب الثاني من هذا الفصل.

---

(1) تشارلز روبرت داروين (بالإنكليزية: Charles Robert Darwin) عالم حيوان، إنجليزي الجنسية، اشتهر بنظرية التطور ومبدأ الانتخاب الطبيعي، حول نشأة الإنسان.

الباب الثاني

الأطروحات العلمية لنشأة الكون وتطوره

النظرية الأولى تتناول أصـل الأنواع من الناحيـة الإحيائية البيولوجية وتضـع تصـورًا لكيفية تطـور تلك الأنواع حتـى يومنا هـذا. ولا تتطرق إلى أصل الكون ونشأته.

أما **الثانية** فهي تضع تصورًا لأصل الكون وكيفية تطوره إلى يومنا هذا. الجديـر بالذكر أن النظريتين يبدأ تصورهما مـن النقطة «واحد» لا من النقطة «صفر» وهذا الذي سنتناوله إن شاء الله ببعض الشرح في السطور القادمة.

قبـل أن نبدأ نريد أن نتوقف قليلًا عند معنى: «النظرية العلمية» عند أهل العلم.

إذا تناولنا ذلك الأمر بطريقة مبسطة ، نستطيع أن نقول إن النظرية العلمية هي التي تضع نموذجًا للعالم أو لجزء محدد منه مع مجموعة القواعد التي تربط الكميات في النموذج مع مشاهدتنا.

وتعتبر النظرية جيدة إذا حققت شرطين:

1- لابد أن تصف مجموعة كبيرة من المشاهدات الواقعية بدقة استنادًا إلى نموذج أو قانون يحتوي على عدد قليل من العناصر المبسطة.

2- لابد أن تقدم تنبؤات محددة حول نتائج المشاهدات في المستقبل. ولنضرب مثالين ليقربا المسألة إلى الأذهان:

أرسطو[1] مثلًا تبنى نظريته للذرة القائلة بأن كل شيء يتكون من أربعة عناصر: الأرض والهواء والماء والنار.

على الرغم من تحقق الشرط الأول وهو بساطة تلك الفكرة ولكنها لا تقدم تنبؤًا محددًا مثلما تفعل نظرية نيوتن[2] مثلًا عن الجاذبية: إذ تذهب إلى أن الأجسام تنجذب إلى بعضها البعض بقوة تتناسب مع كمية أطلق عليها اسم الكتلة وعكسيا مع مربع المسافة بينها $F = G\frac{m_1 m_2}{r^2}$. وبالإضافة إلى ذلك فإن النظرية تتنبأ بحركة كل من الشمس والقمر والكواكب بدرجة كبيرة من الدقة.

وينظر إلى أي نظرية فيزيائية على أنها مشروطة ومؤقتة بمعنى أنها محض فروض (ستيفن هوكينج[3] تاريخ أكثر إيجازًا للزمن ص24). ومهما كان توافق النتائج التجريبية مع نظرية ما، فلا يمكن التيقن ولو بنتيجة واحدة

---

(1) أرسطو أو أرسطوطاليس (384 ق.م. – 322 ق.م.) فيلسوف يوناني قديم كان أحد تلاميذ أفلاطون ومعلم الإسكندر الأكبر. كتب في مواضيع متعددة تشمل الفيزياء، والشعر، والمنطق، وعبادة الحيوان، والأحياء، وأشكال الحكم.

(2) السّير إسحاق نيوتن (بالإنجليزية: Sir Isaac Newton) عالم إنجليزي، أشهر عالم فيزيائي، وفيلسوف ومن أعظم علماء القرن الثامن عشر في الرياضيات والفيزياء. عاش ما بين 25 ديسمبر 1642 – 20 مارس 1727 بالتقويم القيصري آنذاك أو 4 يناير 1643 – 31 مارس 1727 بالتقويم الغريغوري. قدّم نيوتن ورقة علمية وصف فيها قوة الجاذبية الكونية ومهد الطريق لعلم الميكانيكا الكلاسيكية عن طريق قوانين الحركة. يشارك نيوتن لايبتنز الحق في تطوير علم الحساب التفاضلي والمتفرع من الرياضيات. وغيره من القوانين الفلكية وأساليب حلول مسائلها مما خلد ذكره في تاريخ النهضة العلمية.

(3) ستيفن هوكينج (بالإنجليزية: Stephen Hawking) ولد في أكسفورد، إنجلترا عام 1942 وهو من أبرز علماء الفيزياء النظرية على مستوى العالم، درس في جامعة أكسفورد وحصل منها على درجة الشرف الأولى في الفيزياء، أكمل دراسته في جامعة كامبريدج للحصول على الدكتوراه في علم الكون، له أبحاث نظرية في علم الكون وأبحاث في العلاقة بين الثقوب السوداء والديناميكا الحرارية، وله دراسات في التسلسل الزمني.

على الأقل ستجيء عكسها أم لا في المستقبل. من الناحية الأخرى يمكن إثبات خطأ نظرية ما إذا وجدت ملاحظة واحدة على الأقل لا تتفق مع تنبؤات هذه النظرية.

والهدف الأسمى والغاية المنتهاة للعلم هو تقديم نظرية واحدة شاملة تستطيع أن تصف العالم كله. والطريق الذي يسلكه العلماء في سبيل تحقيق ذلك هو تقسيم المسألة لقسمين:

القسم الأول: يضم القوانين التي تنبئنا عن كيفية تغير العالم مع الزمن.

والقسم الثاني: يضم سؤالًا عن حالة العالم في بدايته وذلك على الرغم من ذهاب البعض إلى أنه ينبغي للعلم أن يعنى بالقسم الأول فقط ويترك القسم الثاني الميتافيزيقيا والدين، ويقولون بما أن الخالق قادرٌ على كل شيء فإنه قادر على خلق العالم بأي طريقة يشاء سواء طريقة منظمة أو عشوائية (في نظرنا).

ربما يكون ذلك صحيحًا وربما اختار الخالق بالفعل أن يخلق ويطور هذا العالم بطريقة عشوائية تمامًا، لكن يبدو أنه اختار أن يجعل العالم يتطور بطريقة منتظمة تمامًا وفقًا لقوانين معينة وكذلك من المنطقي بالقدر نفسه أن نقترح وجود قوانين تحكم حالة العالم من بدايته (المصدر السابق).

واليوم يصف العلماء كل ما يستطيعون من العالم مستخدمين نظريتين أساسيتين هما **النظرية النسبية العامة وميكانيكا الكم.**

وبما أن الأحياء الموجودة على سطح كوكبنا لم تكن لتوجد بهذا الشكل لولا وجود الكون وتطوره بالشكل الذي نرصده، فقد اخترنا أن نبدأ بتناول نظرية الانفجار الكبير (العظيم). ولا نستطيع أن نفعل ذلك دون أن نتناول

قليلًا بعض النظريات والأفكار المرتبطة بها مثل النسبية الخاصة والنسبية العامة وأيضًا فكرة تمدد الكون.

وبما أن نظرية النسبية العامة لأينشتين[1] هي الأكثر ثورية والأكثر تأثيرًا في موضوع كتابنا هذا، خاصة جزئية بدء الكون وتمدده، فلن نتوقف كثيرًا عند النسبية الخاصة ولكن سنلقي الضوء سريعًا عليها.

عندما ظهرت نظرية النسبية الخاصة عام 1905 أصبحت تفسر بشكل واضح ثبات سرعة الضوء بالنسبة لجميع المراقبين وأيضًا نجحت في تفسير ما يحدث عندما تتحرك الأشياء بسرعات تقترب من سرعة الضوء. ولكنها كانت غير متسقة مع نظرية نيوتن للجاذبية التي تنص على أن الأجسام تنجذب لبعضها البعض بقوة تعتمد على المسافة بينها في وقت محدد (كما أسلفنا).

ووجه عدم الاتساق أن أينشتين حاول التوفيق بين نظرية ماكسويل[2] عام 1865 التي تنبأت بموجات المجال الكهرومغناطيسي وأن لها سرعة ثابتة وجد أنها تتطابق مع سرعة الضوء.

---

(1) ألبرت أينشتاين (بالألمانية: Albert Einstein) (14 مارس 1879 – 18 إبريل 1955) ألماني سويسري أمريكي الجنسية، أحد أهم العلماء في الفيزياء. يشتهر بأبو النسبية كونه واضع النظرية النسبية الخاصة والنظرية النسبية العامة الشهيرتين اللتين كانتا اللبنة الأولى للفيزياء النظرية الحديثة ، حاز في العام 1921 على جائزة نوبل في الفيزياء عن ورقة بحثية عن التأثير الكهروضوئي ضمن ثلاثمائة ورقة علمية أخرى له في تكافؤ المادة والطاقة وميكانيكا الكم وغيرها، وأدت استنتاجاته المبرهنة إلى تفسير العديد من الظواهر العلمية التي فشلت الفيزياء الكلاسيكية في إثباتها . ذكاؤه العظيم جعل من كلمة «أينشتاين» مرادفا «للعبقرية».

(2) جيمس كلارك ماكسويل (13 يونيو 1831 – 5 نوفمبر 1879) (بالإنجليزية: James Clerk Maxwell) كان عالم فيزياء بريطانيًا شهيرًا لما أسهم به من معادلات هامة التي تفسر ظهور الموجات الكهرومغناطيسية.

ووجـه التناقض بين هذه النظرية (نظرية ماكسـويل) وبين قوانين نيوتن، أن قوانين نيوتن تنص على عدم وجود حالة قياسية مطلقة للسكون مما يؤدي إلى عـدم اتفاق عالمي على سرعة أي جســم مما يناقض نظرية ماكســويل التي تذهب إلى ثبات سرعة الضوء كما أسـلفنا. وبالطبع لم تخفَ قوانين نيوتن على ماكسـويل فحـاول التوفيـق بينها وبين نظريتـه بأن اقترح وجـود مادة أطلق عليها «الأثيـر» وافترض وجودها في كل مكان (حتى فراغ الفضاء). وبالتالي ذهب إلى أن ثبات سرعة الضوء الذي اقترحه في نظريته هو ليس مطلقًا وإنما هذه السرعة هي بالنسبة للأثير الذي يحمله وبذلك تجنب وجود حالة قياسية مطلقة للسرعة.

لمـاذا إذن حاول أينشـتين التوفيق بين نسـبيته الخاصة وبـين نظرية نيوتن للجاذبية؟ ببسـاطة، لأن اقتراح ماكسويل للأثير أثبت فشله بين عام 1887 و1905 بتجـارب ألبرت مايكلسـون[1] (أول أمريكي يحصـل على نوبل في الفيزيـاء) وإدوارد مـورلي[2] اللذيـن اكتشـفا أن سرعة الضـوء ثابتة في جميع الاتجاهات بغض النظر عن الأثير المزعوم.

---

(1) ولد ألبرت إبراهام مايكلسـون في 19 ديسمبر 1852 بمدينة سترنلو ببولندا (بروسي المولد) - وتوفي في 9 مايو 1931 بمدينة باسادينا، كاليفورنيا. وهو فيزيائي أمريكي شهير، عمل على قياس سرعة الضوء. كما اشتهر من خلال تجربة مايكلسون ومورلي للبحث عن الأثير، ولما لم يجدوه أحدث ذلك ضجة علمية كبيرة أدت إلى تطور النظرية النسبية لأينشتاين. في عام 1907 حصل على جائزة نوبل للفيزياء، وهو أول أمريكي يحصل على جائزة نوبل في العلوم.

(2) إدوارد وليامز مورلي (29 يناير 1838 - 24 فبراير 1923) عالم أمريكي مشهور بتجربة: مايكلسون- مورلي وهي واحدة من أهم التجارب في حقل الفيزياء قام بها ألبرت مايكلسون وإدوارد مورلي، وتعتبر من أول الأدلة القوية المعارضة لنظرية الأثير.

وأعظم ما جاء به أينشتين في تسميته الخاصــة هــو مفـهــوم الزمـكـان (Space – time) الـذي يقـترح فيـه أن الزمن ليس منفصـًا عـن المكان ولكنه متحـد معه. ووفقًا لهذا المفهـوم فإن أي حدث يمكن تحديدهـا بأربعة محاور منها الزمن، وليس ثلاثة كما كان شائعًا.

ولذلـك فـإن سرعة أي جســم لو اقتربـت سرعته من سرعـة الضوء فإن كتلته (الجســم) ستزيد بمعدل أكبر وسـيحتاج لطاقة أكبر لزيادة سرعته أكثر ولذلك لن تصل سرعة أي جسم إلى سرعة الضوء وإلا وصلت كتلته إلى ما لا نهاية مما يتطلب كمية لا نهائية من الطاقة تبعًا لمعادلته المشهورة ($E= MC^2$). أما الضوء والموجات الأخرى التي ليس لها كتلة ذاتية فلا تستطيع الحركة إلا بسرعة الضوء الثابتة.

وحتى يسـتطيع أينشـتين التوفيق بين نظريته النسـبية الخاصـة تلك وبين نظريـة نيوتـن للجاذبية أجرى عدة محـاولات بين عامـي 1908 إلى 1914 للتوصل إلى نظرية للجاذبية تتسق مع نسبيته الخاصة ولكنه لم ينجح.

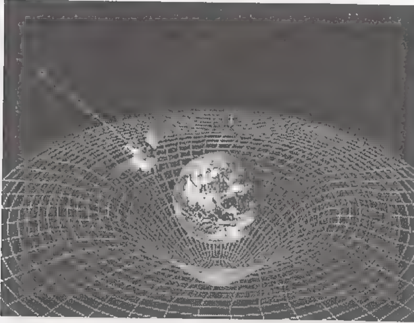
وأخـيرًا وفي عـام 1915 اقترح نظريتـه التي أحدثت ثـورة علمية والتي نطلق عليها الآن النظرية النسبية العامة!

تنقسم هذه النظرية إلى شقين أساسيين:

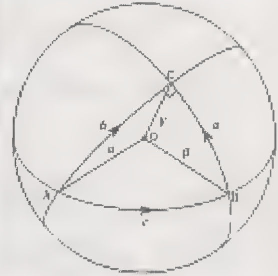
1- تحدب الفضاء. 2- تباطؤ الزمن.

ذهـب أينشـتين إلى أن الأجسـام الكونيـة تـدور في مـدارات محدبة (مثل الأرض حول الشمس) لأنها تحاول أن تتبع أقرب المسارات إلى الخط المستقيم

في فضاء هو نفسه محدب (أسماه الجيوديسي Geodesic)[1] وبالتالي فإن مدار الجيوديسي هو أقرب مسار بين نقطتين في الفضاءات المنحنية وسيظهر محدبًا بالمقارنة مع فضاء ذي بعدين.



شكل ثنائي الأبعاد يصور تحدب الفضاء نتيجة لتشويش وجاذبية الأجسام للفراغ



مثلث جيوديسي

وكمثال مبسط لذلك فإن الطائرة التي تطير من نيويورك إلى مدريد ستسلك مسارًا أقصر لو اتخذت مسارًا محدبًا وليس مستقيمًا (باتباع البوصلة) إلى الشرق على خط العرض الواحد بين المدينتين. فإن قصد قائد الطائرة الشمال الشرقي ثم الدوران التدريجي إلى الشرق ثم إلى الجنوب الشرقي، فسيختصر حوالي 100 ميل في رحلته هذه مقارنة بما لو اتخذ مسارًا يظهر مستقيمًا على خريطة ثنائية الأبعاد.

(1) في الرياضيات، الجيوديسي Geodesic هو تعميم للخط المستقيم ضمن الفضاءات المنحنية curved space.

ولذلك فإن في الفضاء (الخالي من أي جسم) ذي الأربعة أبعاد (الزمكان أحد هذه الأبعاد)، فإن الجيوديسيا هي بمثابة الخطوط المستقيمة. أما في وجود جسم / كتلة في هذا الفضاء فيحدث تحدب في مسار الجسم أو حتى الضوء!

وبذلك تتنبأ النسبية العامة (في شطرها الأول) بأن الضوء لا يسير في خط مستقيم في الفضاء وبأن مجال الجاذبية للأجسام الفضائية سيسبب انحناء مسار الضوء.

وقد أُثبت ذلك عام 1919 برصد كسوفٍ للشمس من الساحل الغربي لإفريقيا. وكان ذلك الكشف مهمًا بمكان لأنه يعني أن ضوء النجوم التي تصلنا مارة بالشمس (ذات الكتلة الكبيرة نسبيًا) ينحرف هو بدوره وبالتالي فإن مواقع النجوم التي نراها تكون خادعة لأن الإنسان على هذه الأرض لا يرى النجوم أبدًا، ولكنه يرى مواقع مرت بها النجوم ثم غادرتها، وفوق ذلك فإن هذه المواقع كلها نسبية وليست مطلقة لأن الضوء كأي صورة من صور المادة والطاقة لا يستطيع أن يتحرك في صفحة السماء إلا في خطوط منحنية، وعين الإنسان لا ترى إلا في خطوط مستقيمة وعلى ذلك فإن الناظر إلى النجم من فوق سطح الأرض يراه على استقامة آخر نقطة انحنى ضوءه إليها، فيرى موقعًا وهميًا للنجم غير الموقع الذي انبثق منه ضوءه، فنظرا لانحناء الضوء في صفحة السماء فإن النجوم تبدو لنا في مواقع ظاهرية غير مواقعها الحقيقية[1].

---

(1) اقرأ إن شئت: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦﴾ (الواقعة: 75، 76).

فحتى لو حسبنا سرعة تلك النجوم (بقدر معقول) فلابد أن نحسب مقدار انحراف الضوء أيضًا لنتمكن من تحديد الزمكان لذلك النجم الثاقب!

الشق الآخر من النسبية العامة أدعى للدهشة ولا يتقبله المنطق العادي لدى الكثيرين:

حسب منطق النسبية الخاصة فإن مجال الجاذبية المنتظم من ناحية وتسارع أي جسم في الفضاء الخالي بسرعة بعجلة (acceleration) منتظمة من ناحية أخرى، يؤديان إلى نفس النتيجة.

فمكوثك داخل مصعد على أرض مستوية ذات جاذبية منتظمة يؤدي تمامًا إلى نفس نتيجة مكوثك داخل مصعد يتسارع بانتظام في الفضاء الخارجي! حيث إنك لو تركت برتقالة من يدك لسقطت نحو قاع المصعد بنفس الطريقة.

الغريب والمدهش في العبارة السالفة هو النتيجة التي سنقولها الآن: مكوثك في مصعد (صاروخ) يتسارع في الفضاء بسرعة عالية (قريبة من سرعة الضوء) سيؤدي إلى تباطؤ الزمن. نعم! تباطؤ الزمن بحيث إن عقارب ساعتك الرولكس الرقمية متناهية الدقة موديل 2013 ستتباطأ مقارنةً مع ساعة أخيك التوءم الذي ينتظرك على سطح الأرض والتي تماثلها تمامًا وبالتالي عندما تعود سالمًا إلى الأرض تكون أكثر شبابًا من توءمك المنتظر على سطح الأرض. لأن نتيجة سرعتك القريبة من سرعة الضوء أكثر تأثيرًا بالنسبة لتباطؤ زمنك المرصود من نتيجة جاذبية الأرض المؤثرة على أخيك!!

وبذلـك لـو سردنا نفس المثـال بطريقة أخرى فسـنصل إلى نفس النتيجة المدهشـة: لو افترضنا وجود جبل ارتفاعه 300.000 كيلومتر من مسـتوى سـطح الأرض (البحـر) وأنك صعـدت إلى قمة ذلك الجبـل ومكث أخوك في قاع الجبل. فسـتعود أنت أقل شبابًا لأن جاذبية الأرض المؤثرة عليك أقل بكثـير من جاذبية الأرض المؤثرة على أخيك!! وكأن سر الخلود قد يكمن في القرب من جاذبية الأجسـام والأكوان (والقرب من جاذبية الحنان المنان) أو قد يكمن في إمكانية السفر بسرعات تقترب من سرعة الضوء.

واليـك صديقـي القارئ هـذه التجربـة الذهنيـة لتقريب الصـورة بشكل أوضح:

لنفـترض وجـود سـفينة فضاء طويلـة جـدًّا طولهـا 300.000 كيلومتر منطلقة في الفضاء بسرعة ثابتة ولنفترض وجود مشـاهد في قمتها (أ) وآخر في قاعدتهـا كلاهما يلبس السـاعة الرولكس ذاتها. افترض أيضًا أن المشـاهد (أ) يرسـل لحظيًّا إشـارة ضوئية إلى قاعدة السـفينة كلما تدق الساعة التي في يده كل ثانية.

وبما أن الضوء سـيقطع المسافة بين قمة السفينة وقاعدتها في ثانية واحدة، فإن المشـاهد (ب) سـيتلقى إشـارة كل ثانية واحـدة. (ثانية واحـدة بين كل إشـارتين) كل ذلك يتقبله العقل بهدوء وبمنطقية. الآن لنفترض أن السـفينة تتحرك إلى أعلى (في الاتجاه من القاعدة إلى القمة) بأن تتسـارع عجلتها ببطء منتظم حتى لا تصل إلى سرعة الضوء، في هذه الحالة، سيقطع الضوء مسافة أقل ليصل من القمة إلى القاعدة. وبالتالي سـيصل في زمن أقصر. وسـيرصد المشاهد (ب) زمنًا بين الإشارات الضوئية أقل من ثانية (تتلاشى إذا وصلت

سرعـة الصـاروخ إلى سرعـة الضـوء) الآن علينـا أن نتذكـر أن نتيجـة ذلك التسـارع مكافئة تمامًا لنتيجة السكون في حالة الجاذبية المنتظمة. ويعني ذلك أنه حتى لو قبعت السـفينة في محطة الإطلاق في سـكون تام، فسيتباطأ الزمن لدى المشـاهد (ب) الذي يقبع سـاكنًا (بالنسـبة للأرض) وذلك لأنه أقرب لمجال الجاذبية الأرضية!!

فـإن كانـت النسـبية الخاصة تدلنـا على أن الزمـن يسري بطريقـة مختلفة بالنسـبة للحركة، فإن النسبية العامة تدل على أن الزمن يسري بطريقة مختلفة بالنسبة للمراقبين على ارتفاعات مختلفة من مجال الجاذبية الواحدة.

ونسـتطيع أن نقـول إنه لـو كان نيوتن هو صاحب السـبق في وضع نهاية لفكرة المكان المطلق فإن أينشـتين صاحب السبق في وضع نهاية لفكرة الزمن المطلق!

الجدير بالذكر أنه تم اختبار تنبؤات أينشتين للنسبية العامة (شطرها الثاني) (الخاص بتباطؤ الزمن) عام 1962 بوضع زوج من السـاعات متناهية الدقة إحداهمـا على قمة برج للمياه وأخرى في قاعدتـه ووجد أن تلك الأقرب إلى سـطح الأرض تتحرك بشكل أبطأ متفقة مع توقع أينشتين في النسبية العامة! واسـتنتج أنه لو وضعت إحداهما على ارتفاع يماثل بُعد الشمس عن الأرض (حـوالي 150 ألف كيلومتر)، لكانت متقدمة بمقدار حوالي دقيقة كل سـنة عن نظيرتها الماكثة على سطح الأرض.

وبناءً على ما سلف، لم يصبح الزمان والمكان مؤثرين في الكون وأجسامه (نحـن منـه) فقط، بل أصبحا هما أنفسـهما يتأثران بديناميكيـة الكون أيضًا. وقـد جعلنا ذلـك نرى الكون ليس كعـالم ثابت لا يتغير ولكن اسـتبدل هذا

المفهوم بمفهوم الكون الديناميكي المتمدد والذي سيوصلنا إلى الفكرة التي أخذنا ندور حولها وهي أصل الكون وبدايته، فإن كان الكون يتمدد بسرعات منتظمة (كما سنرى)، ألا يعني ذلك تحتم وجود بداية له (من ثبات)؟ وتحركه من بعد ثبات ألا يدل على وقوع قوة أو محرك له؟! قبل أن نصل إلى الإجابات العقلية لمثل تلك الأسئلة الأبدية، نحو البحث عن الحقيقة ولنتطرق إلى فكرة تمدد الكون والتي قد يكون قد أُشير فيها في القرآن الكريم بـ: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ (الذاريات: 47).

تمدد الكون:

ترجع بدايات فكرة تمدد الكون إلى العالم الفيزيائي الألماني جوستاف كيرشوف (Gustav Kirchhoff)[1] الذي تحقق من أن أيَّ جسم مادي (ومنها النجوم) سيصدر منه ضوء أو إشعاع عند تسخينه تمامًا مثلما يتوهج الفحم بالتسخين. وسبب صدور ذلك الضوء هو الحركة الحرارية للذرات داخل هذه الأجسام.

والضوء كما نعلم ينقسم إلى ألوان الطيف. وعند رصد بعض النجوم نجد أن بعض ألوان الطيف غائبة ونستطيع بذلك أن نتصور ماهية الغلاف الجوي لتلك النجوم حسب الألوان الغائبة لأنها تنبئ عن امتصاص الغلاف الجوي للنجم لها حسب ماهيته.

وفي الربع الأول من القرن العشرين بدأ العلماء في رصد النجوم خارج مجرتنا (درب التبانة) فاكتشفوا شيئًا غريبًا. وجدوا أن النجوم في المجرات

(1) جوستاف روبرت كيرشوف (12 مارس 1824 - 17 أكتوبر 1887) فيزيائي ألماني كان له دور كبير في فهم عمل الدوائر الكهربية.

الأخـرى تصدر ضوءًا ذا نفس النسـق بالنسـبة للألـوان الغائبة كما في مجرتنا لكنهـا جميعًا ذات تردد (إزاحة) نحو النهاية الحمراء للطيف بالمقدار النسـبي نفسه تقريبًا.

وتسـمى تلـك الإزاحـة (إزاحـة اللـون أو الـتردد) بظاهـرة دوبلـر (Doppler Effect).

وكـما نعلم أن أطـوال الموجات لألوان الطيف هي ما تـراه العين المجردة وأن أطـول تلك الموجـات هي المزاحة نحـو النهاية الحمـراء وأقصرها نحو (الأزرق - البنفسـجي)، ويقـال إن وقـت اكتشـاف ألوان الطيـف الخاصة بالضوء كان المثلث مقلوبًا (قاعدته إلى أسفل) ولذلك نقول عن الأشعة بعد النهايـة الحمراء والتي لا نراهـا بالعين المجردة: تحت الحمراء[1] وبالمثل نقول فوق البنفسـجية[2] مع أن المنطق كان يسـتدعي العكس ولأن طول الموجات الحمراء هو الأعلى - الأطول!

وكلـما ابتعدت عنـا موجات الضوء فإنهـا تظهر أقصر وكلـما اقتربت منا تظهـر أطـول (تمامًا مثل إنـه عندما يقـترب صوت القطار منـك تحس بحدة الصـوت أكثـر وعندما يبتعد تظهـر وكأن الموجات الصوتيـة تقل حدتها إلى أن تتلاشى).

(1) الأشعة تحت الحمراء (أو إشعاع تحت الأحمر) هو الإشعاع الكهرومغناطيسي مع الطول الموجي بين 0.7 و300 ميكرومتر، وهو ما يعادل تقريبًا نطاق الترددات بين 1 و400 تيراهيرتز.

(2) الأشعة فوق البنفسجية (بالإنجليزية: Ultraviolet) هي موجة كهرطيسية ذات طول موجي أقصر من الضوء المرئي لكنها أطول من الأشعة السينية سميت بفوق البنفسجية لأن طول موجة اللون البنفسجي هو الأقصر بين ألوان الطيف. وطول موجاتها يبدأ من 400 نانومتر إلى 10 نانومتر، وطاقتها تبدأ من 3 eV إلى 124 eV.

وفي حالـة الضـوء، لو ابتعـد عنا مصدر الضوء فسـيعني ذلـك أن طول الموجة سيزداد، وبالتالي فإن طيفه سيزاح تجاه النهاية الحمراء للطيف.

وكان العلماء (قبل هابل[1]) يظنون أن المجرات تتحرك بشـكل عشـوائي تمامًا ولذلك توقع هابل عند رصده للمجرات الأخرى أن يجد عددًا متساويًا (أو متقاربًا) من الإزاحات الحمراء والزرقاء. وكانت المفاجأة عندما اكتشف أن معظم المجرات لها إزاحات حمراء وبالتالي اسـتنتج أنها تتحرك بعيدًا عنا!! والمفاجأة الكبرى والتي نشرها هابل عام 1929 هي أنه حتى مقدار الإزاحة لم يكن عشوائيًا بل كان يتناسب مع بعد المجرة عنا!! فكلما زاد بعد المجرة عنا كان تباعدها أسرع! وذلك ببسـاطة يعني أنه يسـتحيل أن يكون العالم ساكنًا أو لا يتغير حجمه كما يُعتقد. ولكنه يتمدد ويتسـع بالفعل وتتزايد المسـافات بـين المجرات مع مـرور الزمن وأن كل الأجرام تتحـرك متباعدة عن بعضها البعـض[2]. وذلـك يفسر عنـد البعض سر اسـتقرار الكون وعدم انكماشـه بسـبب الجاذبية لأنه حسـب قوانين نيـوتن، لابـد من قـوة (أو قـوى) تنافر تعادل (أو تزيد) على قوى الجاذبية وذلك التفسير الوحيد الذي يفسر سر تمدد الكون على الرغم من قوى الجاذبية. ولا بد أن تكون سرعة ذلك التمدد الكوني المهول أكبر من قيمة معينة تساوي (تكافئ) قوى الجاذبية بين المجرات.

وعـلى الرغـم مـن أن أينشـتين كان يظن أن العـالم ثابتٌ لا يتمـدد في عام 1915 عندمـا خـرج بنسـبيته العامـة، فإنـه أدرك تلك المشـكلة وأدخل في

(1) إدوين بويل هابل (1889 - 1953) (Edwin Powell Hubble). فلكي أمريكي أثبت وجود مجرات أخرى عدا المجرة اللبنية.

(2) اقرأ إن شئت: ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ (الآية 38 من سورة يس).

معادلاته «ثابتًا» معينًا أطلق عليه الثابت الكوني والذي كان يكافئ في نظره قوى الجاذبية التي تريد أن تقلص الكون!! (أيقن أينشتين خطأه بعد ذلك وسمى هو ذلك الثابت الخطأ الأعظم!) (على الرغم من أن العلماء الآن يذهبون إلى حتمية وجود ذلك الثابت ولكن يبدو أن أينشتين ندم على تسلط فكرة ثبات الكون عليه في ذلك الوقت).

وللأمانة العلمية، فقد سبق عالم الرياضيات الروسي ألكسندر فريدمان (Alexander Friedmann) هابل في فكرة تمدد الكون وذلك عام 1922 (قبل هابل بحوالي سبع سنين) بل وذهب إلى أن الكون متماثل إذا نظرت إليه من جميع الاتجاهات. وبذلك فإن الكون يتمدد في نظره لا بأن يبعد عنا (الراصد) نحن فقط ولكنه يبتعد بعضه عن بعض بنفس الكيفية.

ولا يثبت ذلك أو ينفي أننا في مركز الكون (كما كان يظن في القرون السالفة) ولكنه احتمال يبدو أنه مازال قائمًا!!

والغريب في الأمر أن معدل تمدد العالم (عجلته) لا يتباطأ بل على العكس هو في تسارع، ووجه الغرابة في ذلك أن تأثير مادة الكون (من نجوم ومجرات وأجرام وحتى مواد داكنة) لابد أنه كان يؤدي إلى تباطؤ التمدد.

فما هي القوة المسئولة عن دفع الكون متطايرًا بأجزائه في تسارع؟ من المتقبل منطقيًا أن يتمدد الكون بفعل القصور الذاتي لانفجار أولي ولكن غير المتقبل هو تسارع ذلك التمدد وكأن قوة خفية مازالت تدفعه إلى الاتساع[1]!

حتى الآن لا أحد يعرف سر تلك القوة ولكن قد يكون ذلك دليلًا على صحة رأي أينشتين في حتمية وجود ثابت كوني (ذي تأثيرٍ مضاد للجاذبية).

---

(1) اقرأ إن شئت: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ (الذاريات: 47).

وذلـك يدعونا للتأمل والتفكر في الأزمنـة الأولى لذلك الكون. فإن كان كِبر حجم الكون الحالي هو بسـبب تمدده وكذا تسـارع تمدده، فذلك يعني أن حجمه في بداياته كان صغيرًا إلى أن يصل إلى الصفر أي العدم وكان ذلك هو بداية الخيط لنظرية الانفجار العظيم!! أو الانفجار الكبير. Big Bang!

كما ذكرنا في بداية ذلك الباب أن هذه النظرية لا تدعي التوصل إلى تفسير أو شرح، كان قبل حدوث ذلك الانفجار الكبير، ودعونا نسـمي نقطة بداية الانفجـار الكبير بالنقطة «واحد».. أما مـا قبل هذه البداية ، فلا يدخل حتى الآن في إطار العلم ولكنه قد يدخل في إطار المنطق أو الفلسفة أو الدين أو ما وراء العلم أو ما وراء الطبيعة (Metaphysics) .

ولكـن دعونا نجـذب عقارب التاريخ إلى الـوراء إلى ما قبل ظهور نظرية الانفجار الكبير والتي أثبت من خلالها أن لهذا الكون بداية.

كان هناك دائمًا سـؤال مطروح وهو هل هـذا الكون أزلي أم لا؟! وكانت هناك مؤشرات قوية بأن هذا الكون ليس أزليًا وبالتالي له بداية.

مـن ضمن هذه المؤشرات ، القانون الأول للديناميكا الحرارية First Law of Thermodynamics والذي سـنرجع إليه بعد قليل. وكما نوهنا في بدايات الفصـل الأول مـن الكتاب ، هنـاك ثلاثة احتمالات عقلية تسـتطيع أن تفسر نشأة الكون:

1 - إما أنه أزلي- أي كان متواجدًا منذ الأزل وبالمثل أبدي.

2- ليس أزليًا ولكن أنشأ نفسه بنفسه من العدم.

3- ليس أزليًا ولم ينشئ نفسه بنفسه ولكن قوة ما أو عقلًا ما (لا نعرف صفاته) خارج عن هذا الكون وسابق له ليس كأي شيء في الكون -

هو الذي أنشأه. (نرجو الرجوع إلى الفصل الأول لمزيد من التفصيل من الناحية الفلسفية).في بدايات القرن العشرين وأواخر القرن التاسع عشر الميلادي ذهب بعض العلماء الموالين لنظرية داروين للنشوء والارتقاء إلى أن هذا الكون أزلي.

وهذا الاختيار يحل إشكالية ظهور شيء من لا شيء أو خلق الشيء نفسه بنفسه لأنه ببساطة في هذا التصور، لم يحتج الكون إلى أن يوجد لأنه كان في الوجود أزلًا، وذهب بعضهم مثل توماس جولد Thomas Gold وهيرمان بوندي Herman Bondi وفريد هويل Fred Hoyle إلى نظرية الـ Steady State (الحالة المستقرة) وفشلت هذه النظرية فشلًا ذريعًا لأنها تناقضت مع نظرية من أكثر النظريات العلمية رسوخًا وتأصلًا وهي القانون الأول للديناميكا الحرارية والتي نوهنا عنها في بداية هذه الفقرة والتي تنص على: (أن المادة والطاقة لا يستحدثان ولا يفنيان).

ووجه التناقض هو أن أساس نظرية الـ Steady State ينص على إمكانية ظهور شيء من لا شيء.. واعتبروا أن اتساع الكون (الذي بدأت تظهر بوادره في ذلك الوقت) ليس إلا نتيجة أن ذرات الهيدروجين جاءت من لا شيء إلى بعض مكونات الفضاء الكوني (سموه «Itrons»). واحتلت ذرات الهيدروجين هذه بعضًا من مادة الكون التي تحتم عليها أن تغير مكانها إلى خارج الكون وبالتالي يأخذ الكون في الاتساع.

ونقض القانون الأول للديناميكا الحرارية هذه النظرية لاستحالة استحداث المادة والطاقة من لا شيء!

وأيضًا ضُربت نظرية الـ Steady State في مقتل آخر لأن تبنيها مذهب الكون الأزلي يناقض القانون الثاني للديناميكا الحرارية والذي ينص باختصار على أن الطاقة المستخدمة في إيجاد العمل تنتقل من حالة الاستخدام إلى حالة عدم الاستخدام. وهو ما يعرف بالـ Entropy أي أن الكون كله يميل ناحية عدم الاستقرار أو عدم الاستخدام والفناء. أو بعبارة أخرى نستطيع أن نقول إن الكون ينضب! ومعنى هذا استحالة أزلية الكون واستمراره إلى يومنا هذا في نفس الوقت. فلو كان الكون أزليًا لنضب منذ زمن بعيد (منذ الأزل في الواقع وذلك مستحيل عقلًا).. ولا يعقل أن يذهب أحد إلى أنه أزلي وأن فكرة النضوب طارئة عليه لأن ذلك سيخالف القانون الأول للديناميكا الحرارية.

سبب آخر يجعلنا نستبعد اختيار أزلية الكون هو الآتي: مثلًا مادة مشعة مثل الراديوم Radium تدفعنا لنفس هذا الاستنتاج أيضًا (مكتشفه من قبل ماري كوري Marie Curie عام 1898)[1]. فجميع المواد المشعة تعطي باستمرار إشعاعًا / Radiation.

فاليورانيوم ذو الوزن الذري[2] 238 (atomic weight) بتحلله يخرج ثلاث ذرات من الهليوم. كل واحدة ذات وزن ذري 4. وبالتالي الوزن

(1) ماري سكلودوفسكا كوري (بالبولندية: Marie Skłodowska - Curie) (7 نوفمبر 1867 - 4 يوليو 1934) عالمة فيزياء وكيمياء بولندية المولد، اكتسبت الجنسية الفرنسية فيما بعد. عرفت بسبقها وأبحاثها في مجال اضمحلال النشاط الإشعاعي وهي أول امرأة تحصل على جائزة نوبل والوحيدة التي حصلت عليها في مجالين مرتين (مرة في الفيزياء وأخرى في الكيمياء)، وهي أول امرأة تتبوأ رتبة الأستاذية في جامعة باريس. اكتشفت مع زوجها بيار كوري عنصري البولونيوم والراديوم ليحصلا مشاركةً على جائزة نوبل في الفيزياء، كما حصلت على جائزة نوبل في الكيمياء عام 1911 بمفردها.

(2) الكتلة الذرية من خصائص كل نظير لعنصر كيميائي (وتسمى أيضًا الكتلة الذرية النسبية أو الوزن الذري) وهي كتلة ذرة واحدة للنظير معبر عنه بوحدة (وحدة كتل ذرية و.ك.ذ. التي تعادل 1 غرام/ مول)

الذري الجديد لهذا اليورانيـوم يكون 226 (12-238) ويتحول اليورانيوم إلى راديوم .

Uranium 238 ⟶ Radium 226

والراديـوم بدوره يتحلل حتـى يتحول في النهاية إلى مـادة ثقيلة ألا وهي النحاس.

يستغرق ذلك وقتًا طويلًا. (تحول الراديوم إلى النحاس، النحاس يستغرق حوالي 1590 سنة، واليورانيوم إلى الراديوم أكثر من ذلك).

مـا معنى هـذا الكلام؟ معناه أنـه في وقت من أوقات التاريـخ لم يكن هناك يورانيـوم (أي أنهـا مـادة غير أزليـة) لأنها لو كانـت أزلية لتحولـت جميعها إلى الراديـوم ثـم النحاس منذ زمـن بعيد منـذ الأزل أيضًا ويسـتحيل ذلك عقلًا. ونظرًا لأننا مازلنا نجـد اليورانيوم في كوننا هذا، فلا يـدل ذلك إلا على وجود بداية لوجود اليورانيوم وبالتالي استحالة أزلية مادته التي لا تستحدث من مادة أخـرى. وقد نتعرض لذلك عند تناولنا للنشـوء والارتقـاء لأنه يدل أيضًا على اسـتحالة وجود كل شيء في الكون (حيوي أو غير حيوي) مادة مشـعة أو غير مشعة حتى بمرور ملايين السنين من شيء آخر.. فمن أين جاءت المواد المشعة إذن؟! وليس اليورانيوم فقط ولكن الراديوم والثوريوم والرادون والبولونيوم.. إلـخ؟!! حتى لو كان قد نزل على الأرض من الفضاء (ولا دليل على ذلك) فلا يمكـن أن يكـون موجـودًا أزلًا؛ لأننا نتكلـم عن الكـون ككل وليس الأرض فقـط، لأن مـادة مثل اليورانيـوم تتواجـد في خامات مثل الفوسـفات والفحم المتواجدين في القشرة الأرضية وبالتالي لا يمكن تصور أن وجودهما أزليٌّ.

فالآن لو وافقنا أن للكون بداية، فماذا عما قبل وجود الكون؟ يوجد احتمالان لا ثالث لهما:

الأول: لم يكن شيء؛ أي كان هناك العدم ولا شيء غير العدم.

الثاني: كان هناك شيء ما (أو شخص ما) لا بداية له لأنه لو كان ذا بداية كان ذلك معناه وجود العدم قبله ولانتقلنا إلى الاحتمال الأول حتى لو فعلنا ذلك ملايين المرات (وليس عددًا لا نهائيًا من المرات لأن ذلك يفضي إلى نتيجة أزلية الكون التي رفضناها مسبقًا)[1].

المشكلة بالنسبة للاحتمال الأول، أنه لا يستقيم مع قانوني الديناميكا الحرارية الأول والثاني؛ لأنه لو كان هناك «زمن» أو حتى «لحظة» ، لم يكن هناك شيء - أي عدم فقط لاستحالة وجود شيء الآن، لأنه «لا شيء» يخرج لا شيء أو لا يخرج شيئًا.

وبالتالي فالمنطق السليم ينتهي إلى أنه لو وُجد شيء الآن لابد من وجود شيء واجب الوجود بذاته منذ الأزل. وقد يقول قائل ولكن من قال إن ذلك الشخص أو الشيء هو الله، نقول إن الحل الوحيد هو أن يكون ذلك الشخص (X) منفصلاً عن كنه ذلك الكون الذي اتفقنا أنه له بداية، وبالتالي لابد أن يكون (X) خارجًا عن الكون وليس كمثل الكون في أي شيء حتى يستطيع أن يُخرج الكون من العدم بكيفية نجهلها قد لا تخضع لقوانين الديناميكا الحرارية.

---

(1) يذهب بعض العلماء إلى القول بفكرة «الارتداد الكبير Big Bounce» وهي أن الكون الحالي هو نهاية لكون سابق ونهاية الكون الحالي ستكون بدايةً لكون لاحق ولكن حتى لو صح ذلك، فمستحيل عقلًا أن تكون تلك الارتدادات لا نهائية وأزلية وذلك لنفس الأسباب التي أوردناها المبنية على قوانين الديناميكا الحرارية.

هذه الـ (X) سماها الناس (أو أطلق هو على نفسه) الله أو God أو سمه ما شئت.. ويبقى ذلك هو الحل الوحيد!! ويكون بذلك مبدأ (ليس كمثله شيء) حلًّا منطقيًا للمسألة!!

والآن لنعُد مرة أخرى إلى النظرية التي نحن الآن بصددها وهي الانفجار الكبير، مع أن لنظرية أينشتين للنسبية العامة أثرًا ضخمًا في ظهور نظرية الانفجار الكبير، إلا أننا نستطيع القول بأن العلماء دأبوا على دراسة إمكانية التحقق من تلك النظرية بداية من أوائل الثلاثينيات. وفي أواخر الأربعينيات توقع العالم جورج جامو George Gamow[1] وجود ما يسمى بالـ (CMB Cosmic Microwave Background) إن كان الانفجار الكبير قد حدث بالفعل.

وفي عام 1950 تنبأ عالمان آخران هما رالف ألفير وروبرت هيرمان Ralph Alphler & Robert Herman بنفس الشيء أيضًا.

في عام 1965 اكتشف (بالصدفة) أرنو بيزيس Arno Penzias وروبرت ويلسون Robert Wilson الـ CMB!

منذ ذلك الحين وحتى عام 1992 أجريت الكثير من التجارب لدراسة الـCMB بعمق. وفي ذات العام، قامت وكالة ناسا الأمريكية NASA بتدشين

(1) جورج جامو: [George Gamow] هو عالم فيزياء روسي، ولد 4 مارس 1904 وتوفي في 19 أغسطس عام 1968. كان يقوم بالبحث العلمي في الفيزياء النظرية وفي علم الكون الفيزيائي. قام جامو باكتشاف تحلل ألفا بطريق الأنفاق الكمومية وقام بأبحاث عديدة في مجال النشاط الإشعاعي لأنوية الذرات، وتطور النجوم، وتخليق العناصر في النجوم، وتخليق النوكليدات وله بحوث في الانفجار العظيم وفي إشعاع الخلفية الميكروني الكوني.

القمر الصناعي للـ CMB (Cosmic) Background Explorer CMB Satellite المسمى بالـ COBE. وذلك لدراسة الـ CMB.

وخرج بعدها الفلكي الفيزيائي جورج سموت George Smoot[1] ليقول: «عندنا الآن دليل مباشر لولادة الكون وتطوره.. لو كنت مؤمنًا كأنك رأيت الإله»..!!

في عام 2001 قامت ناسا بتدشين مشروع متطور آخر سموه WMAP لتجميع معلومات أكثر دقة من تلك التي حصل عليها الـ (COBE). تمكن القمر الصناعي المسمى بالـ WMAP من تجميع صور أكثر دقة مكنت العلماء من استنتاج أن ضوء الـ CMB ظهر بعد الانفجار الكبير بحوالي 379.000 سنة.

علماء الـ Steady State لم يستطيعوا أن يفسروا وجود الـ CMB. وعلى الرغم من وجود دلائل أخرى على مستوى الكيمياء النووية Nuclear Chemistry والتي تحتم وجود كميات كبيرة أيضًا من الهليوم والهيدروجين في الكون والتي تتماشى مع تنبؤات نظرية الانفجار الكبير أيضًا.

مع احتراق ونضوب النجوم، يتحول الهيدروجين إلى هيليوم حتى يموت النجم (وذلك بالنسبة للنجوم المتوسطة مثل شمسنا)، أما في حالة النجوم العظيمة فإنها تنتهي بعمليات الكيمياء النووية بالتحول إلى صورة من الحديد

(1) جورج فيتزجيرالد سموت الثالث (ولد 20 فبراير 1945) عالم أمريكي في علم الفيزياء الفلكية وعلم الكون الفيزيائي وحاصل على جائزة نوبل في الفيزياء لعمله على قياس حجم الأجسام السوداء.

وينفجـر النجم ليقدم لنـا نموذج الـــ Supernova [1] وقد يكون ذلك سـبب إيمان البعض بأن الحديد مادة كونية نزلت على الأرض وليست من الأرض.

لا يفوتنـا أن نذكـر أيضًـا وجهـة نظر المعسـكر الآخر. وأعني المعسـكر الرافض لفكرة الانفجار الكبير. والجدير بالذكر أنه ليس بالضرورة أن يؤمن الرافضون لنظرية الانفجار الكبير بعدم وجود بداية للكون.

فمثـلًا يرى بعض العلماء الذين أرسـلوا خطابًا مفتوحًا للوسـط العلمي (نـشر في مجلـة الـــNew Scientist، 22 May, 2004) أن هـذه النظرية فضلًا عن استنادها إلى الكثير من الفرضيات مثل وجود المادة الداكنة Dark matter والطاقة الداكنة Dark energy [2] أو وجود مجالات للتضخم والاتساع والتي

---

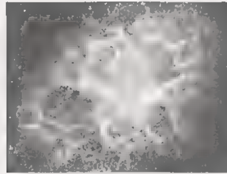
(1) (Supernova سوبرنوفا) هو نوع من أنواع النجوم المتفجرة وتعبير يدل على عدة انفجارات نجمية هائلة يرمي فيها النجم غلافه في الفضاء عند نهاية عمره. تؤدي إلى تكون سحابة كروية حول النجم براقة للغاية (شديدة البريق) من البلازما، سرعان ما تنتشر طاقة الانفجار في الفضاء وتتحول إلى أجسام غير مرئية في غضون أسابيع أو أشهر. أما قلب النجم فينهار على نفسه نحو المركز مكونًا إما قزما أبيض أو يتحول إلى نجم نيوتروني ويعتمد ذلك على كتلة النجم. أما إذا زادت كتلة النجم على نحو 20 كتلة شمسية فإنه قد يتحول إلى ثقب أسود بدون أن ينفجر في صورة مستعر أعظم.

(2) في علم الفلك وعلم الكون، المادة المظلمة أو المادة السوداء (بالإنجليزية: Dark Matter) هي مادة افترضت لتفسير جزء كبير من مجموع كتلة الكون. لا يمكن رؤية المادة المظلمة بشكل مباشر باستخدام التليسكوبات، حيث من الواضح أنها لا تبعث ولا تمتص الضوء أو أي إشعاع كهرومغناطيسي آخر على أي مستوى هام. عوضًا عن ذلك، يستدل على وجود المادة المظلمة وعلى خصائصها من آثار الجاذبية التي تمارسها على المادة المرئية، والإشعاع، والبنية الكبيرة للكون. يقدر أن تشكل المادة المظلمة 84 ٪ من المادة في الكون، و23٪ من الكتلة والطاقة. أما الطاقة الداكنة، ففي علم الكون، الطاقة المظلمة أحد الأشكال الافتراضية للطاقة التي تملأ الفضاء والتي تملك ضغطا سالبًا. وفق النسبية العامة، تأثير مثل هذا الضغط السالب يكون مشابهًا كيفيًا لقوة معاكسة للجاذبية في المقاييس الكبيرة. افتراض مثل هذا التأثير هو الأكثر شعبية حاليًا لتفسير تمدد الكون بمعدل متسارع، كما يشكل تفسيرًا معقولًا لجزء كبير من المادة المفقودة missing mass في الفضاء الكوني.

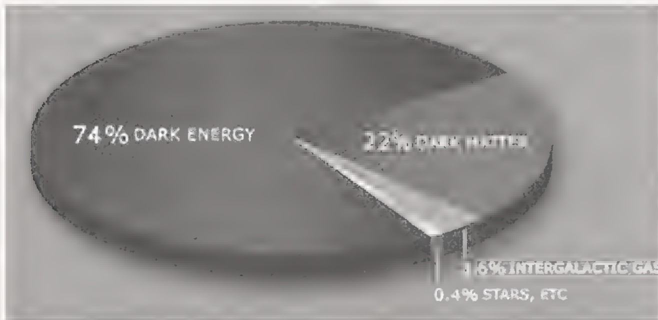
بدونها لا تتحقق النظرية في نظرهم، بل هي أيضًا لا تفسر سر وجود الـ CMB بشكل انسيابي غير معتمدة على قربها أو بعدها من الرصد.

فكيف نفسر الحرارات المتماثلة للـ CMB المرصودة من بضعة آلاف من الكيلو مترات من الكرة الأرضية وتلك المرصودة من على بعد مراكز أبعد بكثير والتي تفترض النظرية أنها بدأت تنبعث بعد بضع دقائق من الانفجار الكبير أي من على بُعد حوالي 13 بليون سنة ضوئية؟!!

ولا تستطيع نظرية الانفجار الكبير حل هذه المشكلة إلا بافتراض وجود تضخم مجالي يسمح بذلك.



سوبر نوفا مقترن بسديم السرطان – صورة مأخوذة بواسطة تليسكوب هابل



تقدير توزيع نسب المادة المرئية والمادة المظلمة والطاقة المظلمة في الكون

على الرغم من ذلك، يبدو أن أغلب العلماء ما زالوا عند تمسكهم بنظرية الانفجار الكبير والتي بدأها كفكرة عالم الفضاء جورج لوماتر[1] George Lemaitre مرورًا بإدوين هابل Edwin P. Hubble[2] والذي كتب ما يعني أنه لو كانت الإزاحات الحمراء عبارة عن نتيجة لأثر دوبلر Doppler[3] Effect، فهذا لا يدع مجالًا للشك بأن الكون منغلق على نفسه وليس لا نهائيًا وأن له بداية[4].

ويعلق عالم ميكانيكا الكم المعاصر ستيفن هوكنج في كتابه الماتع تاريخ أكثر إيجازًا للزمن (A Briefer History of Time)- وهو يعتبر الجزء الثاني لكتابه الأكثر مبيعًا: A Brief History of Time ،: «إنه لو كان الكون مغلقًا على نفسه تمامًا ويمكن وصفه بنظرية موحدة تمامًا فإن هذا يعني الدليل القاطع على وجود إله خالق».

(1) جورج لومتر هو عالم فلك (بالإنجليزية: Georges Lemaître) وقسيس كاثوليكي اقترح ما سمي فيما بعد نظرية الانفجار العظيم لنشأة الكون، وقد سماها من قبل «افتراض الذرة الأولية واسمه بالكامل Monsignor Georges Henri Joseph Édouard Lemaître ولد في 17 يوليو 1894 وتوفي في 20 يونيو 1966 وهو بلجيكي الأصل، كان أستاذًا للفيزياء وعلم الفلك بالجامعة الكاثوليكية بمدينة لوفان.

(2) إدوين بويل هابل (1889 - 1953) (Edwin Powell Hubble) فلكي أمريكي أثبت وجود مجرات أخرى عدا المجرة اللبنية. ولد في مارشفيلد بولاية ميسوري بالولايات المتحدة الأمريكية، اشتغل ما بين عامي 1914-1917 في مرصد يوركس بجامعة شيكاغو ثم بمرصد جبل ويلسون سنة 1919 وأخيرًا بمرصد جبل بالومَرْ (Mart-Palomer) سنة 1948 وفيه قام بتوجيه الأبحاث الجارية بواسطة التليسكوب.

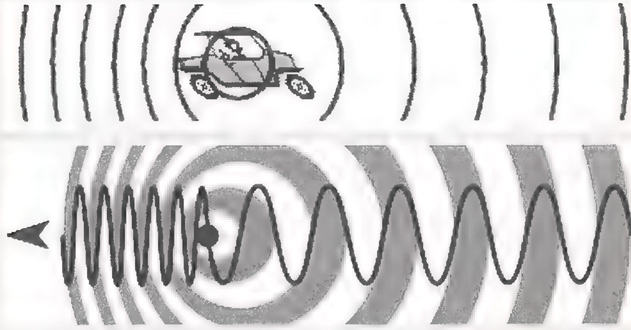
(3) ظاهرة دوبلر أو تأثير دوبلر هو تغير ظاهري للتردد أو الطول الموجي للأمواج عندما ترصد من قبل مراقب متحرك بالنسبة للمصدر الموجي . يدعى هذا التأثير بتأثير دوبلر نسبة لدوبلر الذي اكتشف هذه الظاهرة عام 1842.

(4) Astronomical Society Monthly Notices,17,506,1937. Doppler Effect.

ويبـدو أن القرن العشريـن وبدايات الواحد والعشريـن مناقضة للقرنين السـابقين لهـما مـن تناقـض أو ظاهرية تناقض بعـض النظريـات العلمية مع نظـرة الدين الذاهب لنظرية الخلـق ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾ (الطور: 35) فبدت النظريات الحديثة أكثر تلاؤمًا مع هذه الفكرة مع اضمحلال نظريات القرون الغابرة. وسنشـهد ذلـك أكثر عندما نتناول نظرية الـ Super String theory أو نظريـة الكـم وقد نندهش عندمـا نرى ذهاب بعض العلماء إلى وعي الكون Self Aware Universe وكيف يتأثر المرصود بالراصد وكيف يتـلاءم ذلـك مع الديـن الذي يرى الكون كله مسـبحًا ومسـلمًا لله ﴿ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ (الإسراء: 44) ﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ (آل عمـران: 83)!! .. ومـع من يـرى أن هناك ذاكرة لذرات الماء وكأن شـهادة الكون وذراته يوم النشور ليست بمستغربة.



الانزياح الأحمر للضوء بفعل سرعة المصدر في الابتعاد عنا. الانزياح نحو الأحمر معناه زيادة طول موجة الضوء القادم إلينا، طبقًا لظاهرة دوبلر



تغير طول الموجة بسبب حركة المصدر

طول الموجة هو المسافة التي تفصل بين الوحدات الموجية المتماثلة المتشابهة، أي أنه المسافة الفاصلة بين الأطوار المتشابهة (قمة مع قمة أو قعر مع قعر). هنالك عدد من الأمواج التي نلاحظها يوميًا، كالأمواج الضوئية، أو الصوتية أو المائية. هنالك علاقة عكسية تربط طول الموجة بترددها، فإذا كان لموجتين نفس السرعة تكون الموجة الأقصر ذات تردد أكبر.

عمليًّا، فإنّ الموجة هي اضطراب في الخواص المحلية، كالضغط في الأمواج الصوتية والمائية أو شدّة الحقل الكهرومغناطيسي في الأمواج الضوئية.

إنّ مدى رد فعل حواس الإنسان (كالبصر أو السمع) للأمواج يختلف وفق طول الموجة. فتستطيع العين البشريّة أن تلتقط من الطيف الكهرومغناطيسي فقط أمواجًا يتراوح طولها بين 400nm و700nm، في حين تلتقط الأذن أمواجًا تتراوح ترددها بين 20 هرتز و20 كيلو هرتز ، أي أنّ أطوالها تتراوح بين 17 مترًا و17 ملليمترًا على التوالي تقريبًا (1 كيلو هرتز = 1000 هرتز).

(عدل) العلاقة بين طول الموجة والتردد

يُمثَّل طـول الموجة عادة بالحرف الإغريقي لامـدا (λ). ويسري القانون الفيزيائي التالي لجميع الأمواج الدوريّة:

$\lambda = \frac{v}{f}$ بحيث إنّ v هي سرعة تقدم الموجة وf هي تردد الموجة.

سرعة تقدم الموجة تســاوي $3 \cdot 10^8 \frac{m}{sec}$ لموجة ضوئيـة في الفراغ، وتمثّل عندها بالحرف c.

بالإمـكان تغيير تردّد الموجة وطولها كلٌّ على حدة، بشرط أن تتغيّر كذلك سرعة تقدمها. ففي ظاهرة انكســار الضوء، أي عند انتقال موجة ضوئية بين مادّتين لهما معاملا انكسار مختلفان، تتغير سرعة الموجة وطولها أيضًا، في حين يبقى تردّدها ثابتًا.

وقبـل أن ننتقـل إلى نظريـات الكـم الحديثـة، نريـد أن نوضـح أن معظم النظريات السابقة كانت تُستمدّ من تجارب أو ملاحظات وبناء عليها تتكون النظريـة ومعادلاتهـا. أمـا الغريـب في نظرية الكـم والتي تتعامـل مع أصغر الأشـياء فهو أن العلـماء حققوا فيها معادلات نظريـة ويحاولون أن يفسروها مـن الناحيـة العلمية، والغريـب أن تحقيق تلـك المعادلات يـؤدي إلى أفكار غريبـة منها مبـدأ مثل عدم التيقن (Uncertainty) مما قد يدل على فكرة وجود اختيار وأن مخلوقات الكون ليســت مسـيَّرة أو مجبرة، وهـو ما يتفق مع فكرة الدين للثواب والعقاب والحساب العادل.

ويـؤدي تحقيق تلك المعـادلات إلى مبادئ نعدُّها الآن خيـالًا علميًا مثل السفر عبر الزمن وحتى إلى الماضي!! أو إلى أفكار أخرى تذهب بنا إلى بعض النظريات الفلسفية الماضية مثل أن الكون كله ما هو إلا محض خيال لا حقيقة

فيه ... !! أو إلى فكرة الأكوان المتوازية أو فكرة وجود أحد عشر بعدًا للكون وأنه ليس رباعيّ الأبعاد (إذا أخذنا الزمن كبعد رابع حسب النسبية).

ولكن الملاحظ في اتجاه العلم في العقود الأخيرة أنه بدأ رحلته مبتعدًا عن مبدأ المادية المفرطة (Materialism) والوجودية (Existentialism) وأيضًا عن فكرة أن كل فعل في الكون من ذرات وكواكب وحتى الإنسان يُستطاع التنبؤ به بناء على معادلات رياضية وكيميائية فقط، وأنه لا وجود لما نطلق عليه (الوعي أو الروح وبالتالي الاختيار). بدأت هذه الأفكار تتحطم بعنف الواحدة تلو الأخرى بعد بدء أكثر العلماء بتقبل بعض النظريات التي سردناها منذ قليل وخاصة نظرية الكم والتي فتحت معادلاتها الرياضية الباب لقبول فكرة تأثير ما في الكون بعضه ببعض ليس بالمعنى الماديّ فقط ولكن بالمعنى الفكريّ للكلمة وأعني تأثر بعضه ببعض بناء على اختيارات وتفضيلات!

وكأن المادية الغابرة كانت تقول إن المادة هي الحقيقة الوحيدة في الكون، بدا لسان حال العلم الآن يقول: بل الوعي هو الحقيقة الوحيدة في الكون، وكأن العلم بدأ يأخذ بنظرية التوازن بين الروح والجسد ووسطيتها أو بفلسفة الـ (Vedanta)[1] في البوذية والهندوسية.

بل بدا لسان حال العالم يؤمن بعالم ما وراء الطبيعة بشكل علميّ ! ليس لأن العلم الآن ما زال قاصرًا عن رصد أو تفسير بعض التجارب التي سنبسطها بعد قليل، ولكن إثبات أن هناك عالمًا للغيب يؤثر في عالم الشهادة الذي نعيشه أو قل إن عالم المادة الذي نرصده بالحواس يتأثر بقوانين أخرى

(1) هي فلسفة هندوسية تعنى بإدراك حقيقة الواقع.

غـير قوانين الزمكان وقوانـين الكمّ أو قل إن عالم الملـك يتأثر بعالم الملكوت وبعالم الجبروت كما يصفها أهل الحقيقة والعارفون.

ونظـرًا لأن هـذا التأثير لا يخضع لقوانين ومنها النسـبية، فإن سرعة ذلك التأثير تحدث أسرع من سرعة الضوء، بل نستطيع القول إنها تحدث لحظيًا وكما أسلفنا أن ذلك التصور الجديد والنقلة العلمية التي نعيشها الآن (Paradigm Shift) ليست فقط على المستوى النظريّ، بل على المستوى التطبيقيّ أيضًا.

فطبيعة الكمّ بدأت مع شروقات القرن العشرين ونضجت في عام 1925 بتحقيق معادلات ميكانيكا الكم، ثم بدءًا من عام 1982 بدأت نتائج بعض التجارب المعملية تؤكد الاستدلالات السابقة.

بـدأ الأمر عندما بـدأ العالم الفرنسيّ ألان أسـبكت Alain Aspect وفريقه تجربته التي فتحت ذلك الباب.

فالـذرات الدقيقـة في عـالم الطبيعة الكميـة (الصغيرة جـدًّا) بدأت تظهر وكأنهـا موجات من الاحتـمالات، وظنَّ العلماء أنها موجـات مثل تلك التي عهدناها في الزمكان.

ولكن المشـكلة أن تلك الموجات الاحتمالية لم تكن تتمتع بنفس صفات الموجـات التـي نعرفهـا، وبالتـالي نظر إليهـا العلـماء على أنها موجـات ذات احتماليـة أو إمكانية (Probabilistic or potential waves) وأنها وراء الطبيعة بطريقة ما !

وظلـت هذه الفكـرة مبهمة لبعض الوقـت إلى أن جاء أسـبكت Aspect وفريقه ليؤكدوا أن هذه ليسـت نظرية فقط بل إنها عمليًّا ذرات الكون (التي

تتكوّن من تلك الذرات الكمية الدقيقة) والتي توجد علاقة تأثير وتأثر بينها خارج نطاق الزمكان (Space-Time).

والـذي حـدث في تجربته أنه وجد أن الذرة تبعـث حزمتين من الضوء أو اثنـين من الفوتونات ينطلقان في اتجاهين متضاديـن . وبيت القصيد هنا أنهما مهما بعُدا عن بعضهما البعض فإنهما يؤثران على نسقهما وحركتيهما دون تبادل أي إشـارات بينهـما، وأن هـذا التأثير والتأثـر يتم لحظيًـا (أي متخطيًا سرعة الضوء!).

وطبقًـا لإثباتـات أينشـتاين في نسـبيته أن «أى شيء» ينتقـل في الزمـكان بسرعـة قصـوى لا تتعـدى سرعة الضـوء، وبالتـالي أي تأثير يكـون «محليًا» بمعنـى يأخـذ «زمنًا معيّنًا» ليسـافر في الفضـاء. وهو ما يطلق عليـه فكرة الـ «محليـة» أو «Locality» وبالتـالي ذلـك التأثير المرصود يكون خـارج نطاق الـ «Locality» والزمكان، وبالتالي يتم في عالم ما وراء الطبيعة (Non-Local).

وبـما أن هنـاك دائمًا مقاومة للأفكار الجديدة، فـإن الرافضين لهذه الفكرة يذهبون لأحد الآراء الآتية:

1- إما أن وسائل الرصد لدينا الآن ليست كافية.

2- وإما أن سرعة تلك الفوتونات تأخذ في التسارع، وعندما تكسر حاجز الضوء ترجع إلى الماضي (طبقًا لقوانين النسبية العامة) وبالتالي تعوِّض الزمن المستغرق الذي أخذته الفوتونات إلى أن وصلت إلى حاجز سرعة الضوء، ونرصد نحن ذلك التأثير لحظيًا ولكنه في الحقيقة استغرق زمنًا متناقصًا - متباطئًا (كما شرحنا في عرضنا للنسبية العامة) إلى أن يكون

بالسالب ويعوّض الزمن الموجب الذي نستطيع رصده فتكون النتيجة استغراق زمن صفر ⟵ لحظيًا.

3- الرأي الآخر هو انحناء الفضاء نتيجة لانبعاث تلك الفوتونات، وبالتالي التأثير لا يحتاج إلى زمن أو سرعة انتقال لأن الزمن نفسه ينحني وبالتالي يؤثر (تأثيرًا متبادلًا في حزمتي الفوتونات).

ولكنَّ أيًا من الحلول الثلاثة المقدمة لا يقدم تبريرًا لسبب عدم إمكانيتنا توقع حركة أو سلوك الفوتونات أو لماذا تقوم بحركات تبدو لنا عشوائية أو اختيارية.

ولا يقدمون تبريرًا لسبب حدوث تلك الظاهرة المعروفة الآن بـ: التشابك الكميّ Quantum Phase Entanglement[1] وهي ظاهرة ترتبط فيها جسيمات متباعدة بشكل آنيٍّ أو لحظيٍّ!

مما يفتح الباب لتساؤل: هل يمكن حدوث أو تطوير تلك الظاهرة على المستوى الكبير الفضائيّ أم لا؟

وكأننا نقول إن الأشياء التي تخرج من شيءٍ واحد أو منبعثة من شيء واحد تؤثر في بعضها البعض تأثيرًا لحظيًا مهما ابتعدت، وهي فكرة قريبة من أسطورة الڤودو Voodoo القديمة!

---

(1) التشابك الكمّي (Quantum Entanglement) هو ظاهرة كَمّية ترتبط فيها الجسيمات الكميّة (مثل الفوتونات والإلكترونات والجزيئات) ببعضها، رغم وجود مسافات كبيرة تفصل بينها، مما يقود إلى ارتباطات في الخواص الفيزيائية المقيسة لهذه الجسيمات الكميّة، وتكون عملية القياس المجراة على جسيمات كمية محددة تؤثر آنيًا على جسيمات كمية أخرى متشابكة مع الأولى رغم تباعدها!

قام أيضًا العالم الإيرلندي جون ستيورت بل John Stewart Bell بتجربة مشابهة، وأثبت رياضيًّا أن ما يحدث هو تأثير حقيقيّ وليس ظاهريًّا.

والسؤال الذي يتبقى الآن: كيف نفسر تأثر كل ما هو «محليّ» في عالم الشهادة – الزمكان بما هو في عالم اللامحلي والعكس – أي ما هو في عالم الغيب؟!

مع أن فكرة كهذه ليست بمستغربة في ثقافة مثل ثقافة الدين الإسلامي؛ حيث نجد مجالًا مفتوحًا للتصديق بل للإيمان بملائكة يحفظون الناس أو يقاتلون معهم، وبالعكس أيضًا هم أنفسهم يتأثرون بأفعال البشر ويتأذون مما يتأذى منه البشر. على النقيض نرى أن أنصار المادية المحضة وكأنهم صُدموا بزجاج شفّاف أصروا دائمًا على نفي وجوده.

لا أحاول قول إن نظرية الكم أثبتت وجود ملائكة ، ولكن فتحت الباب بشكل علميّ لوجود عوالم وكائنات غيبية أصر دومًا الماديون على إنكارها، وليس هذا فقط بل فتحت الباب لنظرة أخرى للعالم قوامها «الوعي» وليس المادة ! وأن وعينا يستطيع تغيير الحقائق !

فلو كان العقل نفسه مادة مكونة من جسيمات كمية دقيقة لانطبقت عليه قوانين الكمّ أيضًا، ولعنى ذلك أنه عبارة عن موجات احتمالية لا نستطيع التنبؤ تمامًا بأفعالها (Unpredictable)، أي بعبارة أخرى هناك صورة من الاختيار العقلي.

ومن ناحية أخرى، قد يرى البعض أن عدم إمكانية التنبؤ بسلوك مثل تلك الجسيمات لا يعني بالضرورة أنها مختارة، وأن ذلك قد يعني أنها

عشـوائية الحركة دون اختيار. ولكن على الأقل لحين البتِّ في أي الاحتمالين هو الأقرب للصواب، فإن تلك الظاهرة تدل على عدم الجبرية.

ولكن ما الذي يحـوِّل الموجات الاحتمالية أو الممكنة (Potential Waves) إلى أفعـال حقيقيـة ؟! لا يمكـن أن يكـون عقلنا المـاديّ فقـط وإلا وقعنا في مفارقـة (Paradox) وهي تسـمى (Quantum Measurement paradox)، إذ كيف يؤثر ما هو احتماليٌّ (ممكن - جائز) فيما هو احتماليٌّ؟!

والحل الوحيد لتلك الإشكالية هو وجود شيء اسمه «الوعي» أو الضمير أو الروح أو القلب، سمِّه ما شئت، خارج عن نطاق الزمكان الاحتمالي يؤثر فيه ليخرجه إلى الطبيعة المحسوسة في صورة أفعال حقيقية!

وبالتالي يبقى الوعي هو اللبنة الأساسـية للعالم المحسـوس وليس المادة ! وبالتالي يعني ذلك وجود وعي أزلي قادر على خلق وعي المخلوقات، وهو ما نسميه الله الذي كل يوم هو في شأن من شئون عباده يؤثر فيهم بعالم الجبروت من خلال عالم الملكوت (وكلاهما غيب) إلى أن يظهر آثاره في عالم الملك وهو عالم الشهادة.

أو قل كما يقول علماء التصوف الإسـلامي: من الأحدية إلى الواحدية أو قل من عالم جمع الجمع إلى عالم الجمع.

وصدق من قال: لولا الأمداد لفنينا ولانتفت حزمة الفوتونات، ولانتفت الحقيقة المنعكسة في قلب الإنسان الذي هو مجلى ظهور الأشياء.

وقد يكون ذلك ما حاول ديكارت Descartes[1] الفيلسوف أن يرمي إليه بجملته المشهورة التي أثبت لنفسه بها وجود الخالق: «أنا أفكر إذًا أنا موجود» وهو الخطوة الأولى «لوعي النفس» التي تسمح بها نظرية الكم بطريقة أو بأخرى.

وكما يقول أهل الصوفية إن معرفة النفس هي أول الطريق لمعرفة الله وكأن لسان حالهم يقول: لا يوجد شيء إلا الله، ليس أن الخالق يحل في الكون ولكن بمعنى أن الكون كله إلى فناء بل هو فناء إلا الله القادر على التأثير على «الأغيار» لتخرج أفعال حقيقية في عالم الشهود.

وهناك اتجاه ينمو الآن، وهو ما يسمى الـ (Secret) أو «السر» خلاصته أنه قانون فكرته مستمرة مما أسلفنا من نظرية الكم وهو ما أسموه «قانون التجاذب» أو (Attraction) وخلاصته أن وعي الإنسان قادر على تحقيق الأشياء الممكنة وهي شبيهة ولكن ليست بمطابقة لفكرة التفكير التفاؤلي أو التشاؤمي أو فكرة أن تحقق أنت تنبؤاتك الشخصية (Self

(1) رينيه ديكارت (31 مارس 1596 – 11 فبراير 1650)، فيلسوف، ورياضي، وفيزيائي فرنسي، يلقب بـ«أبو الفلسفة الحديثة»، وكثير من الأطروحات الفلسفية الغربية التي جاءت بعده، هي انعكاسات لأطروحاته، والتي ما زالت تدرس حتى اليوم، خصوصًا كتاب (تأملات في الفلسفة الأولى1641م) الذي ما زال يشكل النص القياسي لمعظم كليات الفلسفة. كما أن لديكارت تأثيرًا واضحًا في علم الرياضيات، فقد اخترع نظاما رياضيًّا سمي باسمه وهو (نظام الإحداثيات الديكارتية)، الذي شكل النواة الأولى لـ(الهندسة التحليلية)، فكان بذلك من الشخصيات الرئيسة في تاريخ الثورة العلمية. وديكارت هو الشخصية الرئيسة لمذهب العقلانية في القرن17م، كما كان ضليعًا في علم الرياضيات، فضلا عن الفلسفة، وأسهم إسهامًا كبيرًا في هذه العلوم، وديكارت هو صاحب المقولة الشهيرة: «أنا أفكر، إذن أنا موجود». يعتقد ديكارت أن الله يشبه العقل من حيث إن الله والعقل يفكران ولكن ليس لهما وجود مادي أو جسمي، إلا أن الله يختلف عن العقل بأنه غير محدود، وأنه لا يعتمد في وجوده على خالق آخر، ويقول: «إنني أدرك بجلاء ووضوح وجود إله قدير وخير لدرجة لا حدود لها».

(Fulfilling Prophecy) «تفاءلوا بالخير تجدوه» بل تذهب فكرة الـ «السر» إلى أنها علميًّا الأفكار التي تمر بوعي الإنسان تجذب وتشد إليها «ما يمكن تحقيقه» حتى يتحقق حسب قوة وتكرار التفكير فيه !!.

وبالتالي أشياء مثل «توارد الأفكار (Telepathy) أو الوعي عن مسافة (Clairvoyance) (لفظ فرنسي يعني الرؤية الواضحة) أو الوعي المستقبلي (Precognition) أو التأثير المتبادل بين العقل والمادة (psychokinesis) أو التخاطب التبادلي بين المخلوقات المختلفة (سيدنا سليمان مثّلا مع النمل والهدهد)- أصبحت ليست فقط ممكنة، بل لا يجوز نفيها!!

ولكن ماذا تعني هذه الفكرة؟ أعني فكرة وعي الكون وموجوداته؟ يعني باختصار الآتي:

1- عدم إنكار الاختيار بين البدائل المختلفة.

2- أن تطور مخلوقات الكون - أينما وجدت - فهي تتطور بناء على وعي، وأن هذا الوعي ليس مبتغى ومنتهى تطور المخلوقات كما يعتقد بعض الداروينيين، بل هو في الواقع سبب ذلك التطور، وهذا سنتكلم عنه أكثر عندما نتناول نظرية التطور والنشوء والارتقاء لاحقًا إن شاء الله.

3- ذلك الوعي الكوني لا يعني حلول خالق الكون في الكون كما تذهب بعض عقائد شرق آسيا (الهندوسية أو البوذية وغيرها) أو بعض العلماء المعاصرين (انظر Elisabet Sahtouris) لأنه حتى المخلوقات الواعية لا تخلق نفسها بل يخلقها خالق عاقل وذو وعي أيضًا.

4- الإيمان بالغيب لم يعد ضربًا من الخيال أو الأساطير.

5- تذكر المخلوقات وذرات الكون وشهادتها علينا ليس ضربًا من الخيال ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ (سورة الزلزلة: 4).

6- إمكانية تكلم أو تخاطب ذرات الكون ومخلوقاته، وتبعًا لذلك إمكانية فهم بعض الخواص لها مثل نبي الله سليمان عليه السلام.

وبالنسبة للنقطتين الأخيرتين ذهب بعض العلماء مثل العالم الفرنسي جاك بينفينسيت (Jacques Benveniste) إلى أن ذرات الماء تتذكر المحلولات المذابة فيها فهي مثل الأسطوانة أو الـ CD لا تخرج صوتًا بذاتها ولكنها تسجل وتتذكر الأصوات!

والآن لا مناص لنا إلا أن نبدأ الحديث عن نظرية داروين للتطور وهل تم ذلك التطور عشوائيًا أم هل هو عن وعي بثه الخالق في موجودات الكون؟ ثم ما مدى صحة النظرية وماذا تثبت أو تنفي لو صحت؟

ولكن قبل الخوض في نظرية التطور والانتخاب الطبيعي، يتبقى أن نقول شيئًا عن نظرية الانفجار الكبير وهو أن بعض العلماء يقومون بمحاكاة لتلك النظرية عن طريق (The European Organization for Nuclear Research[1]

(1) لقد تحققت إنجازات هامة عديدة في فيزياء الجسيمات خلال التجارب في سيرن وهي تشمل:

1973: اكتشاف التيارات المحايدة في غرفة فقاعة جراجيلر.

1983: اكتشاف بوزونات W وZ في التجارب UA_1 وUA_2.

1995: إنشاء أول ذرات هيدروجين مضادة في التجربة PS210.

2010: عزل 38 ذرة من الهيدروجين المضاد.

2011: الحفاظ على الهيدروجين المضاد لأكثر من 15 دقيقة

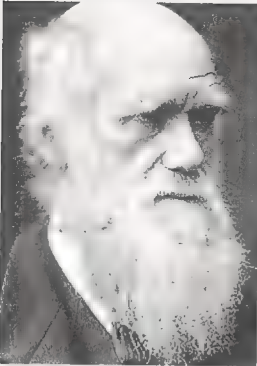
2012: اكتشاف البوزون (يسميه البعض جسيم الإله أو God's Particle) بكتلة حوالي 125 GeV متوافقة ومثبتة لنظرية الهيجز بوزون Higgs Boson وهي النظرية التي تحاول تفسير سر اكتساب الجسيمات الضئيلة لكتلتها عن طريق اصطدامها مع الـ Higgs Field وهذا الجسيم اقترح وجوده العالم بيتر بوزون سنة 1964.

[CERN]) في عمـق مائـة متر تحـت الأرض عن طريق نفق يمـر تحت الحدود الواقعة بين فرنسا وسويسرا.

وقد توقفت التجربة في أواخر عام 2008 على أن تستأنف في عام 2009 والطريـف كان تخـوف البعـض مـن خلق ثقوب سـوداء تبتلـع الأرض وما عليها!

والفكرة هي قذف حزمتين من البروتونات (Protons) عبر ذلك النفق ذي الـ 27 kms حتى يصطدما معًا بعنف محاكيين ما يتصور العلماء أنه حدث بعد لحظات من الانفجار الكبير.

نظريـــة التـطـــور لــــداروين


تشارلز داروين

قبـل أن ينشر تشـارلز داروين[1] كتابه المثير للجـدل «في أصل الأنواع» في نوفمبر مـن عـام 1859 (On the Origin of Species) كانـت فكـرة التطـور الإحيائـي موجـودة منـذ العهـد الإغريقـي مثـل لوكريتيـوس (Lucretius) مـرورًا ببعـض المفكرين العرب مثل الجاحظ بل إن بعض المصـادر تعـود بأصـل الفكرة إلى أرسـطو وصولًا إلى إراسـموس داروين جد شارلز داروين. ذهب جد داروين لفكرة أكثر بساطة وأكثر عمومية تخلص إلى أصل واحد للفصائل ذوي الدم الحار تشارك به جميع الكائنات.

فقـد ظهر كتـاب «في أصـل الأنـواع» في 24 نوفمـبر عام 1859 بسـعر 15 شـيلين، وعـلى الرغم من الضجة التي أحدثهـا الكتاب يجد الباحث بعد التمحيص، أن تناول الكتاب من قِبل بعض العلماء هو الذي أثار تلك الضجة أكثر من الكتاب نفسـه بل إن اصطدامه بالدين وتحديدًا بالكنيسة كان لذلك

---

(1) تشارلز روبرت داروين (بالإنكليزية: Charles Robert Darwin) عالم طبيعة بريطاني ولد في إنجلترا في 12 فبراير 1809 في شرو سبوري لعائلة إنجليزية علمية وتوفي في 19 أبريل 1882 عالم تاريخ طبيعي بريطاني. والده هو الدكتور روبرت وارنج داروين، وكان جده «إراسموس داروين» عالما ومؤلفًا بدوره، اكتسب داروين شهرته كواضع لنظرية التطور والتي تنص على أن كل المخلوقات الحية على مر الزمان تنحدر من أسلاف مشتركة ،[1] وقام باقتراح نظرية تتضمن أن هذه الأنماط المتفرعة من عملية التطور ناتجة لعملية وصفها بالانتقاء (الانتخاب) الطبيعي، وكذلك الصراع من أجل البقاء له نفس تأثير الاختيار الصناعي المساهم في التكاثر الانتقائي للكائنات الحية.

السبب وأعني توظيف فكرة الكتاب لأهداف سياسية ودينية واجتماعية محددة. والغريب أن لفظ: الخلق - الخالق - خلق تظهر في النسخة الأولى للكتاب 104 مرة !

بل إن شارلز داروين نفسه يقول بوجود «الخالق»: «الذي أوجد القوى المتعددة والتي أنشأها الخالق. ومع دوران هذا الكوكب بفعل القانون الثابت للجاذبية من البسيط جدًّا كبداية إلى أشكال لا نهائية من الجمال والإبداع ظهرت وما زالت تظهر». -انتهى كلام داروين.

والإشارة إلى الله في كلام داروين واضحة وبعض ذلك ما أسلفناه من ذكر مشتقات الخلق في النسخة الأولى من الكتاب بشكل إيجابي.

أما كلمة «التطور» (Evolution) فقد أوردها داروين في طبعة الكتاب رقم5 أواخر عام 1871 ردًّا على كتاب جورج جاكسون ميفارت George Mivart والذي أسماه On the Genesis of Species والذي كان يرد فيه على نظرية داروين وحاول في كتابه هذا التوفيق بين المسيحية والتطور والذي اعتبر أقوى نقدٍ لداروين في حياته.

والنظرية ترتكن إلى أركان أساسية بناء على استنتاجات ومشاهدات محددة:

1- كل الكائنات ذات خصوبة كافية بأن تحدث زيادة في عددها- فصيلتها لو بقي كل أطفالها.

2- المشاهد أن أعداد تلك الفصائل تبقى تقريبًا مماثلة على مر الزمن مع وجود تغيرات طفيفة.

3- الموارد مثل الطعام محدودة وتعتبر ثابتة على مر الزمن تقريبًا.

4- لابد إذًا أن يظهر صراعٌ من أجل البقاء.
5- لا يوجد كائنان متشابهان-متطابقان في الفصائل التي تتكاثر جنسيًّا.
6- هذه الاختلافات بين الكائنات تؤثر في إمكانية بقاء كائن معين في بيئة مغلقة معينة.
7- أغلب هذه الاختلافات هي اختلافات موروثة.
8- الكائنات الأقل صلاحيةً للتعايش مع تلك البيئة أقل فرصةً للبقاء وللتكاثر.
9- الكائنات الباقية ستورث صفاتها الصالحة لذرياتها.
10- هذه الميكانيكية البطيئة تولد كائنات تستطيع التعايش مع البيئة مع مرور الزمن، وهذه الصفات الموروثة تتضاعف مع مرور أزمنة سحيقة إلى أن تُظهر فصائل جديدة تمامًا.

هـذه هـي ركائز النظرية بشـكل مبسـط وقبل أن نسـعى لتناولهـا، دعونا نتكلم أولًا عن نقطة تثار دومًا خاصة عند تناول نظرية التطور وأعني الفرق بين النظرية العلمية والحقيقة العلمية وفي أي منها تندرج تلك النظرية.

يحاول البعض (منهم بعـض العلماء) القول بأن الحقيقة والنظرية العلمية همـا شيء واحـد وأن النظريـة إن ثبتـت، فهـي في الواقـع حقيقـةٌ علمية ولا فرق بينهما البتة. أما البعض الآخر فيشـكك في هذا الرأي ويرى أن به لبسًـا ومغالطة.

والـرأي الذي أطمئن له هو أن القضية هـي قضية درجة اليقين في الشيء (أو عـدم اليقـين) مـن ناحية وقابلية هـدم النظريـة أو لا من ناحيـة أخرى، ودعونا نضرب أمثلة على ذلك ليستبين الرأي أكثر.

- **الموت مثلًا:** حقيقة علمية ذات يقين عالٍ جدًّا فالكل يؤمن بحتمية موت الإنسان وعلى مدار تاريخ الإنسان لم تُنفَ هذه الحقيقة ولم تهدم. فنستطيع القول مطمئنين إذًا إن الموتَ حقيقةٌ علمية تكاد تصل درجة يقينها إلى مائة في المائة.
- **كروية الأرض:** حقيقة علمية لم يكن مسلَّمًا بها منذ الأزل والآن استطاع الإنسان المعاصر أن يدور حولها وأن يصورها بالأقمار الصناعية فأصبحت حقيقة علمية على درجة عالية من اليقين (قد تكون أقل قليلًا من ١٠٠٪ لاعتبارات احتمالات الخداع البصري .... إلخ)
- **دوران الأرض حول الشمس:** حقيقة علمية أيضًا ذات درجة يقين عالية ولكن أقل في نظري من سابقتها بناء على نظرية نسبية الحركة وبالتالي نسبة الأجسام إلى بعضها البعض، فقد يقول قائلٌ بأن دوران الأرض حول الشمس نسبي بالنسبة للمشاهد لأن مشاهدًا آخر قد يرى أن الشمس هي التي تدور حول الأرض كما كان يُعتقد قبل كوبرنيكس وجاليليو ... !
- نستطيع تطبيق درجة اليقين لنظريات أخرى مثل قوانين الجاذبية لنيوتن، والتي أثبت أينشتين عدم صلاحية هذه القوانين في كل وقت أو مع كل سرعة وأحدث فيها تعديلات توافق نظريته..

الجدير بالذكر أن درجة اليقين في النظريات أو الحقائق العلمية ليست مقصورة على الأشياء المحسوسة أو المستطاع قياسها فحسب لكنها أيضًا قد تطبق على الأشياء المجردة (أو المتخيلة المظنونة) فمثلًا نستطيع القول على سبيل اليقين إن المثلث الثلاثيني الستيني نسبة أضلاعه 5 : 4 : 3 أو إن المثلث ذا الزاويتين الخمسين والستين درجة مثلًا يحتوي على سبيل اليقين-

على زاوية أخرى بقيمة سبعين درجة ... وهكذا، وهذا - وإن كان على سبيل الظن - لكنه الظن اليقيني التعريفي ...

فالظن درجاتٌ أعلاها اليقين، ولعل ذلك سبب من أسباب الاستخدام الدقيق ذي الأمانة العلمية لاستخدام لفظ: «ظن» في القرآن الكريم للمؤمنين وليس بمعنى الشك فقط، وهذا الذي يجعل المؤمن يظن ظنًّا يقينيًّا مجردًا في وجود الله مثلًا ... فلو كان أنصار الرأي الأول (الذين يذهبون إلى أن النظرية العلمية والحقيقة العلمية شيء واحد)، فإن نظرية التطور الداروينية مثلًا تكون بالنسبة إليهم حقيقة علمية مثل حقيقة الموت، وهنا قطعًا تكمن المغالطة.

أما أن يقصدوا أنها ذات درجة يقين تقارب درجة يقين من كان يصدق في قوانين نيوتن أو من كان يصدق بأن الشمس تدور حول الأرض فهذا قابل للنقاش وللمحاورة.

ناهيك أن الآثار (الاستنتاجات المنطقية) المستنتجة من نظرية معينة لا تكون بالضرورة بنفس درجة اليقين في النظرية نفسها بل في أغلب الظن تكون درجة اليقين في الأمور المستنبطة في النظرية أقل من درجة اليقين في النظرية نفسها.

فمثلًا لو قلنا إن درجة اليقين في أن الأرض (ككوكب) يدور حول الشمس (كنجم) تساوي مثلًا 10 / 8، فلا يعني ذلك على سبيل اليقين أن كوكبًا ما، في مجرة ما، في كون ما يجب أن يدور حول نجم ما بنفس درجة اليقين. بل الأمانة العلمية تحتم أن تكون درجة اليقين تلك أقل إلى أن تتوافر جميع الأدلة المطبقة على المثال الثاني.

وبالمثـل، فلو أن ذبابة الفاكهـة تتغير من جيل إلى جيل بدرجة يقين معينة (مثلًا 70٪) لا يعني ذلك أن ذبابة فاكهة ما في جيل ما، يجب أن تتغير بنفس درجة اليقين (بالطبع يزداد تقارب الدرجتين لو طُبق المثال على عدد أكبر من ذباب الفاكهة)، ناهيك عن درجة اليقين في أن إنسانًا ما في جيل ما تطور من شبيه لقردٍ ما في جيلٍ ما بنفس درجة اليقين !!

الذي أريد قوله إن افتراضًا (استنتاجًا) كبيرًا نسبيًّا مثل أن الإنسان ينحدر من نفس سلالة القرود ،لا يحتوي – في نظري – على درجة يقين كافية لتنقله مـن دائرة الافـتراض إلى حتى دائرة النظرية الصحيحـة ... ناهيك عن دائرة اليقين.

بـل والأكثـر من ذلك ، افتراض عـدم وجود إله خالق بناءً على اسـتنتاج ذي درجة يقينية منخفضة ألا وهو انحدار الإنسان والقرد من نفس السلالةَ (الجد).

وإلى أن يثبـت العكـس، يبقى هذا مجرد افتراضٍ تخيـلي لا يرقى إلى درجة اليقين.

الشيء الآخر الجدير ذكره عند تناولنا لتلك النظرية هو فكرة الصدفة.

الكثـيرون مـن المعترضين عـلى النظرية يثيرون أن النظريـة تذهب إلى أن الكون نشأ بالصدفة وليس بأمرٍ إلهي، والحقيقة أن النظرية –وإن بدت كذلك – فإنها لا تقول بأن الصدفة هي منشأ الكون أو أنها سبب التطور العشوائي للكائنـات بل هـي تذهب أيضًـا إلى الاعتراف بالتصميم الذكـي الموجود في الكـون ولكـن لا ترجعه إلى إله خبـير خالق بارئ مصـور ولكنها ترجعه إلى التطور الطبيعي وهذا ما نعارضـه نحن للأسـباب السالف ذكرها من فكرة

الـ Entropy وأيضًا لاستحالة حصول كل تلك الاحتمالات Probabilities لتحقق ذلك في زمن الكون المقدر بحوالي 13.7 مليون سنة فقط أو أكثر قليلًا.

بالإضافة إلى فكرة استحالة تحقق نتيجة التصميم الذكي كما نراه في المخلوقات (Intelligent Design) أو ضآلة الاحتمالات لحدوث ذلك.

يذهب الفيلسوف ألفين بلانتيجا Alvin Plantiga إلى رأي يشابه رأي ديكارت في إثبات وجوده «بأنه يفكر إذًا فهو موجود» !

فيذهب بلانتيجا إلى أن نظرية التطور لا تستطيع تفسير ظهور الوعي الإنساني الموضوعي (Reliable Reasoning Faculties) ويقول إنه لو كان الخالق ذا وجود، فإن احتمالية خلقه لإنسان مفكر ذي وعي موضوعي تماثل احتمالية ظهور إنسان (أو كائنات) بلا وعي أو بلا تفكير موضوعي حسب نظرية التطور؛ وبالتالى لو كانت نظرية التطور صحيحة، يكون تفكيرنا كله لا موضوعيًّا؛ وبالتالي تكون نظرية وافتراضات داروين غير موضوعية بالتبعية!!

و لذلك، هو لا ينتقد نظرية التطور في حد ذاتها ولكنه ينتقد نظرة من ينظر إلى آلية التطور والنشوء والارتقاء بأنها دون تدخل إلهي[1].

اعتراض آخر يقول به العالم مايكل بيه Michael Behe بأن نظرية التطور الداروينية بل والحديثة (التي أدخلت عليها بعض التعديلات بعد ظهور

(1)10http://www.google.com.eg/books?hl=ar&lr=&id=XQqBP5trqClC&oi=fnd&pg=PA301&dq=Reliable+Reasoning+Faculties+plantiga&ots=WKnGgTPfBC&sig=QM9iQpKPLd76mLFHFVoLo8566k0&redir_esc=y#v=onepage&q=Reliable%20Reasoning%20Faculties%20plantiga&f=false

فكرة الجينات في القرن العشرين)، لا تستطيع تفسير بعض الكائنات المعقدة خاصة في الميكروبيولوجي وإن كان لا يوافقه في الرأي كل علماء الأحياء والبيولوجيون.

وأيضًا، تظل النظرية عاجزة عن تفسير أشياء مثل الوعي، حرية الاختيار، الغرائز، العواطف، الموسيقى، اللغة، الدين، وكما أسلفنا الإيثار Altruism وهو دفاع بعض الكائنات عن بني عشيرتها أو حتى عن غيرها من الفصائل معرضة حياتها للخطر (مثل الدرافيل المنقذة للإنسان مثلًا) ضاربة بذلك بفكرة الصراع من أجل البقاء عرض الحائط أو عرض شاطئ البحر !

اعتراض آخر يواجهه أنصار النظرية وهو وجود فجوات ملحوظة أو عدم تواصل السجل الحفري عبر الملاحظات منذ بدايات الحفريات (من 3.5 بليون سنة) حتى يومنا هذا ويرى أنصار الداروينية الجدد (Neo-Darwinism) مثل ستيفن جاي جولد Steven Gay Gold من جامعة هارفارد أن الانتخاب الطبيعي لا يحدث بشكل بطيء تدريجي عكس ما كان يظن داروين نفسه بل يرى أن هذا الانتخاب الطبيعي يحدث بـ «توازنات محددة فجائية» (Punctuated equilibrium) وهو يقضي بأن خطوط النسب تظل في حالة ثبات أو توازن لفترات زمنية طويلة ثم يحدث النشوء في صورة طفرات أو انفجارات فجائية نسبيًا وبالتالي وجود هذه الثغرات في الحفريات يعكس الطبيعة الحقيقية للنشوء والارتقاء الطبيعي، وفي الواقع إن السؤال عما إذا كان النشوء الشكلي في الحفريات منقطعًا أم تدريجيًا لا يزال محل جدل

كبير ونتيجة لعدم اكتمال السجل الحفري فليس من المتوقع حسم هذا الأمر في المستقبل القريب[1].

والسؤال الذي ما زال يطرح نفسه بقوة في الحالتين، هو كيفية حدوث تلك الطفرات إن وجدت ولماذا هي دائمًا مخالفة لقانون الـ Entropy – لماذا هي طفرات تقدمية فلا نرى حصانًا أصبح من خلال طفرة في زمن ما قد تحول إلى سمكة مثلًا أو إنسانًا تحول إلى شبيه قرد؟! على الرغم من أن السمكة وشبيه القرد لهما أفضلية وفرصة أكبر للبقاء أكثر من بعض الحشرات حسب النظرية نفسها ونظائرهما موجودة حتى الآن!

تبقى نقطة أخرى قد نكون أشرنا إليها وهي أن النظرية (أعني التطور) لا تفسر نشأة الحياة على الأرض ولكنها تحاول تفسير تطور تلك النشأة إلى يومنا هذا.

وبما أننا في هذا الكتاب بصدد التحدث عن هذا الكون ونشأة الحياة فيه، تبقى تفاصيل النظرية وإن تشعبت وتعقدت غير وطيدة الصلة بإثبات أو نفي وجود خالق مدبر لهذا الكون وللحياة فيه، وهي في رأيي إن دلت على شيء- في حالة ثبوتها- فهي تدل على وجود نظام محكم استطاع المحافظة على الحياة وتطورها منذ نشأتها منذ بلايين السنين حتى اليوم وهي بذلك تميل أكثر إلى الإشارة إلى مدبر حكيم وراء هذا الكون العجيب!

الجدير بالذكر أن أنصار النظرية الفرضية يعاملونها وكأنها عقيدة وأيديولوجية فلم تعد نظرية كغيرها قابلة للنقض أو التصديق وهذا قد

---

(1) مثل التطور الفجائي بين النبات والحيوان وبين اللافقاريات والفقاريات وبين الحشرات والطيور وهكذا.

يكون السبب في تورط بعض أنصارها في خيانة أمانتهم العلمية في عمليات تزوير مشينة (أو تصديق غير علمي) مثل عملية تزوير «إنسان بلت داون» (Piltdown Man) وإنسان جاوة (Java Man) وإنسان نبراسكا (Nebraska Man).

مما يستخدمه أنصار النظرية أيضًا لتوطيد نظريتهم قولهم بوجود أعضاء في جسم الإنسان لا فائدة لها وما هي إلا بقايا أعضاء أثرية كانت توجد في السلالة الحيوانية للإنسان مثل الفقرات العصعصية التي كانت – في قولهم – منبتًا للذيل الحيواني مثلًا...

والحقيقة أن هذا الرأى لا يفيد إلا أن يبين غرور الإنسان وجهله ففي بدايات القرن العشرين صرح مثل هؤلاء بوجود 180 عضوًا في الجسم الإنساني منها الغدة العصرية (Thymus Gland) والغدة الصنوبرية (Pineal Gland) واللوزتان والزائدة الدودية والفقرات العصعصية وغيرها ليست سوى أعضاء أثرية لا فائدة منها للإنسان وإن كانت مفيدة في السابق لأسلاف الإنسان من أشباه الحيوانات، ولكن لسوء حظ هؤلاء ومع تقدم العلم فقد تقلص هذا العدد واقترب علميًّا إلى الصفر حيث تم اكتشاف وظائف – بعضها مرحليًّا – لهذه الأعضاء، وعلى سبيل المثال لا الحصر، فالغدة العصرية واللوزتان لهما وظائفهما في الدفاع ضد الأمراض وكذلك الزائدة الدودية، أما الفقرات العصعصية فهى معقدٌ للعضلات الحوضية ويضاف إلى ذلك أن باستئصالها لا يستطيع الإنسان الجلوس بشكل مريح، ومع أن نظرية التطور تذهب إلى تأقلم تلك الأعضاء مع بيئتها الجديدة ومع نوعها الجديد (الإنسان في هذه الحالة)، فأكثر ما يقال إن الاستدلال بها في هذه الحالة لا ينفي حدوث التطور ولكنه في أحسن الأحوال لا يثبته أيضًا.

أحد الأدلة التي يستند إليها أنصار التطور هي أدلة علم الأجنة وهذه النقطة تنقسم إلى شقين: أولهما: نظرية التلخيص (Recapitulation Theory) حيث لوحظ تشابه المراحل الجنينية لأنواع عديدة من الحيوانات مما حدا ببعض علماء الأحياء إلى الاعتقاد بأن في الإمكان دراسة تطور أي نوع من الحيوان من خلال المراحل الجنينية له، وأن أي حيوان - ومن ضمنه الإنسان - يلخص تاريخ تطوره في مراحله الجنينية .. ولكن سرعان ما تبين عدم دقة هذه النظرية وقد بلغ الأمر إلى الشك والادعاء بقيام أحد كبار علماء التطور - وهو العالم الألماني في إيرنست هيجل بتزييف صور الأجنة البشرية وذلك بعمل رتوش لها لكي تتطابق مع النظرية !!

الشق الثاني هو قانون التكون الحياتي (Biogenetic Law) وهو فرضية قريبة من سابقتها ملخصها أن المراحل الجينية لدى الإنسان مثلًا لا تشير إلى المراحل التطورية لنوع ذلك الحيوان بل تشير فقط إلى المراحل الجينية لأسلافه. فالمراحل الجينية للإنسان مثلًا تشير إلى المراحل الجينية للسمكة لا للسمكة نفسها ومراحل جينية أخرى تشير إلى المراحل الجينية للزواحف لا للزواحف نفسها ... وهكذا..

ومن أمثلة ذلك ما أطلق عليه الجيوب والشقوق الخيشومية (Gill slits) إذ إن أفراد هذه الجماعات مثل الزواحف والطيور لا تستخدم الخياشيم في تنفسها وعليه فيستنتج أنها ورثتها من أسلافها مائية المعيشة مثل الأسماك.

ويمكن الرد على ذلك بأن الجنين الإنساني يملك سلسلة من الخطوط والأخاديد في منطقة العنق تدعى الأكياس أو الجيوب البلعومية (pharyngeal arches) التي تشبه ظاهريًا سلسلة من الخطوط والأخاديد

في منطقة عنق السمكة والتي تنمو عندها بعد ذلك إلى خياشيم - بينما في الإنسان (والزواحف والطيور أيضًا) لا تنفتح هذه الخطوط إلى الحلق (لذا فهي ليست شقوقًا كما أنها لا تنمو وتتحول إلى خياشيم ولا إلى أي نسيج تنفسي. فإذا لم تكن بشقوق أو بخياشيم فكيف تدعى «شقوقًا خيشومية»! وهي في الحقيقة - وإن تشابهت - تتحول في الإنسان إلى غدد مختلفة وإلى الفك السفلي وإلى تراكيب في الأذن الداخلية...

وأريد أن أكرر هنا ما قاله أبي في الستينيات من القرن العشرين وهو يدرس في ألمانيا الشرقية إلى بعض أصدقائه المتفلسفة الماركسيين: «أنا إذ أجد تشابهًا بين المخلوقات فلا يذهب عقلي بالضرورة إلى أنهم جميعًا تطوروا من أصل واحد، بل قد يذهب عقلي وتفكيري المنطقي أن خالقهم واحد !!... فهل عندما أرى أن دوران الكواكب في مجرتنا حول الشمس بنفس كيفية دوران إلكترونات ذرة البقدونس فأقول بسذاجة: إذن لقد تطورت الشمس من البقدونس !! أم أقول إن هناك نظامًا واحدًا بديعًا يحكمه رب واحد بديع؟! ..

ونفس الشيء قد يقال على التشابه التشريحي بين المخلوقات فهل يكون تشابه ذراع الإنسان مع الساق الأمامية للحصان ومع جناح الخفاش دليلًا على تطورهم في خط زمني واحد وبالتالي دليلًا على تطورهم من بعض؟! أم إنها تشير إلى وحدة أسلوب الخالق في خلقه ؟ هل وجود العجلة في الدراجة وفي السيارة وفي الطائرة وفي القطار دليل على تطور الدراجة آليًا (من نفسها دون وعي) إلى السيارة ثم آليًا إلى الطائرة وهكذا ؟!!... أم إن وجودها (العجلة) إشارة إلى أن صانعها - وهو الإنسان - واحد ؟! أنا أدرك أن هذا التشبيه هو على سبيل المحاكاة فقط لأن الجهة فيه منفكة لأنه قد يقول قائل

إن الدراجـة والسـيارة والطائـرة لا تتكاثر بيولوجيًا مثـل الحصان والخفاش والإنسـان وبالتالي فإن وجه المقارنة غير سـليم ... وأنا أرى أن هذه سفسطة لا طائـل منها لأنـه مجرد مثال لتقريـب الصورة إلى الأذهان وليسـت مقارنة علميـة وهـي توضح للذهـن أن التشـابه لا يدل بالضرورة عـلى التطور لأن هذه الأشـياء المذكورة (الدراجة والطائرة والقطـار) لا تتطور باليقين (لأنها لا تتكاثر) وعلى الرغم من ذلك يوجد تشـابه بينهما وهو العجلة، فهذا المثال لا يـرد على وجود تطـور أم لا بين الكائنات (المتكاثـرة) ولكنه يرد على عدم حتمية التطور في حالة وجود تشابه !!

وعـلى المدعي بوجود هـذه الحتمية في الكائنات المتكاثـرة أن يأتي بالدليل والبينـة، وهو أيضًا إن دل على شيء فإنما يدل على أن أنصار النظرية يعترفون ضمنيًا بوجود عقـل مدبر يراقب أي تطور بين المخلوقات أينما وجدت وإلا من الذي أعطى إمكانية التكاثر لهذه الكائنات (التي تتشابه أصلًا في تكوينها مع مكونات «السيارة والدراجة والطائرة» من خلايا وكربون وفسـفور ... إلـخ) ولم يعطهـا لغيرهـا؟ ما الذي وهـب لهذه الكائنـات المتشـابهة إمكانية التكاثـر في الكائنات؟ حتى نصل إلى الجينات المسـئولة عنها وعن تشـابهها، فنجـد أن بعض هـذه الجينات مختلف تمامًـا في الحيوانـات وفي النباتات التي تملك التراكيب المتشابهة.

أي أن نظريـة التطـور الحديثـة التـي تعتقـد أن الجينات تطـورت خلال العصـور، ولكـن الأعضاء المرتبطـة بها لم تتغـير ولم تتغير وظائفهـا (كالعين مثلًا) إنما تقع في تناقضٍ واضح كما أنها تشـير إلى أن عملية التطور تتم بشكل مستقل عن الانتخاب الطبيعي.

ومن الألغاز التي لم تحلها نظرية التطور أيضًا، الهيموجلوبين. حيث إنه يظهر بصورة متقطعة في اللافقاريات ولكن دون أي خطة تطورية مما دفع بعضهم إلى القول بأنه من الصعب مشاهدة أي خط انحدار عام يسير ملتويًا بمثل هذه الطريقة غير النظامية خلال مثل هذه الشُّعب الحيوانية المتعددة والمختلفة، مما دفع بعض العلماء إلى القول بأنه لو كان التطور صحيحًا وأن الأحياء جميعها تطورت من أحياء من ذوات الخلية الواحدة التي كانت تملك كروموزومًا واحدًا إلى كائنات متعددة الخلايا، أفلا يستوجب ذلك تزايدًا موازيًا في عدد الكروموزومات بنسبة التطور؟ أليس من الغريب ألا توجد هذه العلاقة أبدًا؟!

فالإنسان والبقرة والحمار والقرد والثعلب والكلب يتكونون من 46، 60، 62، 42، 34، 78 كروموزومًا على التوالي كما أن إحدى الحشرات اللياندرا (Lyandra) تحتوي على 300 كروموزوم[1]!

المشكلة الأخرى التي تواجه أنصار نظرية التطور هي مسألة الوقت! وهي تتلخص ببساطة في أن الوقت الذي كان متاحًا على وجه الأرض منذ نشأتها المقدر بحوالي 4.5 – 5 بليون سنة ليس كافيًا بالمرة لحدوث الطفرات وتكرارها من نوع إلى آخر.

والحقيقة أنه لم تثبت – لا عن طريق الحفريات ولا عن طريق المحاولات العديدة التي جرت في المختبرات – لم تثبت حالة واحدة من التحول من نوع إلى آخر ولكن مجرد تحولات ضمن النوع الواحد مثل تطور أنواع مختلفة من القطط مثلًا أو الغزلان أو الدببة وهكذا ... ويضاف إلى ذلك أن هذا التطور

(1) «الخلق بين العنكبوتية الداروينية والحقيقة القرآنية» (كريم حسنين).

المرصود كان في اتجاهات عشوائية وليس في اتجاه واحد. ويضاف إلى ذلك أنه ليس هناك مثال واحد تمت البرهنة فيه على حدوث طفرة مفيدة. بل إن الحصان[1] مثلًا كما يزعم التطوريون - قد احتاج إلى 45 مليون سنة وهو تطور ضمن النوع نفسه أي بقي الحصان حصانًا ولم يتبدل إلى نوع آخر. فهل يكفي عمر الكون - بل على الأحرى عمر الأرض - لكي تتطور الأحياء من أحياء ذوات خلية واحدة إلى هذه الملايين من الأنواع المعقدة الراقية التي تتطلب طفرات في اتجاه واحد - وهو اتجاه من الأدنى إلى الأرقى؟! (بالإضافة إلى التطورات العكسية المشاهدة من الأرقى إلى الأدنى كما أسلفنا في النقطة السابقة).

الجواب هو ببساطة: لا ! .. فتكرار حدوث ذلك في معظم الأحياء الراقية يتراوح ما بين واحد إلى مائة ألف وواحد إلى مليون لكل جين من جينات الوراثة في كل جيل، إذن فالكائن الواحد الذي يحتاج إلى ملايين الطفرات المفيدة والمتعاقبة لكي يتحول من نوع إلى آخر - من الزواحف إلى الطيور مثلًا - يحتاج إلى أضعاف عمر الأرض !!

والتجارب المعملية التي أجريت على 800 جيل متعاقب من ذباب الفاكهة لم تعط لنا إلا ذباب الفاكهة ولكن بشكل مشوه !!

وهذه مشكلة أخرى تواجههم هي مشكلة الكمال والتعقيد الموجود في بعض الأعضاء، والجدير بالذكر أن داروين نفسه يعترف بذلك في كتابه «أصل الأنواع» في فصلٍ عن الصعوبات في نظرية التطور بالتعديلات:

---

(1) تطور الحصان المحتمل من الهايراكوثيريوم Hyracotherium إلى الإيكوس Equus (الحصان المعاصر) حدث من خلال مئات السلالات على الأقل حسب علماء التطور.

فيقـول: «أن نفترض أن العين بكل تعقيداتها لتضبط نفسـها وعدسـتها طبقًا للمسـافات المختلفة وأيضًا لتسـتقبل كميـات مختلفة من الضـوء، لنفترض أن كل ذلـك تكون عن طريـق الانتخاب الطبيعي أعترف أن يكون ذلك من العبث والسخف في أعلى درجاته»!! انتهى كلامه.



وهذا يفند ما يذهب إليه بعض المتفلسفة المعاصرين من أمثال ريتشارد دوكينز الـذي حاول أن يهرب من هذه المعضلة بأن يقول بأن الانتخاب الطبيعي مختلف عـن الصدفـة وأن التطور التدريجي يسـمح بوجود مثل هـذه الأعضـاء المعقـدة شـبه الكاملة وهـو مـا سـماه (Climbing Mount Improbable) أو تسـلق جبال اللامحتمـل. فهـو يقر باسـتحالة وجود مثل هـذه الأعضاء والمخلوقـات المعقدة بالصدفة ولكنها قد تحدث - في رأيه - عن طريق صعود الجبل ذي القمة العالية وذي الزاويـة العموديـة ليس عن طريق هذه الزاوية ولكـن عن طريق الالتفاف حول الجبل والصعود إليه من الناحية الأخرى ذات الطريق الممهد وذات الزاوية المقاربة للصفر ولكن عن طريق زمن طويل !

ومـع كون التشـبيه مضحكا ولا علميًا ولكن يرد عليه ببسـاطة بنقطتين: **أولاهما:** أن الوقت غير كافٍ كما أسـلفنا، **وثانيتهما:** عدم تفسير سبب رغبة الخليـة ذات التطـور الأدنى التـي كانت تقبع منذ بلايين السـنين عند سـفح الجبـل - سـبب رغبتهـا في صعود ذلك الجبـل وكأنها ذات وعـي أو رؤية واضحة لما تريد أن تكون بعد بلايين السنين!

والخلاصة إن ذلك المثل وغيره من الأمثلة السفسـطائية التي وإن دلت عـلى شيء فإنـما تدل على وجـود وعي مـا قائم على هـذه المخلوقـات يُمَكِّنُ

المخلوقات الأدنى من أن تتسلق الجبل (الوهمي) بل الأدق أن تبني هي ذلك الجبل عن طريق خطة بليونية بدلًا من أن تحفر خندقًا تخيليًا أو واديًا في السلم التطوري!!

والغريب أنه بعد كل هذه الثغرات وغيرها، ما زال أنصار النظرية يدافعون عنها بشكل يثير التساؤل عن دوافع رغبتهم الحقيقية وأجندتهم الخفية لإرساء أيديولوجيات سياسية واقتصادية واجتماعية معينة (كما سنرى لاحقًا)، ناهيك عن محاولتهم هدم بعض الأفكار الدينية الموروثة التي لا تتعارض بالضرورة مع العقل أو العلم أو كليهما معًا أو حتى مع فكرة التطور إن صحت!

وأنا أرى أنها لا ترقى إلى أن تكون مجرد فرضية علمية Hypothesis وهي كلمة مشتقة في الأصل من اليونانية تعني «الإرساء من تحت» فهي نقطة البداية في شريط المعرفة قبل حتى النظرية العلمية وهي الأساس الذي تستند إليه النظرية ولكنها ليست النظرية نفسها التي نستطيع أن ندرسها في مناهجنا المدرسية والجامعية مثل نظريات وقوانين الطبيعة أو مثل قوانين الضوء والجاذبية مثلًا.

أما كلمة نظرية Theory فهي مشتقة أيضًا من اليونانية (Theorco) بمعنى أرى.

إذن فالنظرية لها علاقة بالإدراك والفهم والتجارب الحسية أما الفرضية فهي تعني إعطاء اقتراح ما لتفسير نتائج مستحصلة من بعض المشاهدات ذات العلاقة المنطقية. فالمرء لا بد أن يسأل عن تلك الفرضية هل اجتازت

جميع المراحل ونجحت في جميع التجارب فاكتسبت بذلك صفة النظرية أو القانون أم لا ؟

والمشكلات التي تواجه الفرضيات بصفة عامة وفرضية التطور بصفة خاصة هي ما يلي:

1- سوء الفهم أو الإيهام أو الدوجماتية (Dogmatism) وهو تقديم الفرضية ليست باعتبارها تفسيرًا لبعض المعطيات بل باعتبارها الحقيقة ذاتها.

2- التعميم. 3- المبالغة.

4- اللاحيادية أو عدم الموضوعية (Subjectivity).

5- استغلال الفرضية: وذلك عندما تستخدم - كما سنرى - لتطبيق أيديولوجيات سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية معينة كما استندت إليها العنصرية النازية أو الشيوعية الماركسية.

وهذا يجعلنا نصل إلى النقطة الأخيرة في بحثنا حول نظرية وفرضية التطور وهي: تبعات تلك النظرية **من الناحية الاجتماعية والسياسية:**

على الرغم من أن التبعات التي سيلي ذكرها ليست بالضرورة سببًا في القدح في نظرية النشوء والارتقاء، ولكن الجدير بالذكر أن نحاول أن نسرد كيفية محاولة توظيف البعض للعلم لخدمة آرائهم أو خططهم المسبقة.

- **البقاء للأصلح:** استخدمت هذه العبارة من قبل هربرت سبنسر[1] عام 1851 وهي تفسر وتحدد الاختلافات الموجودة بين الطبقات الاجتماعية من ناحية الفقر والغنى ومن ناحية النجاح.

---

(1) هربرت سبنسر (Herbert Spencer) هو فيلسوف بريطاني (27 إبريل 1820 - 8 ديسمبر 1903).=

ثم قام فرانسيس جالتون Francis Galton (ابن خال شارلز داروين) بصياغة فكرة شبيهة عرفت بالـ أيوجينيكس (Eugenics) تدعي أن الحضارة الإنسانية تقف حائلًا أمام الانتخاب الطبيعي (Natural Selection) بالسماح «للأقل صلاحية» (والأفقر والأقل نجاحًا وحظًّا في هذه الحياة) بالسماح لهم بالبقاء على حساب الأصلح!!

قام بعد ذلك بعض ممن تبنوا هذه الفكرة باقتراح وسائل حاسمة وراديكالية للحد من ذلك اللاتوازن المذموم (في رأيهم) ! مرورًا بأوائل القرن العشرين فعليًّا بتعقيم الفقراء حتى لا ينجبوا ووصلًا للجرائم العرقية والطبقية البشعة.

وعلى الرغم من عدم وجود ما يؤكد تأثير فكر الـ(Eugenics) في النازية، ولكن البعض[1] يربط بينهما ويذهبون إلى أن ذلك أدى أيضًا إلى الفكرة مع حلول النصف الثاني من القرن العشرين.

هذا من الناحية الاجتماعية، ولكن ماذا عن الناحية السياسية ؟

غالبية ذوي الفكر اليساري لا يعارضون الداروينية كما هي ولكنهم يعارضون بعض التفاسير المنبثقة منها. ومؤسسو الماركسية هم الاستثناء لذلك!

= مؤلف كتاب «الرجل ضد الدولة» الذي قدم فيه رؤية فلسفية متطرفة في ليبراليتها. كان سبنسر، وليس داروين، هو الذي أوجد مصطلح «البقاء للأصلح». رغم أن القول ينسب عادة لداروين. وقد أسهم سبنسر في ترسيخ مفهوم الارتقاء، وأعطى له أبعادا اجتماعية، فيما عرف لاحقا بـ «الداروينية الاجتماعية». وهكذا يعد سبنسر واحدًا من مؤسسي علم الاجتماع الحديث.

(1) مثل ريتشارد ويكارت Richard Weikart في كتابه: «من داروين إلى هتلر» (From Darwin to Hitler) والذي ذهب فيه إلى أن الداروينية وتبعًا لها الإيوجينية أدت بشكل ما إلى أفكار مثل «القتل الرحيم»، الإجهاض والإبادة العرقية.

فكارل ماركس، فريدريش إنجـل (Friedrich Engels)، وفلاديمير لينين (Vladimir Lenin) كلهـم تبنـوا نظريـة النشـوء والارتقـاء لداروين. الجدير بالذكـر أن ماركـس بعـث إلى دارويـن بنسـخة من كتابـه: الرأسـمالية (Das Kapital) ولكن داروين لم يرد عليه.

كما أسـلفنا ونحـن بصدد الحديث عن كارل ماركـس، كانت أعماله مبنية عـلى نظرة ماديـة للعالم تتحرك بناء على أسـباب ونتائج طبيعيـة لكل مناحي المجتمعـات الإنسـانية والاقتصاد، وهو مـا يتوافق مع بعـض أفكار وأعمال داروين التي تقتضي نظرة مادية مشـابهة للعـالم وبالتالي مؤيدة لنظرة ماركس بشكل أو بآخر.

وفي عـام 1861 كتـب كارل ماركـس لصديقـه فيردينانـد لاسـال (Ferdinand Lassalle) «أعمال داروين ذات أهمية قصوى وتتماشى مع فكرتي بإرساء قاعدة في العلوم الطبيعية تفسر تاريخ الصراع الطبقي....».

بعـض المعاصريـن - المجاهرين بعـدم إيمانهم بالله - من أمثال ريتشـارد داوكنز يسـتنتج من نظرية التطور أن فكرة البقاء للأصلح هي التي تؤدي إلى وجود تعاون بـين المخلوقات ويحاول أن يفسر فكرة الإيثار (Altruism) التي ذكرناهـا سـلفًا في كتابه (The Selfish Gene) الجـين الأناني «في فصله (Nice guys finish first) اللطفاء ينتهون أولًا.

وهـو تفسـير - على الرغم من سـذاجته - ولكننا سـنورده كما يلي: يقول عندما تضحي الأم في سـبيل حياة ثلاثة من صغارها مثلًا، جيناتها المتواجدة في أبنائهـا سـتبقى أيضًا وبمتوسـط مرة ونصف؛ لأن هنـاك 50٪ احتمال أن يوجد جين معين في الأم في الأبناء أيضًا !! ولذلك فإنها تضحي بنفسها!

وعلى الرغم من سذاجة التفسير فإنه لا يسعنا إلا أن نتساءل: كيف تعلمت الأم علم الأحياء وعلم الرياضيات وعلم الإحصاء وعلم الاحتمالات وكل هذا بشكل طبيعي محض؟ ويجعلنا نتساءل أيضًا ما الذي يجعل مخلوقًا مثل الدرفيل يساعد مخلوقًا آخر مثل الإنسان مثلًا على الرغم من عدم تواجد جيناتهما بنفس التعداد؟ أو ما الذي يجعل الأم تضحي بحياتها من أجل واحد فقط من أبنائها (وليس ثلاثة) مع أن الاحتمال في هذه الحالة مجرد 50٪ !!!!

ومع ازدياد تهافت القائلين بأن الأديان سببٌ مباشرٌ لازدياد نسبة القتل على مدار التاريخ، نريد أن نوضح ما يلي:

عدد الذين قتلوا في المائة عام الماضية تحت راية الشيوعية والسلطات الملحدة يتراوح ما بين 40 إلى 259 مليون نفس إنسانية! وأن الشيوعية وحدها تسببت في قتل حوالي 110286000 إنسان ما بين 1917 إلى 1987 ! (110 ملايين)

يقول ألكسندر سوليز ينستاين (Aleksandra Solzh Enstyn) الحائز على جائزة نوبل عندما سئل عن المآسي التي حدثت تحت الحكم الشيوعي والتي عانى هو ومواطنوه منها قال:

منذ أكثر من نصف قرن مضى، عندما كنت طفلًا، أتذكر عددًا من كبار السن يفسرون المصائب الكبرى التي عانت منها روسيا بقولهم: «لقد نسي الإنسانُ الله، ولذلك يحدث كل ذلك».

منذ ذلك التاريخ أمضيت زهاء الخمسين عامًا في دراسة تاريخ ثورتنا وفي خضم ذلك قرأت مئات الكتب، وجمعت مئات من الاعترافات الشخصية، وشاركت في ثمانية مجلدات محاولًا تفسير تلك المصائب وأبعادها، ولكنني إذا

سئلت اليوم أن أصوغ بشكل مختصر السبب الرئيسي في الثورة التي ابتلعت ستين مليونًا من شعبنا، لا أستطيع أن أصوغها بشكل أكثر دقة من أن أعيد: لقد نسي الإنسان الله ولذلك حدث كل هذا !! ...

وباختصار فإن الشيوعية المستندة إلى المادية الداروينية وغيرها، أضحت مع بزوغ القرن العشرين دينًا أصوليًّا متطرفًا يحتوي على كتابه المقدس ومفسريه الكهنة وجنته الموعودة والطريقة المثلى للوصول إليها على الأرض بل وحملات التبشير الجهادية أيضًا.

ولكن الأمر ليس مقصورًا على الشيوعية (الملحدة منها)، فهناك النازية الألمانية التي قد تكون قتلت ما يقرب من عشرين مليونًا من اليهود والبولنديين والأوكرانيين والروس والفرنسيين واليوغسلاف ... ثم إن هناك القومية الصينية تحت حكم كاي شيك (Kai – Shek) والتي قتلت حوالي 10 ملايين صيني من 1928 إلى 1949 واليابانيون الذين قتلوا حوالي 6 ملايين صيني، وإندونيسيين وكوريين وفلبينيين خلال الحرب العالمية الثانية.

ولكن ونحن في نهاية عرضنا لنظرية النشوء والارتقاء وتبعاتها ، نريد أن نتساءل : ما مدى تأثر الناس بها ؟ وما مدى اقتناع العلماء بها ؟ وما هي الدلالة لو صحت النظرية أو إن لم تصح ؟ ! بشكل أوضح ما شكل العلاقة بين صحة النظرية وبين فكرة إثبات أو نفي وجود الله وهل هي علاقة عكسية أم طردية أم لا توجد علاقة سواء مباشرة أو غير مباشرة ؟

هذا ما سنحاول أن نلخصه فيما يلي:

نبدأ أولًا بتقبل النظرية لدى العامة ثم لدى العلماء:

نستطيع أن نقول إن تقبل النظرية لدى العامة يختلف حسب الأفكار العقائدية لديهم، فبينما نجد أن شعوب الشرق الأوسط ترفض (على الأغلب) النظرية وتعتبرها معادية لمعتقداتهم، نجد أن شعوب أوربا تتقبل النظرية بشكل أكبر كحقيقة علمية. أما في الولايات المتحدة فتقبل النظرية أقل من نظيره في أوربا والمحاكمة المشهورة في أوائل القرن العشرين بالولايات المتحدة شاهدة على ذلك [1] والواقع المعاصر يشهد على ذلك أيضًا نظرًا لاستمرار المناظرات بين أنصار النظرية ومعارضيها حول تدريسها بالمدارس من عدمه.

ولكن الغريب، أنه من الواضح أن شعبية النظرية في نزول بين العامة حتى أوربا تبعًا للإحصاءات التالية والتي وإن لم تكن ذات دقة عالية نظرًا لعدة عوامل منها عدد المشاركين ومنها إجراء بعضها عن طريق شبكة الـ Internet والتي لا نعلم مدى إحكام عدم التصويت لأكثر من مرة لنفس الشخص أم لا... إلخ ولكنها على الرغم من ذلك تعكس قليلا مدى اضمحلال تقبل الشعوب للنظرية.

- Science Actualities الفرنسية بين 72390 مشاركًا وجدت أن 92٪ لا يؤمنون بالنظرية.
- الجريدة اليومية الألمانية Die Welt وهي واحدة من أهم الإصدارات في ألمانيا وجدت أن 86٪ من المشاركين ردوا على سؤال ما الذي تعتقده في

(1) محاكمة دارت للنظر في الدعوى المقدمة لمنع تدريس النظرية في المدارس.

كيفيـة ظهـور الوجود إلى الحيـاة «ردوا بأنه الله خلقها»! (عدد المشـاركين 4887).

- الجريـدة اليومية الدانماركية: Ekstra Bladet وجدت أن 88٪ ردوا بــ«لا» على السؤال الآتي: «هل تعتقد أن الإنسان من سلالة القرد؟».

- وبتاريـخ 8 يوليـو 2007 وجـدت صحيفـة Süddeutsche Zietung أن نسـبة المعتقدين أن الإنسـان صنعة إله خالق كانت 87٪ (عدد المشاركين 11388).

- و Blick Online السويسرية وجدت أن 85٪ يؤمنون بفكرة الخلق.

أما بالنسبة للمجتمع العلمي، فنسبة المؤمنين بالنظرية أكثر من ذلك بكثير ولكـن الأمانة العلميـة تحتم أن نوضـح أن العلماء عادة يجاوبون عن مسـألة فكـرة التطور والـMutative وهل يؤمنون بهـا علميًّا أم لا. وبذلك يعتبر من باب لي الحقائق اعتبار أن اقتناع أن فكرة كون الإنسان والقردة منحدرين من سلالة واحدة أم لا له نفس الإجابة...

و ذلك لأن التطور المعترف به علميًا من أكثرية العلماء حتى الآن، هو بين السلالة والفصيلة الواحدة.

أيضًـا، يعتبر بعض العلـماء أن الاقتناع بنظرية النشـوء والارتقاء هو من بـاب الإيـمان وليس مـن باب الإثبـات العلمـي... وكما يقـول John Lenex العـالم بجامعـة كامبريـدج: «لا يوجد شيء نسـتطيع إثباته علميًـا إلا في علم الرياضيات! فهو هنا يفرق بين الـProof (الإثبات) والـEvidence (الدليل). ولذلـك يعتبر بعض العلـماء المعارضون للنظرية أن التصديـق بتلك النظرية يتطلب قدرًا من الإيمان أكثر من الإيمان بوجود خالق وراء ذلك الكون مؤثرٍ

فيه وقائم عليه حتى لا يفسد أو يفنى ! .. مثلهم تمامًا مثل العلماء المعارضين لنظرية أزلية الكون (طاقته وماديته) واعتراضهم بأن ذلك يتطلب إيمانًا أقل موضوعية من الإيمان في إله (خارج عن زمكان هذا الكون) أزلي أبدي.

الشيء الآخر الذي يعترف به بعض العلماء هو صعوبة تقييم نظرية النشوء والارتقاء كتقييم بعض النظريات في الكيمياء أو الطبيعة مثلًا نظرًا لطبيعة النظرية من الناحية التاريخية وصعوبة وجود الهياكل التي تؤكد أو تنفي النظرية..

وفي ذلك يقول شارلز داروين نفسه إنه «لو ثبت وجود عضو ذي تعقيد عال لا يمكن وجوده عبر العديد من التحويرات المتتالية القليلة، تتحطم نظريتي تمامًا»!

وفي ذلك قام بعض العلماء بمحاولة إثبات استحالة وجود عضو شديد التعقيد مثل العين مثلًا عن طريق التحويرات المتتالية القليلة.

ويحضرني هنا الاستشهاد بالآية القرآنية والتي ذهب بعض المفسرين المعاصرين [1] إلى أنها ترمز لأمثال تلك النظرية: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ (الكهف: 51) وأن أنصار النظرية الذين حولوها لتخدم آراءهم، هم من أسماهم القرآن «بالمضلين».

ورجوعًا إلى مثال الأعضاء شديدة التعقيد، يذهب بعض العلماء ومنهم (Michael Behe) «مايكل بيه» إلى أن بعض الأعضاء شديدة التعقيد مثل

(1) الشيخ الشعراوي رحمه الله.

جهاز المناعة، تجلط الدم التصاعدي بالإضافة إلى العين لا يمكن بمكان نظرًا لشـدة تعقيدهم ونظرًا للعلاقة الاعتمادية بينهم - لا يمكن بمكان أن يكون نتاجًا لتطور بطيء عن أعضاء ذات خلية واحدة بسيطة. وبناء على ذلك قام بصياغـة مفهـوم جديـد ألا وهـو الــ Irreducible complexity أو «الأعضاء المعقدة غير القابلة للتبسيط».

وردًّا عـلى تلـك الفكـرة ، يقـول ريتشـارد دوكينـز (Richard Dawkins) وبسـذاجة مـرة أخرى: إننا لـو لم نجد فائدة من وجود نصـف عين (وبالتالي ربع عين وثمن عين) أو نصف جناح فالعيب فينا نحن وليس في التطور !!!

ثانيًا: والآن نحـاول أن ننـاقـش فكـرة كنـه العـلاقـة بين صحة النظرية وبين صحة فكرة وجود الله:

كـما هو ظاهر فإن النظرية ليسـت من النظريـات التي يجمع عليها الجميع سـواء من العامة أو من العلماء (مثل نظريات أخـرى عديدة) ولكننا على أية حال نحاول في هذه النقطة أن نرى كنه هذه العلاقة لو صحت النظرية: فماذا لو صحت النظرية حتى ولو على سبيل الافتراض الجدلي؟

متى نسـتطيع القول إن ثمة صلة نفي بين النظرية وبين موضوع المناقشـة (وجـود الله)؟ في رأيـي، عندما يكون هناك جزء مـن النظرية أو كلها يخالف جزء (أو كل) ما هو من المسـلمات في قضية وجود الله - في ظني - أن النقطة الأساسـية التي قـد يُتصـور تعارضها مع الدين هي ما شـاع عنـد الناس أن النظريـة تقـول إن الإنسـان أصلـه قـرد، والواقـع أن المتتبع للنظريـة يجد أن الدقـة والأمانـة العلمية تتطلـب أن نقر أن النظريـة لا تذهب لهذا ولكن على الأحرى تذهب إلى أن الإنسان والقرد أصلهما مشترك (Common Ancestor

Common Descent or) فلـو كانـت النظريـة تقـول إن الإنسـان أصلـه قـرد لكان – في نظري – من السـهل نقضها بالسـؤال البديهي: لماذا بقيت القرود المعاصرة قرودًا ولم تتطور بدورها إلى طور الإنسان؟ والرد التقليدي بأن قد تكون تلك القردة المعاصرة لم تتعرض لنفس الظروف التي تعرض لها جدود الإنسـان، ردٌّ ليـس بمقنع في نظـري وهو مجرد افتراض جـدلي لا علمي ولا يجـاوب عن ذات السـؤال نظرًا لتواجد الإنسـان والقـرد في وقتنا المعاصر في نفس الظروف البيئية وفي بيئات منغلقة طبقًا لادعاء داروين ...

ولا ترد أيضًا عن التساؤل بشأن عدم وجود أو عدم العثور على الحفريات Fossils الوسيطة بين القرود والإنسان ولماذا اختفت تمامًا في حين بقي الإنسان وهو الأعـلى تكيفًا وبقي القرد وهو الأقل تكيفًا وكفاءةً من تلك المخلوقات الوسـيطة المزعومـة طبقًا للنظرية نفسـها. ونقـول إنه لو حتـى صحت تلك العبـارة فهـل يهدم ذلك الديـن في شيء ؟ هل عندما اعـترف المجتمع الدولي بصحة مقولـة كوبرينكوس وجاليليو بأن الأرض ليسـت مركز الكون، هل هدم ذلك الدين في شيء ؟ أم هدم فهما محددًا مغلوطًا للدين ؟

بالمثـل ومن باب أولى نسـتطيع أن نقول إن ذهـاب النظرية بوجود جدود مشـتركة للإنسـان والقـرد لا يهـدد الديـن في شيء عـلى الرغم مـن اعترافنا باختـلاف تلك النظرة عـن النظرة التقليدية المتوارثة عـن خلق آدم، ولذلك وجدنـا بعـض علماء الديـن يقولون بمثـل هـذا ويفرقون بين لفـظ «البشر» و«الإنسـان» وأن البـشر هـم آبـاء آدم وأن آدم آخرهـم وأكملهم ولذلك هو أول إنسان وَجَدَّ الناس.

والمشكلة هنا أن علم الجينات يقول إن أقرب المخلوقات للإنسان من ناحية الـ DNA هو نوع من الفراخ وليس القرد. فهل ظهرت الفراخ من القرود أم كيف تحل النظرية تلك المسألة ؟

ونستطيع أن نلخص نقاط النظرية الأساسية والرد عليها فيما يلي:

أولًا: دعوى التطور بدليل التشابه الموجود بين الأحياء:

قلنا إن هذا الادعاء لا يستند إلى دليل حقيقي لأن وجود العين والأذن في الإنسان لا يدل على أنه تطور من القرد أو السمكة مثلًا لأن هناك تشابهًا كبيرًا بين العديد من الكائنات في العالم ولا يشكل ذلك دليلًا على تطورها كلها من بعض.

ولماذا ترى عين التطوريين التشابه ولا ترى بالعين الأخرى الاختلافات -وهى كثيرة نسبيًا- بين الأحياء المختلفة؟

كلمة حرب تتكون من نفس حروف كلمة حبر وكلمة بحر، فهل يعني ذلك أي شيء أو أي استنتاج منطقي للعلاقة بينها؟! بل إن كلمة «حبور» تحتوي على نفس الأحرف وتزيد حرفًا فهل يعني ذلك أي شيء؟ الفيل له ذيل وكذلك السمكة فهل يعني ذلك علميًا أي شيء ؟!

ثانيًا: التكيف ومسألة الأعضاء الضامرة:

رأينا أن الادعاء بأن الأعضاء الضامرة مثل «الزائدة الدودية» لا فائدة لها، هو ادعاءٌ باطل. فالزائدة الدودية يعتبرها بعض العلماء «المعدة الثانية للإنسان» وغنى هذا العضو باللمف والأوعية الشعرية يشير إلى أهميتها ويحتمل أن نعلم عنها أكثر من ذلك في المستقبل.

ثــم إن الادعاء على أن الصفات المكتســبة فيها بعــد عند الأحياء تنتقل إلى ذرياتها وأنســالها حســب نظرية لامارك الذي أخذ بها داروين لا نســتطيع أن نثبتــه على ســبيل اليقــين أو التعميــم وإلا لرأينا أن اليهود الذيــن يختتنون منذ حوالي أربعة آلاف عام لا ينجبون أطفالًا مختتنين ولو جزئيًا!

ولذلك، اعتبار أن هذه القضية أمر مسلم به ليس من العلم في شيء.

ثالثًا: تشابه تطور أنواع مختلفة من الأجنة:

نرى أن ذلك التشابه هو في الشكل الخارجي وليس في الـDNA أو الجينات مثــلًا، ونرى أن ذلــك شيء طبيعي وإلا فماذا تنتظر من أجنة لا يتجاوز طولها الســنتيمتر الواحد في أول طور تطورها ؟ ما مدى التغير والتباين (من ناحية الشكل الخارجي) اللذين كان يتوقعهما أنصار نظرية التطور؟

أستطيع أن أرى اثنين من الـ Flash Memories المتطابقين تمامًا ولكن عند طباعة محتواهما قد نجد مضمونين مختلفين تمامًا.

العبرة في رأيي هو الرد على الســؤال الآتي: ما الذي يجعل جنين الإنســان ينمو ويولد كإنسان ذي قابلية للتعلم أكثر من غيره من الأنواع الأخرى؟ من الذي يمنع أن تلد سمكة إنسانًا باعتبار تشابه جنين السمكة في أوله مع جنين الإنســان ؟ ما الذي يجعل الجنين الإنســاني يبدو وهو يأخذ شكلًا إنسانيًا بعد الطور الخامس لخلقه ؟ هذه هي القضية في رأيي وهذه هي الأسئلة المستحقة للبحث والتفكر ! ...

رابعًا: النقطة الأخيرة هي نقطة المتحجرات والحفريات:

والحقيقة أن عدم العثور على أي متحجرة وسيطة يدعو الإنسان العاقل أن يعيد التفكير بقوة في صحة ادعاءات هذه النظرية، وإذا استبعدنا المتحجرات الملفقة وتكلمنا مثلًا عن متحجرة الـ Archaeopteryx وهي لطائر طويل الذيل له أسنان ولديه شبه الأصابع في يديه والذي زعموا أنه الحلقة الوسطى بين الزواحف والطيور على الرغم من اعتراف بعض علماء التطور أنفسهم بعدم وجود قيمة علمية لهذه المتحجرة لإثبات صحة الادعاء أنها وسيطة بين الزواحف والطيور لأنها لو عُدت كذلك لاعتبر العلماء أن الخفاش - وهو طائر ثديي - الحلقة الوسطى بين الثدييات والطيور وهو ليس كذلك لأن العلم لا يذكر أى عهد لم يكن الخفاش فيه موجودًا (أي أنه سابق للطيور) كما أنه لم يتعرض لأي تغيير طوال وجوده، ولذلك لا يستخدم التطوريون مثال الخفاش كدليل في موضوع التطور.

ومثال آخر هو مثال جد الحصان ذي الأصابع الخمس، بحسب هذا الادعاء كان الحصان في السابق بحجم الثعلب ولديه خمسة أظافر وإنه مر بعد ذلك بمراحل الـ ,Merychippus وMesohippu وEuhippus أخيرًا مرحلة Pliohippus وفي هذه المراحل قل عدد أصابعه.

ولو فرضنا أن هذه المتحجرات صحيحة، فما المانع أنها قد تعود لأنواع أخرى من الأحياء عاشت في السابق ثم انقرضت ولا يتحتم ربط الحصان بهذه السلسلة؟

وإذا أصررنا على ربطه بهذه السلسلة فيظهر عندنا سؤالان مهمان:

أولًا: لماذا نقص عدد أظافر الحصان من خمسة إلى واحد ؟ ولماذا تحول من حيوان بطول الثعلب إلى حجمه الحالي؟ وتوجد حاليًا حيوانات بأظفر واحد وأظفرين وثلاثة وهناك كائنات شبيهة بالثعالب لا تزال تعيش في الظروف نفسها ! وهناك كائنات بخمسة أظافر مازالت تعيش وفي الظروف نفسها أيضًا ولو كان الرد هو: حتى يستطيع أن يجري أسرع، فلماذا لم يحدث ذلك أيضًا لكلب الصيد المتواجد في نفس البيئة ؟

أما بالنسبة للسلسلة المزعومة للإنسان والتي توصله إلى جد مشترك مع القرد وهي سلسلة الـ (Australopithecus) و(Homo erectus) و(Neandertal) ورجل جاوة ورجل بكين، فقد نوهنا إلى بعض عمليات التزييف التي شابت هذه الادعاءات مثل رجل بيتداون (Piltdown Man) الذي تحقق زيفه عام 1953 بعد أربعين سنة من اكتشافه المزعوم.

ولكن النقطة الهامة في نظرنا في هذا السياق ما يلي:

حسب أبحاث علماء البالانتولوجيا، فإن أقدم متحجرة من هذه المتحجرات تعود إلى ما قبل مليون ونصف المليون سنة فقط بينما تم العثور في شاطئ بحيرة رودولف (في كينيا) على متحجرة إنسان عاشت قبل حوالي 3 ملايين سنة جمجمته كجمجمة الإنسان الحالي [1].

ومع أن هذه النقطة بالذات تبدو وكأنها توجه ضربة قاضية لنظرية التطور، إلا أنه مع التدقيق وللأمانة العلمية فإنه إن صح ذلك، فهو يشكك

---

(1) تم العثور على هيكل عظمي أقدم يعود إلى 4.4 مليون عام في إثيوبيا وأطلق عليه اسم «أردي» وهي لأنثى بطول 120 سم وتزن 50 كجم تقريبًا.

في النظرية ولا يهدمها لأنه قد يكون هناك احتمال قائم (مع ضآلته) أن يكون الإنسان المعثور على حفريته في كينيا منحدرا من سلالة قرد وأن المتحجرات التي تعود إلى 1.5 مليون سنة فقط هي لجدود الإنسان الذي سيولد في جاوة أو بكين بعد ذلك. ولكن لحين العثور على متحجرات وسيطة في كينيا (تحت نفس الظروف) سابقة لإنسان رودولف وعدم العثور في ذات الوقت على متحجرة لإنسان مشابه للإنسان المعاصر في جاوة أو بكين، يبقى هذا الادعاء مطعونا في صحته إلى أن يثبت العكس.

والغريب أنه في العهد الكمبري الكثير من الأحياء التي جعل التطوريون بعضها سلفًا وجدًّا للآخر بينما نرى أنها كانت تعيش معًا وأنها ظهرت جميعًا إلى الوجود فجأة[1]، كما أنه من الحقائق الثابتة أن العديد من الأحياء بسيطة التركيب عاشت في العهد نفسه مع أخرى معقدة التركيب وهذا يعني أن أحياءً من المفترض أن يوجد أحفادٌ لها بعد مائة ألف جيل عاشوا معًا!! ويعني كذلك أن أحياءً بدائية زُعم أنها عاشت قبل 550 مليون سنة أو أكثر قليلًا، عاشت جنبًا إلى جنب مع أحياء معقدة عاشت بعدها بمئات الملايين من السنين!

وذلك أنه طبقًا لواحدٍ من أعظم علماء التطور المعاصرين (ستيفن جاي جولد Stephen Jay Gould) في كتابه (Wonderful life)، أنه في حقبة الكامبريان حدث ما يسمى بانفجار الكامبريان (Cambrian Explosion) وذلك أنه منذ ما قبل الـ 550 مليون سنة بقليل كانت هناك بعض الأحياء البسيطة ولكن فجأة ظهرت في غضون ذلك التاريخ طفرات متباينة من الفقاريات.

(1) حقيقة الخلق ونظرية التطور – محمد كولن.

وحاول البعض تفسير ذلك بأن الظروف لم تكن مواتية لظاهرة التحجير نفسها لأحياء كثيرة منذ تاريخ الـ 550 مليون سنة نفسه.

وكما أسلفنا من قبل أن الإشكالية التي مازالت النظرية غير قادرة على حلها هي أن الوقت غير كافٍ لحدوث ذلك التطور المزعوم لظهور الأحياء التي نراها اليوم . (The Language of God P.94).

والدلائل الحفرية المعاصرة تبين أن الأرض بقيت جرداء جدباء حتى حوالي 400 مليون سنة من اليوم ثم بدأت تظهر بعض حفريات النباتات على اليابسة والتي قد تكون انتقلت من أحياء مائية.

ثم بعد حوالي 30 مليون سنة، ظهرت الحيوانات على اليابسة ولكن فجوة أخرى تظهر هنا وهي قلة وجود حفريات انتقالية بين الحيوانات البحرية والبرية على الرغم من أن بعض الاكتشافات قريبة العهد والتي ما زالت تحت الدراسة تدَّعي العثور على عدد كاف من الحفريات يصلح أن يسد تلك الفجوة.

منذ حوالى 230 مليون سنة سادت الديناصورات الأرض ولسبب غامض قد يكون كارثيًا (يرجح البعض سقوط نيزك في مكان يدعى Yucatan Peninsula بالمكسيك) انقرضت منذ حوالي 65 مليون سنة.

وعلى الرغم مما ذكر سابقًا، فإن هناك بعض الاكتشافات التي تؤيد وتسد الفجوة بين الزواحف والطيور وبين الزواحف والثدييات على الرغم من عدم تكاملها تمامًا حتى يومنا هذا.

وعلى كلٍّ فإن نظرية النشوء والارتقاء المعتمدة على الانتخاب الطبيعي قد تكون صحيحة في بعض جوانبها وقد تكون مخطئة في البعض الآخر، ولكن

في جميع الحالات - حتى ولو صحت في جميع جوانبها على الرغم مما قيل سابقًا - فالسؤال الذي يطرح نفسه في هذا المقام هو: لماذا لا يكون الانتخاب الطبيعي هو الآلية التي أرادها الله لتطور الحياة على الأرض ؟! هل اكتشافنا لدورة سقوط الأمطار وآليته من بخر وغيره يجعلنا بالضرورة لا نؤمن بإله قدير مدبر قيوم ؟!

هذا هو السؤال الذي يجب على كل واحد أن يجيب عنه وحده وبصراحة!

شيء أخير أردت التنويه إليه قبل إسدال الستار على محاولتنا لمناقشة تلك النظرية هو أن ننوه إلى أن أنصار النظرية (وخاصة أنصار النظرية المعاصرين) لا يقولون بالتطور المبني على المصادفة ولكن بالأحرى وبشكل أكثر دقة نريد أن نوضح أنهم يقولون بالتطور المبني على العشوائية وبذلك- في نظرهم - يتمكن من البقاء ذلك الذي يستطيع التكيف ليواصل المسيرة كما نراه في صورته حتى يومنا هذا.

نقطة أخرى نرى أيضًا أنها تستحق البحث على الرغم من أننا لن نستفيض فيها، هي فكرة ظهور الزوجين الذكر والأنثى ونسبتهما شبه المتساوية على مدار التاريخ المعروف!

فلو أن الإنسان تطور عن الزواحف مثلًا مرورًا بشبيه القرد وبشكل عشوائي، فكيف نفسر تساوي أعدادهما (أعني الذكور والإناث) بل وكيف نفسر نظرية ظهور الأنثى لو كان الذكر قد ظهر أولًا أو العكس ولماذا هما زوجان فقط لا أكثر ؟ مجرد تساؤل ، أرجو أن يجيب عنه أنصار النظرية وإلا سلمنا بأن ذلك كله خُلق بقدر وبميزان دقيق!

شيء آخر يجول بخاطري عند التعرض لتلك النظرية وهو الآتي: لو كانت النظرية تتبنى فكرة الصراع من أجل البقاء وفكرة البقاء للأصلح، فكيف نفسر أن الإنسان وهو في زعمهم في أعلى قائمة الـ (Homo Sapians) وهو بالاتفاق كائنٌ اجتماعي تحكمه منظومة قيم عالية لا توجد في الكائنات الأدنى منه والتي ينحدر منها في نظرهم؟

الذي أريد قوله هو: إن كان عقل الإنسان ذا كفاءة أعلى من نظيره من المخلوقات السابقة وذلك سببه – في اعتقادهم – أن تطور عقل الإنسان مكنه من البقاء أكثر من غيره مثلما مكّن الزرافةَ طولُ عنقها من استمرارها وبقائها أكثر من غيرها، وإن كانت هذه الصفات بلا استثناء سواء الظاهرية منها أو الباطنية متوارثة وتنتقل ببطء إلى الأحفاد، فماذا عن صفة «الصراع من أجل البقاء» نفسها؟ إن كانت أنياب الأسد مكنته من التواصل والبقاء في الحياة أكثر من بعض أجداده ذوي الأنياب الأقل كفاءة، ألم يكن من المتوقع أن نجد أن الإنسان – وهو الأعلى والأكثر تطورًا في شجرة الحياة – أن نجده مخلوقًا مفترسًا عدوانيًا من أجل بقائه؟! كيف نفسر وجود مخلوق في أعلى سلم الحياة ولكنه أكثر قيمًا ومحبة للجمال وإبداعًا مثل الإنسان ولديه أنياب أقل حدةً من الأسد؟! وما الذي جعل صفات إبداعية لا نراها مثلًا في القرود أو في الديدان مثل الغناء والموسيقى والكتابة والرياضة ونراها في الإنسان؟ بل كيف نفسر وجودها الاجتماعي وإجماع بني الإنسان على الأعمال الإبداعية وعلى تذوق الجمال بصفة عامة؟! كيف نفسر ذلك إلا أن نقول إنه بفعل صانع مبدع يحب الجمال؟!

الذي يدعو للسخرية أن أنصار نظرية التطور عندما يحاولون الرد وتبرير الـ (Altruism) الذي ناقشناه من قبل، يقولون (مثل ريتشارد دوكنز) إنها

محاولة للدفاع عن السلالة مثلما تدافع الأم عن أبنائها الثلاثة معرضة نفسها للموت وذلك لتعطي فرصة لأبنائها - الذين يحملون على الأقل مرة ونصف المرة من صفاتها - أن يعيشوا!

وعلى الرغم من ردنا على هذا الادعاء وإظهار سخافته، فإن رأينا أن نعيده هنا في هذا السياق لأنه قد يناقض في رأيي قضية مثل قضية: سن اليأس مثلا (Menopause) وهي تتلخص في السؤال عن كيفية تبرير أن أنثى الإنسان وهو الكائن الأعلى، تصل إلى سن لا تستطيع بعدها أن تنجب وبالتالي يدل ذلك على كفاءة أقل في الإنجاب من غالبية المخلوقات السابقة لها والأدنى منها[1] (حاول بعض التطوريين الرد على هذه القضية بفكرة الـ (Grandmother Hypothesis) حيث يذهبون إلى أن هذه الفكرة أدعى إلى المحافظة على الأحفاد وذلك لإيجاد فترة أطول للأم لرعاية أولادها أو للجدة في حالة عدم قدرة الأم على أن تواصل إمداد أطفالها بالتغذية المطلوبة وخاصة في الأوقات الصعبة) ! ونسأل ببساطة بنفس منطق الرد على الـ (Altruism)، ألم يكن من الأجدى والأكثر كفاءة للحفاظ على النوع واستمرار بقاء جينات منه أكثر ألا تكون هناك سنٌّ لليأس من الأصل لأنثى الإنسان وهي الأعلى تطورًا؟!

ألم تكن العشرون أو الثلاثون سنة التي تعيشها معظم النساء بعد سن اليأس، كافية لولادة أضعاف الأبناء الذين يولدون عادة ما بين سن العشرين إلى الخامسة والأربعين أو الخمسين ؟!

---

(1) على الرغم من وجود سن اليأس في حالات قليلة في الـ (Animal Kingdom) - مملكة الحيوان مثل بعض القرود والفئران.

ثم لو سلمنا بأن الـ (Menopause) هو شيء جيد ويساعد على الانتخاب الطبيعي حسب النشوء والارتقاء، فكيف نفسر تواجده في مخلوقات دنية في سلم الحياة مثل الأسماك الـ (platy fish) أو الـ (gyppy) أو بعض فئران المعامل، ولا نجده في مخلوقات أعلى منها (وأقل من الإنسان) مثل أنثى الأسد وبعض القرود والحصان مثلًا ؟! أي تفسير نصدق في هذه الحالة ؟! وكيف نربط ذلك التفسير بالنظرية؟

ولنلخص ما قلناه في صدد هذه النظرية، نعود لنقول إن النظرية بها أوجه وجيهة وأخرى ضعيفة ونراها مختلقة اختلاقًا.

الجزئية التي تهمنا - ونحن بصدد الحديث عن وجود الله - هي جزئية أصل الإنسان. وعلى الرغم من عدم وجود علاقة مباشرة بين المسألتين فإن ظاهر النظرية قد يناقض ظاهر بعض أديان التوحيد، إلا أننا نرى أنه لا يناقض قضية وجود الله كما أسلفنا.

وبما أن قضية أصل الإنسان هي بيت القصيد، ارتأينا أن نلقي عليها بعضًا من الضوء حسبما تقول النظرية وحسبما تقول بعض تلك الأديان بشكل مبسط.

فماذا تقول النظرية عن أصل الإنسان ؟

تقول النظرية إن الإنسان هو عضو في عائلة الـ (Hominidae) أو الـ (Homo Sapiens) وتعني باللاتينية Wise Human - أو الإنسان الحكيم أو Knowing Man أو الإنسان المدرك.

الــ DNA ودلائـل الحفريـات ترجـح أن الإنسـان الحديـث ظهـر منـذ حوالي200 ألف سنة في شرق إفريقيا.

- بمقارنـة الإنسـان بغيره من المخلوقات، نجد أنـه ذو عقل متقدم، له قدرة على التفكير المجرد، وقدرة عالية على التخاطب وحل المشكلات.
- أمـا من الناحية الفسـيولوجية فنجـده ذا قامة مسـتقيمة تمكنه من الوقوف باعتـدال وتمكـن بالتالي يديه من الاسـتخدام الأمثـل في صناعة الأدوات وغيرها ...
- نجـد أيضًـا أن الإنسـان يعيـش تقريبًـا في كل مناطـق الأرض، ونجد أنه اسـتطاع أن يمكن نفسـه من العيش والانتقال في الجو على المحيطات، بل إن بعضهم - وأنت تقرأ في هذه السـطور - يكون تحت سـطح المحيطات أو خارج الغلاف الجوي للكرة الأرضية !
- وصل تعداد سـكان الأرض من فصيلة الإنسـان إلى حوالي 7 بلايين نسمة وذلك في أكتوبر من عام 2011.
- الإنسـان كائن اجتماعي ذو قدرة جيدة على التخاطب والتواصل مع غيره وعلى التعبير سواء اللفظي أو الكتابي.
- يتميـز الإنسـان أيضًا عن غـيره من الكائنـات العلية بأن عنده حسًـا عاليًا للجمال وللقيم والأخلاق والدين.
- الإنسـان كائـن فضـولي ذو حس عالٍ لاستكشـاف البيئة التـي يوجد فيها ولإخضاعها له.
- الإنسان هو المخلوق الوحيد الذي يُعرف عنه اكتشافه للنار وطهيه للطعام وإلباس نفسه بالإضافة لاستخدام تقنيات عديدة أخرى.

- تذهب عدة دراسات في الأحياء العضوية (Molecular Biology)، إلى أن الزمن التقريبي لتفريع الـ (Homo Sapiens) من الجد المشترك كان منذ حوالي 200.000 سنة.
- حسب النظرية، فإن أقرب الكائنات للإنسان هما الغوريلا والشمبانزي (Gorillas & Chimpanzees) ولكن لا تذهب النظرية إلى أنهما أصلٌ للإنسان بل إنهما والإنسان يشتركان في أصل واحد.
- المتتاليات الجينية الكاملة (Full Genome Sequencing) تستنتج أن أقرب هذين النوعين هما (Common Chimpanzee & Bonobo) وأنه بعد 6.5 مليون سنة من الانفصال والتطور وصل الفرق بين الإنسان والشمبانزي إلى عشرة أضعاف أكثر من الفرق بين إنسانين غير أقارب وعشرة أضعاف أقل من الفرق بين الفأر والجرذ ؟ (Rat & Mice).

تشابه الجينوم البشري وللشمبانزي يصل إلى ما بين 95٪ و99٪.

- ترى النظرية -كما قلنا- أن الإنسان الحديث عاش منذ حوالي 200.000 سنة. في خلال الـ 150.000 سنة التالية وصولًا إلى 50.000 سنة من اليوم، ترقى الإنسان إلى إنسان العصر الحديث باستخدامه للغة والموسيقى وغيرها من الفنون.

ترجع الدراسات أن الهجرة إلى خارج إفريقيا تمت منذ حوالي 70.000 سنة إلى باقي القارات المعروفة حينئذ (الوصول إلى قارة Oceania بدأ منذ حوالي 40.000 سنة وإلى الأمريكتين منذ حوالى 145.500 سنة من اليوم.

تقول لنا الدراسات العلمية الحديثة إن اختلاف الـ DNA الإنساني ضئيل للغاية بالمقارنة مع فصائل أخرى، وأيضًا يُستنتج أنه في أواخر العصر

البليستوسيني (Pleistocene)، تضاءل التعداد الإنساني إلى أن وصل إلى 10.000 زوج فقط (في بعض الآراء إلى ألف فقط) بناءً على تفسيرات مختلفة أكثرها شهرة نظرية الـ (Toba Catastrophe)[1].

منذ 10.000 عام، كان أغلب بني الإنسان من الصيادين الذين كانوا يعيشون في قبائل صغيرة..

بعد ذلك، تطور الإنسان إلى «الإنسان المزارع» مما أدى إلى ازدهار التجارة والتعاون بين القبائل بصفة عامة وأيضًا إلى الرغبة في صناعة الأدوات المعدنية وإلى ظهور المجتمعات الأكثر تقدمًا وبدأ ذلك منذ حوالي 6.000 سنة في وادي النيل (حضارة قدماء المصريين)،، مما أدى إلى ظهور المجتمعات ذات البيروقراطية والنظم الحاكمة وذات الجيوش بعد ذلك ببضعة آلاف من السنوات.

من الناحية التشريحية والبيولوجية: يعتمد حجم الإنسان أساسًا على جيناته ولكن يعتمد بشكل بسيط أيضًا على بعض العوامل الخارجية مثل الحمأة (الرجيم) والتمارين الرياضية.

الطول المتوسط للإنسان هو ما بين 1.5 إلى 1.8 متر ووزنه المتوسط من 76 - 83 كجم للرجل و54 - 64 كجم للمرأة.

يحتوي جسم الإنسان على 46 كروموسومًا (23 من الأب ومثلها من الأم) وزوج واحد من تلك الكروموسات يحتوي على تحديد نوعية جنس

(1) (تتلخص النظرية في حدوث انفجار بركاني كبير Super Volcanic منذ حوالي 70.000 إلى 75.000 سنة في بحيرة طوبة Toba في منطقة سومطرة .صاحب النظرية هو ستانلي أبروز Stanley H. Ambrose والتي أثارها عام 1998.

الإنسـان XX للأنثى أو XY للذكر ويحتوي جسـم الإنسان الواحد على حوالي 25,000 - 20,000جين.

يولد الإنسان بصعوبة ملحوظة عن غيره من المخلوقات (نظرًا لرأسه الأكبر نسبيًا لاحتوائه مخًا أكبر نسبيًا من باقي الكائنات - حوالي 1400 سم^3).

يولد الإنسان بوزن متوسط 3 - 4 كجم وطول متوسط 50 - 60 سم.

في سن المراهقة والبلوغ (Adolescense)، يكبر حجمُ الإنسان بنسبة أكبر من نظيرها في الشمبانزي مثلًا (الإنسان حوالي 25٪ من حجمه مقابل 14٪ للشمبانزي).

مـن بعـض الاختلافات الأخرى، وصول أنثى الإنسـان إلى سـن اليأس والموجود بندرة في المخلوقات الأخرى.

- مـن الأشـياء الأخـرى الملحوظـة للإنسـان هي رغبتـه الدائمـة في الدين والإيمان بخالق لهذا الكون وفي الغيبيات بصفة عامة! (85٪ - 90٪ من التعداد السـكاني يؤمنون بإله خالق للكون وحوالي 75٪ - 80٪ يؤمنون بذلك الإله ويؤمنون بتدخله المباشر في شئون عباده) [1].

---

(1) الجدير بالذكر أن هذه الرغبة التي لا يمكن إنكارها في الدين تفضي إلى علامة استفهام في حالة صحة نظرية التطور فإن كانت النظرية صحيحة وأن تطور المخلوقات راجع بشكل كلي إلى عشوائية مادية وإلى رغبة نحو البقاء، فلماذا ظهرت صفة التدين في بني الإنسان وهي أعلى المخلوقات في السلم التطوري؟! وهل هذه الصفة موجودة في المخلوقات الأدنى (ولا ندركها) أم هي غير موجودة ؟ فإن كانت غير موجودة فهذا يطرح السؤال السابق بقوة والذي لا نجد له إجابة شافية في نظرية التطور مما يرجح قضية وجود الله وإلا فكيف تفسر النظرية تبني الإنسان فكرة وجود الله إن كانت لا تفيده في سلمه التطوري ولا تفيده في صراعه من أجل البقاء؟، وإن كانت توجد في باقي المخلوقات الأدنى من الإنسان، فالسؤال لأنصار النظرية أصعب في نظري، إذ كيف يفسرون وجود هذه القضية المختلقة (حسب بعضهم) في جميع (أو أغلب أو بعض) المخلوقات ذات الدرجات المختلفة في سلم التطور؟! سؤالان- في نظري-مازالا يبحثان عن إجابة جدية لدى التطوريين.

- من الأشياء التي تتشابه بين الإنسان وغيره من المخلوقات العالية مثل الشمبانزي تقارب الخريطة الجينية لهما (Genome) إلى درجة تصل إلى 96٪ من التماثل.

هذا التماثل لا يفسر بطريقة مقنعة - في نظري - لماذا تضمحل بعض الحواس عند الإنسان مقابل نظيرتها عند المخلوقات الأخرى مثل حاسة الشم مثلًا التي يقول التطوريون إن سبب اضمحلالها هو ظهور القدرة على التمييز بين الألوان عند الإنسان؛ ولذلك قلت ضرورة قوة حاسة الشم وهو تفسير (أو على الأحرى تبرير) لا يسمن ولا يغني من جوع ولا يجيب عن السؤال الأصلي ولماذا لم يحافظ الإنسان على قدرته على الشم مع قدرته على تمييز الألوان في آن واحد حتى يتمكن من الصراع من أجل البقاء بشكل أقوى وأكثر كفاءة ؟!!

ثم إن الاختلاف الأساسي بينهما بالنسبة لخريطتهما الجينية هو في الكروموسوم الثاني لدى الإنسان من (23 زوجًا من الكروموسومات) والذي ما هو إلا اندماج بين الكروموسوم 2A و 2B كما هو مبين في الشكل (Lang. of God P. 137)، وهذا ما دعا البعض إلى أن يستنتج (من هذا التشابه) اشتراك الإنسان والشمبانزي في أصل واحد، إلا أنه في رأيي المتواضع يدل أكثر على قدرة الخالق عز وجل وأنه بتغيير (اختلاف) بسيط بين خريطتهما الجينية، أدى إلى تغيير كبير بينهما في الواقع الملموس.

فعلى الرغم من التشابه بينهما في الشكل الخارجي، فإننا نجد الإنسان ذا قدرة هائلة على التخاطب وإقامة الحضارة وعلى إظهار مواهب عديدة لا تقارن بأكثر الشمبانزيات ذكاء!!

ثم ماذا كان يتوقع أنصار نظرية التطور؟ هل كان يتحتم أن يكون الإنسان مختلفًا تمامًا عن جميع المخلوقات الأخرى؟! هل كان لازمًا أن يكون له ثلاث أعين مثلًا بدلًا من اثنتين ليكون مختلفًا عن جميع مملكة الحيوان ؟!

ثم إنه لو كان كذلك، لتهافت أنصار النظرية وقتها قائلين: أرأيتم؟؟ لقد تطور الإنسان من أصل مشترك مع القرد، فهاهو طور نفسه ليكون له ثلاث أعين تمكنه من رؤية ما خلفه بعد أن كان أجداده وأجداد الشمبانزي ذوي عينين اثنتين فقط !! هل كان يتحتم أن يكون الإنسان مختلفًا تمامًا عن جميع مخلوقات الله حتى يؤمنوا بأن الإنسان لم يتطور من الشمبانزي وحتى يؤمن عباد الله بالله ؟!!

ولو كان ذلك، لتهافتوا تارة أخرى ولقالوا: أرأيتم؟؟ إن جسد الإنسان يحتوي على نواة تشابه نواة النبات وهذا دليل على تطوره من النبات !

وبالمثل سنقول نحن إن جسد الإنسان يحتوي على الكربون والمغنسيوم والحديد والفوسفات مثل الطين، وهذا دليل على نشوئه من الطين !!

الدليل على القدرة والإبداع هو أن تستطيع أن تستخدم نفس المكونات التي يملكها غيرك وتخلق شيئًا مختلفًا، لا أن تستخدم مكونات مختلفة لتخلق شيئًا مختلفًا ...

- ولذلك أعود لأقول إن تشابه الخريطة الجينية للإنسان مع غيرها لهو دليل على أن خالقهما واحد وعلى أنه خالق بديع قادر تمامًا مثلما يخاطبنا في كتبه بنفس الحروف ولكن لا نستطيع أن نأتي بحديث مثله وتلك هي العظمة وذلك هو عين الإبداع [1].

---

(1) ألا يدل ذلك على وجود شيء آخر يُمَكن الإنسان من كل مواهبه الجينية ؟ ألا يدل ذلك على وجود شيء آخر نجهله من عند الله وقد يكون الروح ؟!

- يرى أنصار التطور أن الجين المسمى: MYH16 يوجد بشكل فعال في مملكة الحيوان ويوجد بشكل غير فعال في الإنسان (Pseudogene) وهو المسئول عن عضلة الفك وقوتها؛ ولذا اختفت في الإنسان ومكّن صِغَر حجم الفك عنده أن يتيح مساحة أكبر للمخ. وهذا وإن كان مجرد تخمين إلا أن أنصار التطور يستخدمونها كدليل على تطور الإنسان من الحيوان.

جين آخر وهو المسمى FOXP2 وُجد أنه المسئول عن القدرة على اللغة ووُجد عند الإنسان باختلافين ظاهريين عن نظيره عند الحيوان وأيضًا استخدم التطوريون ذلك كدليل على صحة نظريتهم. وهنا أريد أن أقول وبكل صراحة إن التهافت لدى التطوريين ظاهر جدًّا في الحالتين (التشابه والاختلاف)!

فعندما يكون هناك تشابه، يقولون إن هذا دليل على التطور من أصل واحد، وعندما يكون هناك اختلاف (مثل الاختلاف في الجينين «FOXP2, MYH16») يقولون إن هذا دليل على النشوء والارتقاء!!

ونعود فنقول إنه حتى لو صحت النظرية بتطورها ونشوئها وارتقائها، فهي على أكثر التفاسير المنطقية تطرفًا قد تدل على أن الخالق (جل وعلا) لا يخلق كل يوم كل المخلوقات ولكنه على أسوأ تقدير قدّر سلفًا خطته البديعة للخلق ثم تركها تعمل حسب تلك الخطة ﴿ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ (طه: 50)[1].

(1) مع أن المتدبر والمتفكر في خلق الله بصدق، يجد أنه لا محالة إلا أن يؤمن بأن الله بالفعل يخلق كل يوم بل كل لحظة وأنه لو أوقف الإمداد لفني الكون في لحظته وأنه قيوم وأنه كل يوم هو في شأن من شئون عباده !!

النقطة الأخرى التي لها علاقة بنظرية التطور هي: مسألة التصميم الذكي (ID - Intelligent Design).

وهـي تفترض اسـتحالة وجود تصميات معقـدة دون أن يكون وراءها عقل ذكي ودون أن تكون مصممة سلفًا لغرض ما.

طبقًا لأصول نظرية النشـوء والارتقاء، فإن التطور يتم بشـكل عشوائي وطبيعـي تمامًا دون خطط مسـبقة أو هدف ما؛ ولذلك فإن مسـألة التصميم الذكـي تتحدى قول شـارلز داروين في كتابه «أصل الأنـواع» (The origin of Species): «لـو تـم إثبات أن أي عضو معقـد موجود ولم يكن من الممكن وجـوده عبر تطـورات عديدة متلاحقـة، فأعترف بأن ذلك سـيكون بمثابة هدم لنظريتي تمامًا.»

If it could be demonstrated that any complex organ existed[,] which could not possibly have been formed by numerous, successive[,] slight modifications[,] my theory would absolutely break down.

chapter 6 (p. 189) of On the Origin of Species (1859, Murray: London),

انتهى كلام داروين.

ولذلـك سـنحاول هنا أن نتنـاول نقطتـين: أولاهما هي قضيـة التصميم الذكي (ID) والتي أثارها وليم بالي (William Paley) في عام 1802 في كتابه (Natural Theology) والتـي تتلخص في أن التعقيد الموجود في الحياة لا يدل إلا على مصمم ذكي (Intelligent Designer).



النقطة الثانية والتي تعتبر مشتقة من الأولى، والتي أثارها مايكل بيه (Michael Behe) عام 1996 في كتابه صندوق داروين الأسود (Darwin's Black Box) والتي تتلخص في أن بعض التصميمات شديدة التعقيد يستحيل وجودها بشكلها الحالي عن طريق النشوء والارتقاء الطبيعي لا لاستحالة حدوث ذلك عقلًا فحسب كما تذهب قضية التصميم الذكي، ولكن أيضًا لأن احتجاب أي جزء من ذلك التصميم الذكي لا يمكن للأجزاء المتروكة (المتواجدة غير المحتجبة) أن تقوم بالغرض الذي تفعله الأجزاء جميعها الآن.

والنقطتان تحتاجان لبعض التفصيل:

أولًا: التصميم الذكي:

كما أسلفنا، قام وليم بالي بعرض تلك القضية في أوائل القرن التاسع عشر واشتهر مثاله لتقريب الصورة باسم الـ(Watch Maker) أو صانع الساعة وهي تتلخص في النقاط التالية:-

1- الساعة معقدة.
2- الساعة لها مصمم ذكي.
3- الحياة معقدة.
4- الحياة لها مصمم ذكي.

ورد عليه معظم التطوريين وبعض أنصار فكرة الـ(Theistic Evolution) (مثل Francis Collins) في كتابه: (The Language of God) بقولهم: إنه ليس من الضروري في حالة اشتراك شيئين في خصلة معينة أن يشتركا في كل الخصال. فمثلًا:

1- التيار الكهربائي في منزلي يحتوي على الإلكترونات.

2- التيار الكهربائي يأتي من شركة الكهرباء.

3- البرق يحتوي على الإلكترونات.

4- إذن البرق يأتي من شركة الكهرباء !

وفي نظري أن فكرة التصميم الذكي لها وجاهتها على الرغم من الاعتراض السابق الذي أرد عليه بالآتي:

أولاً: المقارنة بين المثالين ذات جهة منفكة:

فالمثال الأول (الساعة) يتلخص المثال في أن مصدر أي شيء معقد هو مصمم ذكي فلو اتفقنا على أن الساعة والحياة معقدتان فإن استنتاج أن الحياة ذات مصمم ذكي في محله.

أما في المثال الثاني (التيار الكهربائي)، فإن المثال لا يقول بأن أي شيء يحتوي على إلكترونات يأتي من شركة الكهرباء (لأنه لو قال بذلك لاعترضنا على النقطة «1» من البداية)، ولكنه كأنه اختزل الأربع نقاط في الثلاث نقاط الآتية:

1- أي شيء معقد له مصمم ذكي (ومثال ذلك الساعة).

2- الحياة شيء معقد.

3- الحياة لها مصمم ذكي.

أو بشكل آخر:

1- لو كل س له م .

2- ولو كل ب ضمن س.

3- إذا ب له م.

وفي الحقيقة أن استخدام Paley بالي للساعة هو مجرد مثال لا يحصر المقارنة فيها فقط. فكأن لسـان حاله يقـول: كل شيء معقد له مصمم ذكي. وكمثال على ذلك: الساعة.

وليس كما يصور المعارضون أنه يقول: بما أن للساعة المعقدة مصممًا ذكيًا، فإن للحياة أيضًا مصممًا ذكيًا!

والحقيقـة أن أمثلة الأشـياء المعقدة التي يتحتـم أن يكون لها مصمم ذكي أكثر من أن تحصى.

أمـا مثال التيـار الكهربائي، فكان من الأجـدى أن يكون كالآتي ليصلح كمقارنة لمثال الساعة:

1- كل تيار كهربائي يحتوي على الإلكترونات له مصدر.

2- التيار الكهربائي في منزلي له مصدر (شركة الكهرباء).

3- التيار الكهربائي الناتج من السماء له مصدر (البرق).

و بعد ذلك التوضيح، نسـتطيع القول إن المثال الأول (الساعة) هو مثال مصدره عام واسـتنتاجه (الحياة) خـاص، أما المثال الثـاني (التيار الكهربائي فهو مثال من الخاص(تيار المنزل) يصل إلى العام وهو التيار الكهربائي الناتج من البرق يأتي من شركة الكهرباء) وهذا قطعًا خطأ بين.

وكان يجب على من يريد أن يعترض على قضية التصميم الذكي أن يعترض على النقطة الأولى في مثال الساعة لو أراد الاعتراض - أعني الاعتراض على فرضيـة أن كل تصميـم معقد له مصمم ذكي - فهل هـذا الافتراض هو من ضمن ما يعرف بالضرورة وبالبداهة Axiom أم أنه يحتاج لدليل؟!

عـلى الرغـم من أن الفطـرة تذهب إلى ذلـك الافـتراض (أن كل تصميم معقـد له مصمم ذكي)، فإن أنصار نظرية التطور يزعمون أن نظريتهم قادرة على تفسير ظهور تصميات معقدة بشكل عشوائي وطبيعي.

وكـما قال داروين لو أُثبت عكس ذلـك لتهدمت النظرية تمامًا . فهل هذا ممكن؟!

هـذا ما سـنتناوله في نقطتنـا التالية وهـي التصميات المعقدة غـير القابلة للتبسيط (Irreducible Complexity).

ثانيًا: التعقيد غير الممكن تبسيطه Irreducible Complexity :

ومحاولـة الـرد عليها بفكـرة الــ Spandrel والتي أثارها سـتيفن جولد Steven Jay Gold.

يقول أنصار تلك المسألة إن هناك بعض الصور في الكون عامةً وفي مملكة الحيوان والإنسان بصفة خاصة معقدة بطريقة معينة بحيث إنه من المستحيل عقـلًا وعمليًـا أن توجد تلك الصور دون وجود جميع عناصرها المركبة في آن واحد وفي شكلها الحالي. وذلك لأنها- في نظرهـم -لا يمكن أن توجد (عن طريق نظرية التطور مثلًا) من شـكل بسـيط مرورًا بشـكل أكثر تعقيدًا قليلًا ثـم أكثـر قليلًا وصولًا إلى شـكلها الحالي كثيـف التعقيد - لأنهـا لو وجدت عن طريق ذلك التصور، لعنى ذلك وجودها في طور أبسـط سـابق لتعقيدها الحـالي؛ وبالتالي لانقطعت وظيفتها قبل أن تصل إلى صورتها الحالية ! وذلك محال عقلًا (إلا لو كانت هناك خطة مسـبقة أو تصور مسـبق لشـكلها الحالي منذ بدايتها في أول مراحل تكوينها البسيط).

ولنلخصها بشكل مبسط نقول مستخدمين شرح مايكل بيه Michael Behe نفسه وهو أول من استخدم تلك المسألة تعضيدًا لفكرة التصميم الذكي.

إن التعقيد غير الممكن تبسيطه (Irreducible Complexity) هو النظام الواحد المكون من عدة أجزاء متداخلة متكاملة ومشاركة في وظيفة ذلك النظام الكلية بحيث لو تم استبعاد أي من تلك الأجزاء، لأدى ذلك إلى إبطال الوظيفة الحالية لذلك النظام» [1].

فلو تم إثبات ذلك أو بالأحرى لو تم العثور على نظام واحد أو أكثر ينطبق عليه التعريف السابق لهدم ذلك أركانًا قوية في نظرية داروين. وكأن مايكل بيه هنا يستخدم قول داروين نفسه بأنه «لو وجد نظام معقد يستحيل علميًا أن يوجد بشكل تراكمي وبتغييرات متتالية لفسدت نظريتي تمامًا».

فالآن لدينا سؤالان يطرحان نفسيهما:

الأول: ما قوة تلك الحُجة ؟ أعني - هل صحيح افتراض مايكل بيه أنه لو وُجد مثل هذا النظام المعقد، لفسدت نظرية داروين بالضرورة ؟!

الثاني: هل يوجد مثل هذا النظام أصلًا ؟ وهل هناك أمثلة عليه إن وجد؟!

ولنبدأ بالطرح الأول، الذي أراه في هذه المسألة أن منطقها صحيح لأن من العبث أن نسلم بأن نظامًا معقدًا (كنظام الإبصار مثلًا) المرتبط بنظام

(1) A Single system which is composed of several interacting parts that contribute to the basic function & where the removal of any one of the parts causes the system to effectively cease functioning (Darwin's Black Box P36 in 2006 Edition).

العين (الذي هو معقد كذلك) والمرتبط بمراكز الإبصار في المخ والذي هو شبكة معقدة أيضًا - نقول إنه من العبث بمكان أن نسلم أن مثل ذلك النظام يوجد على مراحل متباعدة فوجدت العين مثلًا قبل وجود مراكز المخ الصالحة لذلك؛ لأنه ببساطة وجود العين دون وجود تلك المراكز يسقط عنها وظيفتها الأساسية (الحالية) وهي الإبصار، وطبقًا لنظرية النشوء والارتقاء، لانتفت الحاجة لظهور العين أصلًا بشكل تراكمي لانتفاء الحاجة في وجودها من أجل البقاء ومن أجل تأقلم أكبر مع الطبيعة.

ولا يستقيم ذلك عقلًا إلا بأحد تصورين: **أولهما** ظهور مثل ذلك النظام المعقد مرة واحدة، **وثانيهما** هو وجوده عن طريق التطور ولكن بوجود خطة مسبقة وبالتالي وجود مخطط لها.

على الرغم من أن العقل قد يتقبل التصور الثاني، فإن ذلك التصور يهدم ركنًا أساسيًا (أو أكثر) من نظرية التطور التي نحن بصدد مناقشتها الآن وهو التطور الطبيعي «العشوائي» وأيضًا النشوء والارتقاء المعتمد كليةً (فقط) على التأقلم وعلى الصراع من أجل البقاء.

فأي صراع من أجل البقاء تنتصر فيه عينٌ غير مبصرة (و هي في مراحلها الأولى الأكثر تبسيطًا)؟! وأي تأقلم لمراكز إبصار دون وجود عين؟

ولماذا تعيش وتبقى قبل أن تصل إلى النظام المعقد الحالي؟!

بالطبع، لم يهدأ لأنصار النظرية بال وحاولوا تفنيد تلك المسألة - أعني التعقيد المستحيل تبسيطه- وحاولوا الرد عليه بشتى الطرق بدءًا من محاولات للمحاكمة مثل محاكمة Kitz Miller كيتز ميلر عام 2005 ومثل رد ستيفن جاي

جولد (Steven Jay Gold) بفكرة الـ(Spandrel)؛ وبالتالي فكرة النتاج الثانوي الـ (Byproduct).

هـذه الفكرة التـي تبناها (Steven Gold) وسـانده فيها ريتشـارد لوينتين (Richard Leiontin) نسـتطيع أن نصورهـا بالنتاج الثانوي لبعض النحوتات القديمة التي تجدها في (Basilica Di San Marco) بفينيسيا حيث تخرج أشكالٌ معينة غير مقصودة سلفًا ناتجة عن الصورة الأساسية (انظر الشكل).

وهـذا الرأي أراه غـير كافٍ على الإطلاق وغير قادر عـلى الرد على فكرة التعقيد المستحيل تبسيطه.

فهـو قد يفسر مثلًا سـبب شـكل أو لـون بعض أعضاء الجسـم مثل لماذا كـرات الدم الحمراء ذات لون أحمر، مع أن ذلك اللون لا يكسـبها -على حد علمنـا الحـالي- ميزة من أجل البقاء عـن اللون الأزرق مثـلًا ولكنه لا يفسر كيفيـة ظهور الكـرات الحمراء أصلًا كنتـاج ثانـوي (Byproduct) ولا يفسر كيفيـة ظهـور نظام التنفـس أو الإبصـار المعقدين ولا يبرر ظهـور أعضائهما المعقدة عن طريق الـ (Spandrel) أو كنتاج ثانوي ولا يفسر ثانويته لماذا ؟!

وبناءً عليه، مازلت أرى أن حجة مايكل بيه ما زالت قائمة لأنه لو سلمنا بأن فكرة النشـوء والارتقاء تؤدي إلى أنظمة معقدة من بدايات بسيطة أو أنها حتى تحول أنظمة معقدة من وظيفة إلى أخرى (مع العلم أن النظرية الأصلية لداروين لا تدّعـي ذلك)-أقـول لـو سـلمنا بذلـك- وخاصـة الافتراض الأخـير، لعنى ذلك وجـود الآلاف من الوظائف المختلفة السـابقة للوظيفة الحالية للنظام المعقد وهو ما لا يدعيه العلم؛ وبالتالي يصبح رد سـتيفن جاي جولد مجرد افتراض غير علمي لا يعتد به إلى أن يجيء ما يؤيده علميًا.

الجديـر بالذكر والمضحك المبكـي في آن واحد أن علـماء الأنثروبولوجي (علم الإنســان) وعلماء البيولوجي (علم الأحياء) وعلماء الـ (Psychology) (علم النفس) غير المؤمنين بالله والمؤمنين بالتطور يتخبطون كثيرًا في تحليلهم لظاهـرة التدين المنتشرة تاريخيًّـا وجغرافيًّا في أنحاء العالم كله، فيسـتخدمون فكـرة النتـاج الثانوي أو الــSpandrel كتبريـر لاعتناق غالبيـة البشر لفكرة وجود الخالق القادر القيوم على مر التاريخ.

فيقولـون (مثل سـكوت أتـران - بالتاء واكتبه بالطاء إن شـئت!) (Scott Atran) في كتابـه «في الإلـه نثـق» (In God have trust) إنـه يجـب التفرقة بين أمريـن عنـد دراسـة التطـور المـادي (Physical Evolution) وهـو التمييز بين الصفات أو العادات المتأقلمة (Adaptive Traits) مثل وجود خلايا دم قادرة على نقل الأوكسـجين وبين الصفـات «الثانوية» (الناتجة عـن المتأقلمة) مثل احمـرار تلك الخلايا مثًـلا. ولكنه نسي أن يذكر لماذا تكـون جميع الخلايا ذات لـون أحمر على الرغم من أن التطور العشـوائي الذي تفرضــه النظرية (أعني نظرية التطور) كان يحتم أن توجد ألوان شتى لتلك الخلايا؟!

وبالتالي فهو وأمثاله يرون أن مخ الإنسان الأكبر حجمًا من الحيوان هو من قبيـل الــ(Adaptive Traits)، أما فكرة وجـود الله أو بعض الصفات العقلية الأخـرى فهي من قبيل الصفات الثانوية بسـبب كبر حجـم المخ. ونسي مرة أخـرى أن يقول لنا لمـاذا نجد بعض الصفات (الثانويـة في نظره) مثل الوفاء والشجاعة ... إلخ موجودة في مملكة الحيوان ذات الأمخاخ الأصغر حجمًا إن كانـت موجودة في الإنسـان فقط كنتاج ثانوي لكبر حجـم المخ ؟!! وتبريره أيضًا لا يفسر كيف يكون التدين مثلًا صفةً ثانوية لكبر حجم المخ؟!

ولنعد مرة أخرى إلى قضية التعقيد غير القابل للتبسيط وإلى الطرح الثاني وهل توجد مثل هذه الأنظمة المعقدة غير الممكن تبسيطها ؟!

يقدم لنا مايكل بيه مثالًا على فكرته وهو مثال مصيدة الفئران (Mouse Trap Analogy) والتي تتكون من خمسة أجزاء متكاملة: القاعدة، والسوستة، والفخ، والشاكوش، والجزء الخشبي. ولو طرحنا أحد هذه الأجزاء جانبًا، لا تقوم المصيدة بوظيفتها. وبالتالي لو افترضنا نشوء وارتقاء تلك المصيدة على مدار الزمن ولو أرجعنا الزمن للوراء (reversible) لوجدنا أن كل الأجزاء ما عدا جزءًا واحدًا أو أكثر لم يعد لها فائدة ووظيفة مثل الوظيفة الحالية.

وتفتق ذهن بعض الظرفاء عن القول إننا نستطيع الاستغناء عن القاعدة لو وضعنا باقي الأجزاء الأربعة على الأرض واستخدمنا الأرض كالقاعدة، وهذا الرأي مع طرافته لا ينفي ضرورة وجود قاعدة أيًا كان شكلها!

أما بعض الظرفاء الآخرين الأكثر ذكاءً، فذهبوا إلى ما ذهب إليه كينيث ميللر (Kenneth R. Miller) بأنه يستطيع استخدام قاعدة المصيدة كمضرب للكرة !! وهو يقصد هنا وجود ضرورة ووظيفة مختلفة لوجود تلك الأجزاء منفصلة ثم وجود ضرورة ووظيفة عندما اجتمعت جميع العناصر الحالية !

ونرد بأن عليه إذًا أن يقدم لنا بشكل علمي وظائف لبعض عناصر الأنظمة المعقدة والتي سرد مايكل بيه بعضها كما سيأتي ثم أن يجيب أيضًا عن السؤال التالي:

هل هذه الوظيفة السابقة مرتبطة بالوظيفة الحالية أم لا ؟ هل هي أبسط منها في السلم التصاعدي ؟ ! أم هي غير مرتبطة بها أصلًا؟

فإن كانت مرتبطة بها، فكيف استقامت دون وجود العناصر المكملة لها؟

وإن كانـت غـير مرتبطـة فأيـن هـذه الوظيفـة الآن ؟ ولماذا لم تبـقَ مع أن وجودهـا كان أدعى لتأقلـم وبقاءٍ أكثر؟! وفي الحالتـين، يجب أن يخرج علينا أنصار ذلك الرأي بأمثلة علْمية لكل الأنظمة المعقدة والتي يعطي مايكل بيه بعضًا منها كالآتي:

1- Bacterial Flagellum

2- العين.

3- Human Blood clothing Cascade

بالإضافـة إلى الأمثلة السـابقة التي سـنوضحها بشيء مـن التفصيل، فإن مايكل بيه يرى أن الخلية نفسـها تحتوي على آليات مذهلة مترجمة لـ« RNA» إلى بروتينات وأخرى تسـاعد الخلية على الحركة وغيرها مرسـلة للإشـارات من سطح الخلية إلى النواة مسافرة عبر طريق معقد المحتويات.

أولًا: الـBacterial Flagellum:

استخدم مايكل بيه هذا المثال ليبرهن على فكرته كالآتي:

تسـتخدم كثير من أنواع البكتيريا ما يسمى بالـFlagella وهي عبارة عن «موتور» خارجي يمكن البكتيريا من المناورة في الاتجاهات المختلفة.

تتكـون الـــFlagella الواحـدة مـن حـوالي ثلاثـين نوعًا مـن البروتينات المختلفـة ونسـتطيع اعتبارهـا (أعنـي الـــFlagella) – جهـازًا دقيقًـا وبديعًا مصنوعًا بواسـطة هندسـة النانوتكنولوجي! تحتوي الـBacterial Flagellum عـلى Base anchor وDrive Shaft وUniversal Joint كل هـؤلاء يصنعون معًا الـPropeller !

لـو عجز واحد من الثلاثين بروتينًا عن العمـل من خلال التحور الجيني Mutation (أو التطور) لفشل الجهاز كله في أداء وظيفته.

و النقطة التي يدافع عنها هنا مايكل بيه، هي أننا لو حتى لو سلمنا جدلًا بأن واحدًا من هذه الأجهزة الدقيقة قد ظهر بالصدفة العشوائية، لم يكن لهذا الجهاز أن يستمر لولا وجود الأجهزة الأخرى تزامنًا معه ولانتفت الحاجة في بقائه.

ثـم يستند بعـد ذلـك إلى ديمسـكي (Dembski) الـذي حـوَّل القضيـة إلى معادلـة حسـابية، خلـص إلى أن احتمالية وجـود هذه الأجهـزة بالصدفة العشوائية تكاد تكون صفرًا!!

وفي الواقع أني أرى أن هذه الحجة قوية بمكان إلا في حالة واحدة:

لو استطاع أنصار التطور إثبات أن كل واحدٍ من هذه الأجهزة (المتكاملة في الوظيفـة اليـوم) كان لـه وظيفة محـددة أخرى تسـاعد على البقـاء قبل أن يتكاملـوا جميعًا كما نراهم اليوم، وعلى سـبيل الدقـة، لو أثبتوا أن «أصل» كل واحـد مـن هذه الأجهـزة كان لـه وظيفة محددة سـاعدت الكائـن الحي على مواصلة رحلته المزعومة عبر مئات الملايين من السـنين ليصل إلى شـكله كما نراه اليوم، ويفسرون أيضًا كيف استطاع التحور الجيني العشوائي (Random Mutation) أن يؤدي إلى ترابط تلك الوظائف المختلفة وأن يترك كلٌّ وظيفته ليتكامل مع غيره ليخرجوا علينا بالوظيفة التي نراها اليوم.

وفي الواقع أن هناك بعض المحاولات للرد على فكرة مايكل بيه- أعني التعقيد المستحيل تبسيطه- ومنهم فرانسيس كولنز (Francis S. Collins) في كتابه الماتع (The Language of God) وفرانسيـس كولينز هو قائـد فريق البحث الخاص

بالـ(Gerome) وهو ترجمة الجينوم البشري (أي محاولة معرفة وظيفة وخاصية كل جينـات الإنسـان) وعلى الرغـم من إيمانه بالله (بعـد أن كان ملحدًا) فإنه أحـد العلـماء الذيـن لا يعترفون بفكـرة الــ(Irreducible complexity) ويرد عليها بفكرة نسخ الجينات (Gene duplication) عن طريق التطور.

فلو افترضنا وجـود جين «أ»، فمع مـرور الوقت يستنسـخ إلى جين «أ» مثلـه ومـع مرور وقت أكـبر يتحول إلى شـكل متطور من الجـين أ ولنقل أ- مثلًا.

والجـين «أ» المستنسـخ حـر في كيفية تطـوره دون وجود قيـود راجعة إلى وظيفته الآتية لأن جين «أ» الأصلي يقوم بهذه المهمة؛ وبالتالي عندما يُستنسخ الجـين «أ» إلى صـورة طبق الأصل منه (أيضًا)، تسـتطيع «أ» المستنسـخة أن تتحـول إلى أي شـكل ولنقـل أ- والتـي تأخـذ وظيفة جديدة وهكـذا، دون التأثـير سـلبًا على وظيفـة «أ». وعلى الرغم من أن أغلـب التحورات الجينية هي سلبية، فإن التطورات الإيجابية قليلة العدد تبقى وتتطور وهكذا...

والسؤال - الذي أراه ما زال قائمًا هنا - هو كيفية ظهور نظام معقد مكون مثلًا من جينات: أ وأ- وأ= وأ≡ .... إلخ وما الذي يجعل كل هذه الجينات تترابط (بشـكل عشـوائي تمامًا) ليخرج لنا نظام بديع ومعقد مثل هذا ؟! ما الـذي يجعـل هذا النظـام يتكـون مـن (أ وأ- وأ= وأ≡ .... إلخ) ولا يجعل هناك علاقة بين (أ وب وجـ وجـ- ... إلخ) ؟ ثم لماذا يتطور الجين «أ» الذي هـو طبق الأصل من الجين الأصـلي «أ» إلى جين أ- ولا يتطور الجين الأصلي رغم تعرضه لنفس الظروف تمامًا؟

عقلي لا يستطيع أن يتقبل إمكانية حدوث ذلك بشكل عشوائي إلا في حالة واحدة وهي أننا نراه عشوائيًا في نظرنا نحن البشر ولكنه صنيعة مخطط بديع هو الخالق عز وجل.

ثم إنني أرى أن الوضع يبقى على ما هو عليه: لقد أثار مايكل بيه هذه القضية التي أراها منطقية بالشكل الفلسفي والمنطقي ورد عليه المعترضون بشكل فلسفي منطقي أيضًا (وإن كنت لا أراه دقيقًا تمامًا).

والبينة على من ادعى والدليل على من أنكر كما يقال؛ وبالتالي أرى أن من ادعى (مايكل بيه) قدم لنا بعض البينات والأمثلة مثل (Bacterial Flagellum) والعين وغيرها، فبقي الآن أن يقدم المعترضون الدلائل والتي أطالب بها كالآتي:

يجب ذكر وظيفة كل عضو من النظام المعقد السابق لوظيفته الحالية وإثباتها.

يجب شرح - بشكل علمي - كيفية تكامل الأعضاء المختلفة المكونة للشكل المعقد الكلي والتي دعاها إلى ذلك بشكل طبيعي وعشوائي حسب ادعاء نظرية التطور.

يجب شرح - على وجه الدقة وبشكل علمي - ترتيب الخطوات التي أدت إلى تلك الأنظمة المعقدة (والتي في تقديري كثيرة والتي أرى أن على أنصار فكرة التعقيد المستحيل تبسيطه أن يحاولوا حصرها قدر المستطاع)

كيف يفسر أنصار فكرة التطور الفجائي الـ (Irreducible complexity) وهي أصل نظرية شارلز داروين وليست التطور البطيء ؟!

ثانيًا: العيـــــن:

مثــال آخــر معقد هو العــين والذي يعترف داروين نفســه بــأن «افتراض أن العين بكل أعضائها المعقدة من إمكانية ضبط عدســتها حســب المسافات المختلفــة إلى الســماح بكميــات مختلفــة مــن الضــوء أن تدخــل إليها حســب الحاجــة من الممكن أن تكون قد تكونت عن طريق التطور» يبدو -وأعترف بصراحة- من العبثية في أعلى صورها» انتهى كلام داروين.

ولكنــه يعود ليقدم شــكلًا تصوريًّا عــن الخطوات المتتاليــة التي أدت إلى تكون ذلك العضو المعقد.

ونريــد أن نذكــر أن المشــكلة التــي يواجههــا التطوريــون هنا ليســت مطالبتهــم بتفســير كيفيــة تطــور الأعضــاء البســيطة لتصل إلى شــكلها الحــالي المعــقــد فقط، ولكــن أيضًا مطالبتهــم بتقديم صورة علمية لتفســير إمكانيــة ظــهــور الأنظمة المعقــدة ذات الأنظمــة المتكامــلة المختلفة والتي لا يمكــن تصور تبسيطها.

وعلى الرغم من وجود كائنات بســيطة ذات حساســية للضوء، فإن ذلك لا يفسر تكامل أعضاء العين المعقدة وكيفية ربطها بعضها ببعض بل بالمخ بل وبالشبكة العصبية أيضًا.

والعجيب أن المتأمل في جسم الإنسان، يجد أن العين ليست أعقد الأنظمة بــل إن هنــاك أنظمــة أخرى نتحــدى بها أنصــار التطــور أن تكــون تطورت بشــكل عشــوائي دون تصميم وتخطيط مســبق نسرد بعضها على سبيل المثال لا الحصر:

1- الجهاز العصبي المركزي CNS (Central Nervous System)

والذي يتكون من: (على سبيل المثال لا الحصر):

(أ) نظام الإحساس (System of Sensors): وهو المسئول عن الإخبار عن أي تغيرات بيئية (سواء داخل أو خارج الجسم) ثم تحويلها إلى رسالات عصبية (Nervous Stimuli). إنها تساعد الأعضاء على التفاعل مع الخارج وأيضًا تمكنه من الوعي الداخلي (Self perception).

(ب) الشبكة العصبية (Network of Nerves): تصل بكل جزء من الجسم وتوصل الـ (Sensors) بالجسم لتعطي الأوامر العصبية.

(جـ) الجهاز النيوروني المركزي (Centralized Neural System): والذي ينشأ ويتذكر الاستجابة للمؤثر من خلال الشبكة المعقدة، ويحتوي على الـ (Encephalon) والذي يزن حوالي 1300 جم من النيورونات المدمجة وأيضًا يحتوي على امتداد للـ (Encephalon) وهو الـ (Spinal Marrow) والذي يحتوي بدوره على الـ (Spinal Cord) والذي يربط جميع أعضاء الجسم بالـ CNS وهي علميًا تسمى بالـ (Autonomous Nervous) لأنها تحتوي على سلوك وأداء غير مقيد بجهد ذي وعي وتسمى أيضًا (Vegetative System) لأنها «أوتوماتيكيًا» تضبط وتنظم الوظائف الحيوية الأساسية للجسم بتحفيز أو إبطال بعض الوظائف الحيوية حسب الحاجة مثل وظائف القلب والوظائف التنفسية وبعض الإفرازات الـ (Acidic) للمعدة وحركة المصران ... إلخ !!

فهل يقبل العقل المنصف أن تكون مثل هذه الوظائف المتناسقة المترابطة بشكل بديع قد تطورت بشكل عشوائي دون عقل مدبر حكيم خبير ؟!!

وإذا سلمنا بأن مثل هذه الأنظمة قد تطورت، فما هو المبرر العلمي لنسلم بأنها تطورت بشكل عشوائي دون إرادة مسبقة ؟!

قد يستطيع المرء أن يتفهم اعتراض بعض العلماء على فكرة التصميم الذكي (Intelligent Design ID) أو حتى على الأنظمة المعقدة غير القابلة للتبسيط، ولكن السؤال الذي يحير البعض هو: لماذا قد يعترض بعض العلماء وغير العلماء المؤمنين بوجود الله عليهما أيضًا؟!

يذهب فرانسيس كولينز (وهو من العلماء المؤمنين المتدينين بعد أن كان ملحدًا) وصاحب مشروع الـ(Genome) كما أسلفنا إلى أن فكرة الـID تؤدي إلى إله للثغرات (God of Gaps) وهو ما يمثل خطورة على الدين أكثر من الدفاع عنه.

فهو يرى أن إلحاق الظواهر الطبيعية مثل الكسوف والخسوف والبرق والزلازل...إلخ إلى فعل مباشر من الإله، يضع أصحاب الدين في حرج كلما استطاع العلم أن يفسر تلك الظواهر بشكل علمي وطبيعي.

وهو يرى أن ذلك التوجه انتقاص للإله الذي يضطر لأن يتدخل بين كل حين ليسد خللًا أو نقصًا في خطته الأولية (The Language of God 194 Edition 2006).

وهو هنا يذهب إلى توجه بدأ في البزوغ مع بداية القرن الحادي والعشرين بين العلماء وهو الـ(Theistic Evolution) وهو ما يسميه كلوينز الـ(Biologos) والذي يذهب إلى الآتي:-

1- أتى الكون إلى الوجود من لا شيء منذ حوالي أربعة عشر بليون سنة مضت.

2- على الرغم من استحالة (أو شبه استحالة) ذلك، فإن الكون يظهر وكأنه «ضبط Fine tuned» بدقة متناهية ليكون صالحًا للحياة.

3- على الرغم من عدم معرفة آلية أصل الحياة بدقة على وجه الأرض، فإنه وبمجرد ظهور الحياة، تدخلت عملية التطور والانتخاب الطبيعي لتسمح بالنمو والتباين الأحيائي والأنظمة المعقدة عبر الأزمنة العديدة.

4- أول ما تدخل نظام التطور في الكون لم تعد هناك حاجة لقوى من وراء الطبيعة أن تتدخل هي بدورها.

5- الإنسان جزء من عملية التطور وينحدر من أصلٍ مشترك مع أنواع من القردة العظيمة. Great Apes.

6- الإنسان كائنٌ فريد بشكل يعارض التفسير التطوري ويشير إلى طبيعته الروحية التي تحتوي على منظومة القيم (معرفة الخطأ من الصواب) وأيضًا البحث عن الله والذي يميز كل المجتمعات والثقافات الإنسانية عبر التاريخ.

وهـو هنا يرى أنه لـو تقبل المرء هذه النقاط الســت، تتضـح صورة نظام منطقـي يتقبلـه العقل وتقـره النفس وهـو أن: الله الذي لا يتقيـد بالزمان أو المكان خلق الكون ونظم السنن والقوانين الطبيعية التي تحكمه.

واختـار الله آليـة «التطور» ليخلـق الميكروبـات والنباتـات والحيوانات مـن كل نـوع. واختار أيضًـا أن يخلق مخلوقات خاصة (هي الإنسـان) تكون عندهـا الذكاء، والعلم بما هو صواب وما هو خطأ، وحرية الاختيار والرغبة في الوصول إليه. وكان يعرف مسـبقًا أن هذا الكائن (الإنسـان) قد يختار أن يخالف القانون القيمي الإلهي.

يـرى كولينـز أن هـذه الرؤية التوافقية تتسـق مع كل ما وصـل إليه العلم بخصوص العالم الطبيعي ويتسق أيضًا مع الأديان التوحيدية العظيمة.

ونحـن نـرى أن فكرة الـ Thiestic Evolution أو الـ Biologos كما أسـماها كولينـز ، قريبـة من المنطق في أغلبها وهي بالفعـل لا تعارض الدين أو العلم إلا قليلًا.

ونحـن نـرى أن معتنقي هذه الفكرة (مع ندرتهم بـين العامة وبين العلماء عـلى حد سـواء) ، أقـرب للحق من غيرهم مـن العلماء المؤمنـين بالطبيعة لا بغيرها ومن المتدينين الكافرين بالعلم.

ونحـن نـرى أن الاختـلاف بين هـذه النظـرة التوافقية وبين فكـرة «الله» خاصـة فيـما يعـرف بالديانات الثلاث السـماوية يكمن في تعـارضٍ مع نقطة وتباين مع نقطتين:

أمـا التعـارض فهـو مع النقطـة الرابعة والتـي تنفي أي تدخـل من وراء الطبيعـة (أي الغيـب وهـو الله) في الكـون بعد خلقه. وتلـك الديانات ترى بشـكل أو بآخر أن الله هو قيوم السـماوات والأرض وأنه كل يوم هو في شأن من شئون عباده وأنه يمسك السماوات والأرض أن تزولا ...إلخ وأنه – ولو جـاز لنا التعبـير (ولله المثل الأعلى) – قائمٌ على صيانة هـذا الكون من التلف ضد الـــ (Entropy) إلى أجل هو يعلمه ﴿يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَاۚ﴾ وأن ملائكته ورسـله يقومون – بأمره – بخدمة ما بعد البيع – (ولله المثل)– فهو قيوم السـماوات والأرض وأن قيوميته هذه ليست عامة فحسب بل هي خاصـة لـكل من عباده لأنه (كل يوم هو في شـأن) «من شـئون عبـاده» وأنه بعلمه المسبق عن الزمان والمكان يتدخل بمعجزات يراهـا العلم كخوارق

للعــادات ولكــن من الممكــن عقلًا تقبلها كــما قد يقبل بعــض العقلاء أمورًا كثيرة من الســحر والحســد والتخاطر والرؤى أو حتــى التكنولوجيا الحديثة التي كانت ستعد من المعجزات في عصرٍ سابق لها، وخــوارق العادات هذه لا ينفيها العلم لأنها واقعية ولكن لا يســتطيع تفسيرها لأحد سببين: إما لأنه (أعنــي العلم) لم يصل إلى علمها بعــد ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ وإما لأنهــا (كبعض المعجزات) خارجة أصلًا عن الطبيعــة وهي خوارق للطبيعة مــن الله ولا أجد أنه مــن الصعب بمكان ألا يتقبلها مــن تقبل أن هذا الكون نفسه قد جاء بمعجزة من «خالق» عليم خارج عن الزمان والمكان.

ولكــن على العكس، أرى أن تقبُّلَ وجود خالــق لهذا الكون وليس بقيوم عليــه أمر يصعــب تقبله عقلًا، أكثر مــن وجود خالق له يضمن اســتمراريته لأجلٍ مسمى.

هذا بالنســبة للنقطة الرابعة، أما بالنسبة لاختلافنا مع النقطتين الأخريين فهو مع النقطة الثالثة والخامسة.

فكما حاولنا أن نستعرض في عرضنا الموجز لنظرية داروين، نرى أننا نقبل بالتطــور الرأسي بين الفصيلــة الواحــدة (Micro Evolution) بإمكانية التطور الأفقي بين بعض الفصائل المتشابهة (Macro Evolution) بشكل نادر، ولكننا في نفــس الوقت ، نرى أن الزمن لا يكفــي أن يكون أصلُ كل هذه الكائنات المختلفــة واحدًا أو اثنين أو عددًا لا يتعدى أصابع اليدين ونرى أن الإنســان وهو في المرتبة العليا للكائنات ، ذو خاصيةٍ فريدة تمكنه من نقد الذات وتمكنه من محاولة تفســير وجوده وتمكنه من الوصــول إلى منظومة قيمية عالمية، وذو احتياج مُلِحّ إلى الدين وإلى الإيمان بالغيب.

نـرى أن كائنًـا فريدًا كهذا ذا خصائص فريدة كهـذه، له أصل فريد أيضًا وأنه من الصعوبة بمكان أن يشـارك كائناتٍ أخرى في الأصل وأنه قد يكون قـد ظهـر إلى الكـون - كما أسـلفنا ونحن بصـدد مناقشـة النقطـة الرابعة - بشكل خارق للعادة وأنه نظرًا لتركيبته الطبيعية المستخرجة من الأرض (كما يذهب المتدينون) ، نرى أنه لا عجب أن يتشابه في شكله الخارجي وأيضًا في تركيبته الداخلية (من DNA وخلافه) مع بعض المخلوقات الأخرى كالقردة العليا أو غيرها ...[1].

وعـلى الرغم من أننا نـرى أن هذا أقرب للمنطق العقلي فإننا لا ننفي تمامًا ادعاء التطوريين بأن الإنسان يشترك مع القردة في أصل واحد ولكننا نرى أن هذا الحل هو أقل فرصةً لتقبله منطقيًا وأنه حتى لو صح، لا يكون حجة ضد الدين أو ضد فكرة وجود الخالق كما حاولنا أن نبين في الفقرات السابقة.

ويـرى العديد من العلماء خاصة في العقـد الأخير، أنه لا يمكن أن يكون التطور عن طريق الانتخاب الطبيعي هو الآلية الوحيدة التي تؤدي إلى ذلك ويقول ماسيمو بيجلوشي (Massimo Pigliucci) وهو عالم تطوري في جامعة (Stony Brook) بنيويـورك إنه مقتنع بأن من أعظم الظواهر العلمية الغامضة في علـم الأحيـاء حاليًا السـؤال عن لـو كانت آليـة الانتخـاب الطبيعي هي الآلية الوحيدة القادرة على إيجاد الكائنات المعقدة، أم أن هناك آليات أخرى

(1) فكما يقول مايكل دنتون (Michael Denton) وهو باحث طبي «لا أدري» من أستراليا في كتابه التطور: (نظرية في أزمة) (Evolution: A Theory in Crisis) إن الادعاء أن التشابه الموجود لدى القدمين الأماميتين للـ Amphibians والـ Reptiles والـ Birds Mammals البرمائيات والسحالي والطيور والثدييات هو دليل على أصل مشترك لهم، هو ادعاء باطل أو غير مؤيد علميًا لأن هذه الفصائل Classes من الفقريات مرَّت بمراحل مختلفة من النمو الجيني المبكر وهو ما لم يتنبأ به داروين في نظريته للتطور.

وعناصر أخرى للمادة تدخل في هذا النطاق أيضًا وأظن أن الاحتمال الثاني هو الذي ستثبت صحته».

فما بعض هذه الآليات المقترحة ؟ بالإضافة إلى الانتخاب الطبيعي (Natural Selection) وهي ببساطة الآلية التي تسمح للكائنات الأكثر تأقلمًا بأن تنتج (تلد) أكثر من غيرها والتي؛ بالتالي تنقل للأمام إلى أولادها هذه الجينات التي أعطت لأبنائها تلك الميزة- بالإضافة إلى هذه الآلية المقترحة، هناك ما يلي:

- Genetic Drift: آلية عشوائية تلعب المصادفة دورًا في تحديد أي جينات مختلفة (عن آبائها) هي التي تعيش وتبقى.
- Migration وأ Gene Flow: تحدث تلك الآلية عندما تنتقل الجينات من مجموعة Population إلى أخرى.
- Mutation: التغيرات في الـ DNA تغير جميع حياتها.

الغريب أن آخر الاكتشافات الحديثة تقترح أن تكون الحيوانات قد ظهرت في البحيرات وليست المحيطات مما يضع علامات استفهام عن سبب عدم ظهور تلك الحفريات في Marine Sediments كما كان متفهمًا بل في بحيرات قديمة Ancient lakes مما يجعل سبب وكيفية بدء ظهور الحيوانات ما زال غير معلوم ويرجح أن أول الحيوانات كانت أكثر انتشارًا وعددًا مما كان متوقعًا وقد يغير مفهومنا لنظرية التطور ككل !

ونحن نرى أن مشكلة المتدينين الأساسية ليست مع نظرية التطور التي حاول أن يصوغها داروين، ولكن مع الخلفية الفلسفية الاجتماعية التي استخرجها «الطبيعيون» (Naturalisms) الماديون منها والذين يرون أن

الطبيعـة ما هي إلا نظام مغلق من الأسـباب والنتائج ولا يمكن التدخل فيه من خارج ذلك النظام.

مـع أن هـذه النظرة (أعنـي الطبيعية الماديـة) أو بالأحـرى المادية الجدلية (الديالكتيكيـة) [1] لا تنفي بالضرورة وجود الله، إلا أنها تجعله غير ذي صفة ولا ذي علاقة بالكون (سبحانه وتعالى عن ذلك علوًّا كبيرًا).

وفضلًا عن النتيجة الخطيرة للمادية بعزل الله عن الكون (وبالتالي قد تنبثق منها العلمانية والتي تعزل الدين عن الدولة أو الدين عن الحياة - حسب أي تفسير تعتقده وأي درجة متطرفة للعلمانية تأخذ به) فهي بالإضافة إلى ذلك، تـرى أن التطور العشـوائي والانتخـاب الطبيعي يعنيان ضمنيًّـا أنه لا يوجد هـدف ولا إله ولا خطة مسـبقة لهـذا الكون وبالتالي لا توجـد قوانين مطلقة للقيم الإنسانية وبالتالي لا يوجد صواب أو خطأ ولكنها العشوائية والفوضى في أجـلِّ صورها وأن الخير في اللذة فقط وأن الشر في الألم فقط ولا شيء غير ذلك.

والطريف أن معتنقي هذه النظرية ، هم الذين يأخذون على الدين قساوته ويدَّعون أن الدين هو سبب الحروب المقدسة، وهو سبب قتل الأبرياء ...إلخ. فلماذا يعتبرون هـذه الحروب شرًّا وهذا القتل خطيئةً وهم الذين لا يعترفون بالخطأ والصواب أصلًا أو - على الأقل - لا يستطيعون تعريفه وتحديده ولا يوضحون لنا ما مقياس الصواب والخطأ لديهم إلا باللذة والألم؟!

---

(1) والتي تبناها كارل ماركس وأنجلز وغيرهما: يقول ماركس: «الدين زفرة الكائن المثقل بالألم، وروح عالم لم تبق فيه روح، وفكر عالم لم يبق فيه فكر، إنه أفيون الشعب، إذن فنقد الدين هو الخطوة الأولى، لنقد هذا الوادي الغارق في الدموع»!. كارل ماركس: 16 والدفاتر الفلسفية: 2 ص: 53 - 57.

الباب الثالث

أطروحات بديلة متنوعة

والآن بعد أن حاولنا أن نعرض فكرة التطور لدى داروين ومن بعده، بقيَ لنا أن نتعرض لأفكار أخرى ونحن في معرض تقييم النظريات البديلة لقضية الدين والآثار المترتبة عليها وهي النقطة الخامسة (ص14).

الفكرة الأولى المنبثقة عن المادية هي العلمانية والعلاقة بين ما هو نسبي وما هو مطلق.

والفكرة الثانية هي نظرية الفوضى أو الـ (Chaos Theory).

والفكرة الثالثة هي عرض لبعض أفكار فرويد والعدمية.

والفكرة الرابعة هي الوجودية سواء الذاتية أو الأنطولوجية (هل موجود).

والفكرة الخامسة هي اللاأدرية.

أولًا: العلمانية:

يعتبر تعريف العلمانية من أكثر التعاريف الخادعة والتي يعرِّفها الناس تعريفات مختلفة مما يؤدي إلى خلافهم حولها حتى قبل الاتفاق على المعنى فبينما يراها البعض وتبعًا لنشأتها التاريخية: فصل الكنيسة عن الدولة، يراها الآخرون بشكل أكثر تعميماً بأنها فصل الدين عن الدولة، وبينما يعتبر التعريف الأول صراحةً أن الدين اللازم فصله عن الدولة هو الدين المسيحي معبرًا عنه

«بالكنيسـة»، إلا أن التعريف الثاني يعتبر أكثر تعميماً ويشـمل فصل أي دين عـن الدولة، ونرى أن التعريف الأول علاوةً عـلى أنه التعريف الملازم للفظ تاريخيًـا، إلا أن مـا نراه أكثر تحديدًا لفصل دور الكنيسـة عن الدولة؛ وبالتالي تقتصر العلمانية بهذا المفهوم على المجتمعات المسيحية وعلاقتها بالدولة.

أما التعريف الثاني فهو لا يحدد معنى وافيًا كافيًا للفظ «الدين»، وهل هو أي معتقد يدين به الشعب أو الحاكم أم يقتصر على المعتقدات الإلهية/ الغيبية فقـط؟ ولكن يبدو أن هناك ثمـة اتفاق أن «الدين» هنا يُعنى به المعتقد الإلهي الموحى إليه من الله (المصدق به عقلًا أو الإيمان المصدق به قلبًا).

فإذا أخذنا بالتعريف الأول، فقد نخلص مثلاً إلى أن العلمانية لا صلة لها بالمجتمعات الإسـلامية والتي تنفي وجود رجال دين مالكين للحقيقة أصلًا ولكن مجرد علماء للدين يسـتطيع أي فرد من الشـعب أن يكون واحدًا منهم باتباع منهج علمى محدد.

والحقيقـة أن لفـظ «العلمانية Secularism» اسـتخدمه الكاتـب البريطاني جـورج هـولي أوك (George Holyoake) عـام 1846 ولكـن أصل الفكرة نفسـها أنها اسـتخدمت بفصل الفلسـفة عن الدين -أول ما استخدمت عن طريق ابن رشد ومدرسته الفلسفية، أما (Holyoake) فاستخدم لفظ العلمانية لتعبر عن إيجاد نظام اجتماعي منفصل عن الدين دون التعرض لنقد أو إهانة الدين نفسه.

ولفظ العَلمانية الذي نستخدمه في هذا البحث هو «بفتح العين لا بكسرها» دالًا عـلى العَالم لا العِلم كما يحلو للبعض أن يصوره أو ينطقه؛ وبالتالي تصبح وطيدة الصلة بالنظرة المادية للعالم وبنسـبية الخـير والشر وأنه كما يقول هولي

أوك في كتابه (English Secularism) المنشور عام 1896: إن المبادئ الأساسية للعلمانية هي ثلاثة:

1- تحسين هذه الحياة بالوسائل المادية.

2- أن العلم هو حماية الإنسان.

3- أنه من الخير فعل الخير حتى لو كان هناك خير غيره!

ويرى أنصار العَلمانية أنها الملاذ الأمثل لنبذ التعصب بين الشعوب وبين أفراد الشعب الواحد أيضًا ويشيرون في العصر الحديث إلى أمثلة مثل تركيا وماليزيا دون تبرير بعض أفعال القمع على بعض الفئات الدينية في تركيا مثلًا. ويرد عليهم المعارضون بأمثلة لدول نابذة للتعصب مثل الدانمارك، فنلندا، أيسلندا، النرويج، على الرغم من ربط دساتيرها بالكنيسة والدولة ورغم ذلك اعتبارها من أكثر الأنظمة تحررًا.

ما سبق كان على سبيل الأمثلة المعاصرة فماذا عن الناحية التنظيرية؟

يرى بعض أنصار العَلمانية أن تعريف العَلمانية [1] الصحيح هو أنها: «التفكير في النسبي بما هو نسبي وليس بما هو مطلق»، ومعنى هذا التعريف - في نظره - عدم مشروعية صعود النسبي إلى المطلق وعدم مشروعية إحالة المطلق إلى ما هو نسبي».

ولكنه على الرغم من ذلك فإنه يؤكد:- «أن عدم هذه المشروعية لا يعني- بالضرورة - انفصال العلاقة بينهما «النسبي والمطلق» ولكنها - في نظره- علاقة دياليكتكية - حيث يشير كل منهما إلى الآخر. وهو هنا لا يقدم

(1) مثل الأستاذ مراد وهبة.

تفسيرًا أو توضيحًا مقنعًا لمعنى «أن يشير كل منهما للآخر؟! فما شكل هذه الإشارة؟ وما مدى تداخل هذه الإشارة بكليهما ولا يوضح رأيه في كيفية عدم انفصالهما وفي نفس الوقت عدم مشروعية صعود النسبي إلى المطلق أو إحالة المطلق إلى النسبي ؟! ويبدو أن تعريفه «لصعود النسبي إلى المطلق» هو من قبيل «تحديد النسبي لهذا المطلق وأن تعريفه «لإحالة المطلق إلى النسبي» هو من قبيل تحكم المطلق في كل ما هو نسبي» [1].

وعلى الرغم من موافقتنا - ضمنيًّا-على استحالة «تحديد النسبي لما هو مطلق» إلا بإذن المطلق ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾،إلا أننا لا نرى استحالة منطقية في قبول «تحكم المطلق فيما هو نسبي».

وهذه العلاقة «الدياليكتيكية» (أعني تحديد النسبي وهو عقل الإنسان لما هو مطلق وهو الحقيقة المطلقة (أو إرادة الله الثابتة) من ناحية وتحكم المطلق وهو إرادة الله في النسبي وهو الإنسان ومجتمعه هي ما تعنينا في سياق حديثنا عن العلمانية وعلاقة الدين (المطلق) بالدولة (النسبية).

والجدير بالذكر أنه غالبًا في الحديث عن العلمانية يحاول المناقش للموضوع جاهدًا أن يعرِّف العَلمانية وسنأخذ هنا بتعريف «فصل الدين عن الدولة»- أقول يحاول جاهدًا أن يعرِّف الدين وأن يضع تعريفًا للدولة نفسها وهل نعني بها «الحكم أم التشريع أم ماذا؟»

ونرى أنه نعرف الدولة بسلطاتها المختلفة تشريعية، قضائية، تنفيذية، وسلطة حاكمة، وهل العلمانية هنا تعني فصل الدين عن كل هذه السلطات؟ أم فصلها عن الحكم فقط ؟!

---

(1) المصدق به عقلًا أو الإيمان المصدق به قلبًا.

فإن كانت فصلها عن الحكم فقط حتى لا تتحول إلى دولة ثيوقراطية فأهلًا بها ونعمت وهو تعريف العَلمانية الأصلي التاريخي الذي كان يعني فصل الكنيسة الحاكمة عن الدولة المحكومة.

أما لو كان يعني بها فصل أو تجنيب الدين عن باقي السلطات، فهنا ينشأ الاختلاف في نظري - خاصة في المجتمعات المتدينة.

ولنأخذ المجتمعات ذات الأغلبية المسلمة كمثال: ماذا يعني لو لم يتدخل الدين في سلطات تشريعية مثلًا. أي سلطات سنأخذ بها في أحكام الميراث مثلًا؟! وهل تسمح الديمقراطية بأن نجبر الأغلبية المسلمة على تشريعات مغايرة لمعتقداتهم أم أننا لو أخذنا برأي الأغلبية سنصل حتمًا إلى نفس النتيجة التي ستدل على رغبة الجماهير في أن يكون الدين أصلًا أساسيًا من أصول التشريع غيره من السلطات الأخرى إلا في حالة تغير كتلة تلك الأغلبية.

ولنرجع مرة أخرى إلى تعريف الأستاذ مراد وهبة والذي يشير إلى نقطتين أساسيتين:

1- استحالة الاتصال بين المطلق والنسبي إلا على سبيل الإشارة.

2- ضرورة العلمانية لنبذ التعصب ونبذ ازدراء الأديان.

ولنبدأ بالنقطة الأولى والتي كما أسلفنا نرى أن «إلا على سبيل الإشارة» جملة ما زالت مبهمة في نظرنا ولكننا جدلًا نقول إننا حتى لو وافقناه في رأيه الخاص بشقه الأول الخاص بهذه العبارة وهو استحالة تحديد النسبي لما هو مطلق - نقول إنه حتى لو صح ذلك، لا ينفي بالضرورة إمكانية تحديد المطلق لنفسه وإرسال هذا المفهوم لما هو نسبي. وبالتالي يكون تحديد المطلق

عن طريق نفسه لا عن طريق ما هو نسبي وهو ما لم ينفه توجه الأستاذ مراد وهبة.

من ناحية أخرى نوافق الأستاذ مراد وهبة أن تحديد النسبي لما هو مطلق سيكون نسبيًّا هو الآخر وسيؤدي بنا إلى النظرة الوجودية والتي تفسر الوجود لا من حيث كُنهه الحقيقي ولكن تفسيره بطريقة نسبية كما يراه كل إنسان على حدة وهو ما قد يؤدي إلى النظرة العبثية (Nihilism) كما ستعرض لهما في الفقرات القادمة (أعني الوجودية والعبثية).

ولكن خلاصة الأمر كما نراه، أنه لا استحالة عقلية أن يكشف المطلق (وهو الله الحق الثابت الذي لا يتغير) عن نفسه (عن طريق الرسل والأديان) لكل ما هو نسبي (وهو الإنسان) وبالتالي يبقى مجالًا أضيق في تحديد هذا المطلق تبعًا لتأويل النص أو الرسالة الدينية.

والتي يرى الكثير من علماء المسلمين مثلًا أن آيات القرآن منها ما هو محكم لا يقبل التأويل ومنها ما هو متشابه ويقبل التأويل ليكون صالحًا لكل زمان ومكان وأن سماح الدين بهذه الدرجة من الاختلاف في الآيات المتشابهة، يثري المجتمعات الإنسانية وأنه اختلاف تكاملي لا اختلاف تصادمي.

وبالتالي عدم فصل هذه التشريعات القابلة للتأويل (النسبية) عن كل ما هو نسبي (وبالتالي المجتمعات الإنسانية) لا غضاضة فيه من الناحية التنظيرية.

ولنا في التاريخ أروع الأمثلة على ذلك في عصور النهضة الإسلامية إذا أراد القارئ المنصف أن يرجع لها.

والتأويل - كما يفسره الدكتور نصر حامد أبو زيد في كتابه «مفهوم النص»- هو العودة إلى أصل الشيء وتعني أيضًا الوصول إلى «هدف وغاية» [1].

وبذلك يكون المؤول «منتميًا لمصالح الأغلبية معبرًا عنها، وأن يكون على دراية لا بالعلوم النقلية التقليدية فحسب، بل كل العلوم التي تساعده على فهم الواقع وإدراك حركته[2]. (العقيدة المطلقة والشريعة النسبية)..

وبذلك نخلص إلى نقطتين: الأولى هي نقطة التأويل والتي تضفي على النصٍ المطلق بعضًا من المرونة النسبية. ومن المنطقي أن يتولد في هذه النقطة سؤالٌ:

من المخوَّل له أن يؤول النص ؟ ومن هذا التساؤل نستطيع أن نوافق على بعض ما يذهب إليه أنصار العَلمانية إلى أنه لا يمكن أن يحيط النسبي بالنص المطلق إحاطة كاملة ولكن ذلك لا ينفي أن فهمًا مقاربًا لمراد النص من الممكن الوصول إليه من لدن المختص العالم.

هذا من ناحية، أما الناحية الأخرى فنريد أن نمايز بين نوعين من النصوص كما أسلفنا: المحكم والمتشابه، ويرى بعض أهل العلم أن المحكم من الآيات هو ما يتعلق بعلوم العقيدة والإيمان أما المتشابه فهو المتعلق بعلوم الشريعة ليسمح لها بأن تكون متعددة؛ وبالتالي صالحة للمجتمعات المختلفة في أزمنة مختلفة.

وبذلك فإن عبارات من قبيل: «الدين لله والوطن للجميع» تكون صحيحة إن كان يقصد «بالدين» العقيدة وهذا ما يؤيده النص في مواطن

(1) مفهوم النص - دراسة في علوم القرآن 449 - الطبعة الخامسة.

(2) مفهوم النص - دراسة في علوم القرآن 241 - الطبعة الخامسة.

عديدة منها ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ وهو ما يتعلق بالإيمان وعلاقة الإنسان بربه. أما إن كان يقصد «بالدين» أركانه الأخرى، مثل علوم الشريعة (الإسلام) وعلوم الحقيقة (الإحسان) وعلوم فقه الواقع كما جاء في حديث «جبريل عليه السلام»، فنحن نعتبر العبارة هنا تحتوي على لبس ومغالطة لأن التشريع وهو ما يحكم علاقة الإنسان بالإنسان وهو من صميم علم الاجتماع لا يجوز أن يكون لله دون أن يكون للوطن، ونكرر ونقول إنه بذلك لا يكون الوطن للجميع (فإن ذلك من المحال لاختلاف أهواء البشر) ولكنه يكون على أقل تقدير «للأغلبية» دون قمع للأقلية أو لحرية الفرد على حد سواء.

أما النقطة الثانية فهي نسبية المطلق ! وإن كان في هذه العبارة بعض التناقض اللغوي إلا أن المعنى الذي نقصده هو نسبية المطلق من منظور النسبي، فما يراه الأستاذ مراد وهبة مطلقًا، قد لا أراه أنا مطلقًا وقد أرى غيره وهكذا؛ وبالتالي فإدعاء الأستاذ مراد وهبة باستحالة تحكم المطلق في النسبي لأن في ذلك منعًا للنسبي من التطور بحكم ثبات المطلق، نراه - ادعاء غير دقيق لأنه من منظور النسبي يكون ذلك التحكم عن طريق فهم النسبي لنص المطلق وذلك الفهم لا نستطيع أن نصفه بأنه مطلق وبالتالي يمكن تحكمه في النسبي ولا يمنعه عندئذ من التطور.

ولا يعني ذلك عدم وجود المطلق ولكن يعني ببساطة عدم اتفاق النسبي على مطلق واحد وإن اتفقنا على خطوط عريضة له تكون كافية لفهم النص.

ولا يعني ذلك التصديق بوجود المطلق ونفي علاقته بالأرض؛ لأن تعدد الطرق لا يعني بالضرورة عدم وجود الهدف أو عدم وجود علاقة بين الهدف وأول الطريق. فمثلًا الهدف الكائن في أعلى الجبل يتطلب طريقًا تصاعديًا مثلًا وهذا يعني تأثير الهدف على شكل العلاقة -الطريق. (على الرغم من أن بداية الطريق في سفح الجبل والهدف في قمة الجبل).

وإذا أردنا أن نوضح هذه النقطة بشكل آخر نستطيع أن نقول إن أيَّ صفة للنسبية لا تكتسب إلا بوجود المطلق، وكما يقول الأستاذ «جمال البنا»: إن كل حديث عن نسبية لا بد أن ينتهي إلى وجود المطلق، وأقرب مثال لذلك - وإن كان بعيدًا عن هذا الموضوع - هو نسبية الحركة عند أينشتاين التي أدت به إلى الانتهاء إلى وجود مطلق للسرعة وهو سرعة الضوء.

ولكن السؤال الجدير بالذكر هنا: هل تعدد المطلقات (من منظور النسبي لأن المطلق واحد دائمًا) هل هذا التعدد يؤدي دومًا إلى صراع للمطلقات؟ نرى أنه ليس بالضرورة أن يكون ذلك (وإن كان من الممكن).

ليس بالضرورة خاصة وإن كانت هذه المطلقات ذات خاصية تسامحية ترحب بالآخر. بل من العجيب أننا نرى أن الدين ا لإسلاميَّ مثلًا يُسَمِّي بعض الأنبياء السابقين لظهور الإسلام بالمسلمين وكأن لسان حال النص يقول: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴾ (الأنبياء: 92) فكأنه يثبت أحدية المطلق، وإن اختلفت الرؤى تبعًا لاختلاف الإنسان (النسبي) واختلاف الزمان (المتغير بالضرورة).

والسؤال الذي يجب أن يطرح بوصولنا إلى هذه المرحلة الأخيرة في تعرضنا للعَلمانية هو :أيهما أصلح وأقرب لمصلحة الدولة ولمصلحة المواطنة الفردية؟

الالتزام بنسبية كاملة وهي ما تدعو به العلمانية أم الالتزام برأي الأغلبية الديمقراطي الذي قد يكون نابعًا من التشريع الديني حتى وإن اعترفنا بنسبيته سواء أقاربت فهم المطلق أم لا؟

ثم نسأل السؤال بطريقة أخرى: أيهما أقرب للظلم والعدوان: الالتزام بقوانين لا تحكمها أي مطلقات أو مقدسات (مثل تقديس حرمة القتل أو الزنا مثلًا) أم الالتزام بقوانين محكومة بنصوص تشريعية يعدها أغلب المواطنين مقدسة وأن تأويلها شبه مقدس وأن فيها معالجة الفرد والمجتمع على حد سواء؟!

أترك للقارئ الكريم الجواب آخذًا في الاعتبار أن السلطة بطبيعتها مفسدة إلا من رحم ربي، وأكبر مثال على ذلك نظاما هتلر والفاشية اللذان تأثرا بالثورات البلشفية المادية في تاريخنا المعاصر على الرغم من وصولهما إلى السلطة عن طريق الديمقراطية.

من الإنصاف أن نقول إن الدولة التي تستمد قوانينها من الشريعة يجب أن يكون أغلب مواطنيها متقبلين لذلك راغبين فيه، وإن تغير المجتمع قد يتغير المرجع، ولا غضاضة في ذلك؛ لأنه من قبيل الحرية التي يناشد بها الدين والعَلمانية على حد سواء وأن استمداد تلك القوانين من الشريعة لا يستدعي بالضرورة حكمًا دينيًا (أي ثيوقراطيًا – أي حكم رجال الدين

أو حتى علمائه)؛ لأنه يجب توافر المؤسسات المنوط بها ذلك وأيضًا الفصل بين تلك المؤسسات والهيئات الرقابية عليها.

ونستطيع أن نقول إن المجتمع الذي يسمح برفض تدخل الدين فيه سيفتح الباب على مصراعيه لآلهة أخرى من قبيل المال والجنس والإنسان، ونقتبس هنا من كتاب الأستاذ جمال البنا: «موقفنا من العَلمانية والقومية والاشتراكية» عندما مات رودلف فالنتينو انتحر العديد من النساء في أربعة أركان العالم الحديث... وفي المجتمعات الاشتراكية التي ثارت على هذه الآلهة البرجوازية وجدت آلهة من نوع جديد. وجد لينين الذي يدفن في مدفن على غرار أهرام المصريين وحنط مثلهم... كما ظفر ستالين وماوتسي تونج وهوشيمنه بمثل هذه المنزلة، وقامت عبادة الفرد وهي عبادة لها إكيروسها وكهنتها وليس هناك فرق بين المكتب السياسي «البوليتيرو» وكرادلة البابا في روما أو آيات الله العظمى في قم...» [1].

فالإنسان الذي يتطلع بطبيعته لإله يعبده قد وجد وازدهر في كل بيئة علمانية رأسمالية أو اشتراكية، ولهذه الآلهة جنتها ونارها، والخلاف الوحيد أنها في الحياة الدنيا وليست في الآخرة!! فزج زبانية الحكام في روسيا الشيوعية وألمانيا النازية [2] بالجماهير إلى السجون أو معسكرات للعمل بالسخرة.

وخلاصة قولنا عن العلمانية أنها وإن لم تنف وجود الله – المطلق – فإنها جنبته التدخل في شئون المجتمع، وهو ما نراه خطأً خاصة في المجتمعات

---

(1) جمال البنا: موقفنا من العَلمانية والاشتراكية والقومية – ص 48.

(2) أو حتى أمريكا الديمقراطية في العصر الحديث في عهد بوش الابن – سجون جوانتنامو.

ذات الأغلبية المؤمنة. وأراه خطأً خاصة بالنسبة للدين الذي يترك للمجتمع إدارة شئونه دون الاصطدام بقوانينه العامة.

ثانيًا: نظـريـــة الفــوضـــى أو الـ(Chaos Theory):

يستخدم غير المؤمنين قضية النظام في الكون بأن يذهب بعضهم إلى أن الكون يسير وفق نظام محدد وأنه من الممكن التنبؤ بكل كبيرة وصغيرة فيه تبعًا للقوانين التي تحكمه.

ويضلون السبيل – في رأيي – بأن يستنتجوا من ذلك أنه لا حاجة لوجود إله يتحكم في الكون لأن الكون يسير كالآلة، ناسين ومتناسين ضرورة وجود منشئ لتلك الآلة وقوانينها وضرورة أيضًا لوجود قانون لصيانة تلك الآلة – إن كانت كذلك (أعني إن كانت مثل الآلة). وتكلمنا عن بعض الآراء العلمية الحديثة التي ما زالت في مرحلة التطور المستنبطة من قوانين الكم ومن فكرة وعي الكون (Self Aware Universe).

وعلى النقيض يذهب البعض الآخر من غير المؤمنين بالخالق إلى أن ما يرونه من عشوائية في الكون، لهو دليل على عدم وجود إله خالق مدبر، ومشربهم في ذلك اتباع من سبق من إخوانهم الذين خلصوا إلى عدم وجود إله نظرًا لما يجدونه من آلام وشر في العالم. ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـًٔا﴾ فتارةً يخرجون علينا بحجة النظام وتارة أخرى يخرجون علينا بحجة عدم النظام، وأكثر ما يثيرون في مقام عدم النظام هو نظرية الفوضى أو الـ(Chaos Theory) ويتساءلون: كيف يستقيم أن يدير الكون إله حكيم، ونجد أمثلة على الفوضى في الكون ؟

وفي الحقيقة أن السـؤال يذكـرني بمن كان يقول إنه من المسـتحيل وجود مخلوقـات عاقلة على سـطح القمر لأنـه لا يوجد عليه أكسـجين! فمن الذي قال بأن عدم معرفتنا بمخلوقات عاقلة لا تعيش عن طريق الأكسجين يعني عـدم وجودها؟ وكذلك من الذي قال إن عـدم معرفتنا بالقوانين التي تحكم بعـض الأمثلة (التي نراها نحن فوضويـة) يعني عدم وجود إله منظم لذلك الكون؟!

وفي الواقـع أن نظرية الفـوضى في حقيقتها ما هي إلا محاولة لإيجاد النظام الذي يحكم هذه الأمثلة والتي تظهر على أنها فوضوية.

أول مـن قـام باختبـارات في هــذه النظـريـة هـو إدوارد لورانـز (Edward Loranz) في عـام 1960 والـذي كان يعمـل عـلى مسـألة التنبـؤ بالأرصاد، وهذا سينتهي بنا إلى إحدى نتيجتين:

إما أن الكون له نظام تام لا يحيد عنه وبذلك لا نسـتطيع إلا أن نسـلم أن هناك منظمًا له (وليس فقط منشئًا له) بل مداومًا على نظامه.

وإمـا أن الكـون في أغلبه يخضـع لنظـام إلا أن المتأمل بدقـة (خاصة على المستوى المتناهي الصغر) الـ (Micro level) والـ (Nanolevel)، يجد أن بعضه لا يخضع لنظام نستطيع نحن بعقلنا وإمكاناتنا الحالية أن نرصده. وبالتالي لا يسـتطيع المنصف إلا أن يسلم أن لهذا الكون إلهًا يمسك السماوات أن تزول؛ لأنه من المحير بمكان أن نجد أن هذا الكون على المستوى المترامي الأطراف - الكوني يخضع لنظام بديع ثابتٍ يمكننا أن نتنبأ بوقت كسوف الشمس بعد آلاف السـنين إلا أن وحدات هذا الكون من نجوم وكواكب، لسبب نجهله لا تظهـر لنا أنهـا تتبع مثل هذا النظام، وكأن الخالق سـبحانه يلقننا أنه وحده

القدير وأنه وحده الذي يستطيع أن يضمن دوام الكون بنظام أو بفوضى على حد سواء ...!

ثالثا: العـــدميــــة:

العدمية Nihilism (من اللاتينية Nihil / Nothing أو العدم) وهي ببساطة نظريـة ترى أن القيم ليسـت موجودة في الحقيقة ولكنهـا مخترعة وهي بالتالي تذهب بأن «لا شيء» له قيمة.

فريدريـش نيتشـه (Friedrich Nietzsche) [1] يصف العدمية بأنها «تفريغ العالم، خاصة الوجود الإنسـاني من أي معنى، غاية، حقائق مفهومة أو قيمة أساسية. ويرى أن العدمية نتيجة طبيعية لفكرة «موت الإله».

أما هيدجر فيرى العدمية أنها حركة يُنسى فيها الوجود ويتحول إلى قيمة، ويوافق نيتشه بأن «موت الإله» سبب ومصدر ممكن للعدمية.

أما ألبرت كامو [2] فيرى أن العبثية لحالة الإنسـان هي أننا نبحث عن قيم خارجية ومعنى لوجود ليس له معنى! ويرى أنه من الممكن أن نكون «أبطالًا عدميين» ونعيش بكرامة في وجه العبثية!

النقطة الرابعة هي ذات صلة بما قبلها وهي الوجودية:

وهي تنقسم بدورها إلى وجودية ذاتية ووجودية أنطولوجية.

(1) فيلسوف ألماني – اشتهر بعباراته «لقد مات الإله» والتي فسرت بعدة تفسيرات منها أنه لم يعد هناك حاجة للإله في عصر العلم وأيضًا بأن «فكرة الإله» قد ماتت ولم تصبح موجودة في عقول الناس.

(2) فيلسوف وجودي. انظر الوجودية – الفصل القادم – هي باختصار نرى أن كل إنسان يخلق معنى حياته!

يعتبر الكثيرون أن سورين كيركجارد هو أبو الوجودية مع أن المدقق في هذه الفلسفة يجد أن مبادئها صيغت على يد أحد عباقرة زمانه وهو الفرنسي باسكال (Pascal) [1] فآراء كيرجور حول «السعادة الأبدية» وحول «الإيمان» من حيث إنه اختيار ومخاطرة قطعًا لها أصولها في أفكار باسكال وأيضًا في أفكار «هيدجر» حول الإنسان الملقى به في العالم، ولذلك يصفه روبيرتز بأنه رائد الوجودية؛ لأنه ينطلق من الوضع الإنساني منظورًا إليه من الداخل بدلًا من انطلاقه من شيء موضوعي (طبيعي وأفكار) فقوة خطاب باسكال تعتمد على إثارة الاهتمام بالصراعات التي - يرى - أنها لا يمكن حلها بالعقل. وطابعه الإقناعي يعتمد على توجيه الإنسان بكامله إلى ذاته الحقة وليس على البرهنة المنطقية.

وبذلك يرى باسكال في مسألة الألوهية أن «هناك عقولًا ذكية للغاية تجد الأدلة على وجود الله مقنعة تمامًا وهناك بنفس القدر عقول ذكية تجد تلك الأدلة تدل على خطأ في الفهم أو غير حاسمة وكل فريق يتهم الآخر بسوء النية لكن الحقيقة هي أن تلك الأدلة تقنع أولئك الذين يريدون أن تكون مقنعة، ولا تقنع أولئك الذين لا يريدون أن تكون مقنعة ومن ثم فهي ليست حقًا أدلة بالمرة [2].

وذلك ما يمكن اختزاله بفكرة أن الاقتناع أو عدم الاقتناع (بالإله) هو مسألة «اختيار» قبل أي شيء.

---

(1) ولد عام 1623 وتوفي 1662 وهو عالم رياضيات وفيلسوف فرنسي.
(2) Barrett: Irrational Man page 115.

ويزيد في تلك النقطة بقوله «ما يلي هو ما أراه وما يربكني: أنني أنظر حولي في كل اتجاه فلا تقع عيني إلا على الظلام فالطبيعة لا تقدم لي شيئًا إلا ويؤدي بي إلى الشك والقلق. لو لم أكن أرى علامة تدل على الألوهية لعزمت على اتخاذ قرار سلبي، ولو كنت أرى في كل مكان علامات تدل على خالق، لوجب أن أستقر في الإيمان استقرارًا هادئًا ولكنني في حاجة تبعث على الرثاء، حيث إن رؤيتي تبلغ درجة يتعذر معها الإنكار السلبي وتبلغ درجة لا تكفي للإثبات الإيجابي ولكم تمنيت ما يزيد على مائة مرة أن تفصح الطبيعة عن الله إفصاحًا واضحًا تامًّا إذا كان الله يعتني بها، وأن تنمحي الآيات من الطبيعة تمامًا إذا كانت تلك الآيات خادعة وأن تقول الطبيعة كل شيء أو لا تقول أي شيء بحيث يمكنني أن أرى المسار الذي ينبغي أن أحذوه ...» [1].

ومما سبق نستطيع أن نستنتج أن درجة إيمان باسكال لم تصل إلى اليقين التام وأن درجة تشككه لم تصل إلى النفي التام، وهو بالتالي في درجة وسطى نستطيع أن نصفها بالشك أو بالظن، والغريب - كما أسلفنا فيما سبق - أن بعض آيات القرآن الكريم تستخدم كلمة «الظن» متحدثة عن المؤمنين - مثال: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ ...﴾ (البقرة: 46) وكأن أي درجة من عدم نفي وجود الإله تعتبر (من المنظور الإسلامي) درجة من الإيمان، وإن الإيمان الحق من نفس المنظور هو الإيمان بالغيب ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ (البقرة: 3) - ﴿وَبِٱلْأَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ (البقرة: 4) فالتصديق بما هو «غائب عن الحواس وعن العقل» هو أعلى درجات الإيمان، فهل يعني هذا عدم وجود دور للعقل في هذه المسألة ؟! لا العكس هو الصحيح؛ لأن العقل يصل إلى الله (دون القلب

(1) Pascal: Pensees, No 429 Page 162 – 163.

ودون الهداية) ولكنه قد يصل إلى استحالة نفي وجود الله (في نظرنا)؛ لأن صفة الوجود هي من الصفات التعارضية والتي تستحيل نقلًا أن توجد هي وضدها في آن واحد [1] فإما أن الله ذو وجود وإما أنه لا وجود له.

والصفات التعارضية على الضدية. فالأبيض والأسود من الصفات الضدية لا التعارضية لأنهما قد يوجدان في آن واحد (مزيج من الألوان مثلًا) أو أن ينفيا في آن واحد (بوجود لون ثالث يختلف عنهما تمامًا).

ولكن الكلام والصمت صفتان كالوجود وعدمه تعارضان لا يستقيم عقلًا أن يثبتا معًا أو ينفيا معًا في آن واحد.

فإذا وصل العقل إلى استحالة نفي وجود الله (كما يقول باسكال ضمنًا في كلامه السابق)، أدى ذلك تلقائيًا إلى الإيمان بوجوده، وحسب نور العقل والقلب والروح ترتفع أو تنخفض درجة هذا الإيمان لتنتقل من الشك إلى اليقين، وذلك يعود بناء إلى الفصل الأول الذي أشرنا فيه إلى دلالة رمزية شهادة المسلمين والتي تبدأ (بالنفي) وكأن نفي وجود غير الله بها يقر باستحالة نفي وجود الله في آن واحد.

وأغلب الذين يقفون موقف باسكال من الصادقين الذين يريدون الوصول إلى الحقيقة قد يقرون (في الغالب) باستحالة نفي وجود خالق مدبر للأمر [2] ولكن (ولأنهم صادقون مع أنفسهم يقولون إنهم متشككون لأنهم صادقون بأنهم غير موقنين تمام اليقين بوجود الله) ربما لما قد يرونه في العالم

(1) أو تنفى هي ونقيضها في آن واحد.

(2) ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ وكأن العلم بتدبير الخالق لهذا الكون يؤدي إلى اليقين بآيات الله.

مـن شر ومـآسٍ وربما لما قـد يرونه في العالم رغـم إبداعه من عـدم كمال وأنه مشـوب بالاضطراب والعثرات والقسوة والدمار وكأنه في كثير من الأحيان يتجاهل الإنسان ويسحقه «وهو ما يسميه باسكال» «احتجاب الله» وهو قد يكون ما يؤمن به المسلمون بأن الله هو الظاهر الباطن !

وفي الحقيقـة أن هؤلاء المتشـككين الصادقين (والذين سـنتعرض لبعض تفصيلاتهـم في فـترة تاليـة بعنـوان الــ (Agnostics) ينقصهم درجة بسـيطة لينتقلوا إلى درجة أعلى من الإيمان وهي إدراك إمكانية وقابلية أن هذا الكون لم يكـن مقـدرًّا له من الأصل أن يكون الجنة الأبديـة ولم يكن مقدرًا أن يظهر فيه الله عيانًا بيانًا للجميع !

أعنـي بهـذا أن كل ما يُرى مـن شر ودمار في العالم لو انتفـى لتحول العالم في الحـال إلى جنة الكـمال وهو ما لم يدع أحد أبدًا مـن المؤمنين الذين يؤمنون أن هـذه الدنيـا هـي دار اختبار وأن الإنسـان وجد فيها «ليشـقى» وهو ما لا يستحيل عقلًا مع الإيمان بوجود خالق حكيم محب لخلقه.

وأيضًـا، صمت الأكوان عن التحدث عن الإله جهرة كما يراها باسـكال وغـيره من المتشـككين الصادقين ليس إلا توافقًا مـع فكرة المؤمنين عن ربهم وأنه لن يتحدث إليهم إلا ﴿مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾ وأنهم لن (يروه جهرة).

ما سلف كان عن جزئية (الاختيار) والذي يتطلب في نهاية المطاف بداهة عقلًا حرًّا مختارًا فماذا عن «المخاطرة» ؟!

يرى باسكال ومن قبله «سيدنا علي بن أبي طالب» عندما لم يُوفق في إقناع أحـد الكافريـن المعاندين فأنهى حديثه بقوله إنه لـو كان الله موجودًا فقد فاز

المؤمن برضا الله وجنته وخسر الكافر وخسئ وإن كان لا وجود له فلم يخسر المؤمن أو الكافر وبذلك تكون المخاطرة لصالح المؤمن في الحالتين.

وأذكر أن والد كاتب هذه السطور قال نفس المنطق لأحد المتشككين المعاندين في عصرنا هذا (دون أن يسمعها من باسكال أو سيدنا علي) ورد عليه المتشكك، لكنهم في الحالة الثانية (أعني عدم وجود الله) يكون المؤمن قد خسر؛ لأنه قام بمجهود جسدي في الصلوات والصيام ... إلخ، فرد عليه أبي ببساطة دون الخوض في حلاوة ولذة تلك العبادات التي لن يقتنع بها غير المؤمن قطعًا: إن الإنسان الرياضي يقوم بالدوران في الساحة الرياضية عدة مرات ويقوم بمجهود جسدي «فهل يعني هذا أنه خسر؟ أم أنه يفعل ذلك لهدف أعلى وقد يستمتع ويجد لذة أيضًا وهو يفعلها؟!

و بسبب هذا العنصر «البراجماتي» النفعي، نجد أن باسكال يؤمن أن فكرة الأبدية التي تعاش في الحياة الآخرة والتي تستحق دفع أي ثمن في سبيلها تستحوذ تمامًا على شعور باسكال وهو بذلك يكرس هنا عنصرًا براجماتيًا واضحًا.

ولهذا نجد «كيركجارد»: أبا الوجودية يكشف عن هذا العنصر البراجماتي حيثما يتحدث عن الله بوصفه مسلمة ضرورية في الحياة وبوصفه «ذلك الذي لا يمكن الاستغناء عنه بتاتًا إذا أردنا مواصلة تلك الحياة التعيسة والظفر بالسعادة الأبدية أو الخلود»[1]. والبراجماتية هي فلسفة تعني باكتشاف الحقيقة عن طريق التبعات العملية والأسباب الحقيقية وتعتبرها أهم مكونات المعنى والحقيقة.

(1) Kierkegaard, concluding unscientific postscript, trans 6j D-f. Swelson page 179.

ويعتبر الكثيرون أن بداية البراجماتية كان في أواخر القرن التاسع عشر عن طريق شارلز ساندرز بيرس (Charles Sanders Peirce) ومع أنها خارج نطاق مناقشتنا إلا أننا نرى أن مشكلة البراجماتية أنها لا ترثي القيم إلا تلك التي تخدم الإنسان والإنسانية فقط.

ولنعد إلى باسكال الذي يبني على فكرة الرهان السالف ذكرها أن بعض غير المؤمنين (سواء من الكافرين أو من المتشككين) الذين قد يكونون صادقين في بادئ الأمر فعلًا لا يستطيعون -على الرغم من إمكانية اقتناعهم ببرهان باسكال- أن يعتقدوا أو يؤمنوا بالله - عز وجل - وهنا نجد باسكال ينصح هذا الإنسان بضرورة أن تكون رغبته في الإيمان صادقة وأن يوجه عاداته الشخصية توجيهًا جديدًا.

وكأن لسان قوله يكشف أن هذا الإنسان غير المؤمن إما أن يكون غير صادق في بحثه عن الحقيقة وإما أن عناده وتكبره يمنعانه عن الدخول في الإيمان.

فذلك العناد (أو في بعض الأحيان الخوف من الخوض في الرهان أصلًا) هما اللذان يمنعانه عن الإيمان. فلو أن العقل وحده عاجز بذاته عن البت في مسألة وجود الله - عز وجل - سواء بالسلب أو بالإيجاب وبما أن غير المؤمن ما زال مصرًّا على اتخاذ موقف الكفر، يترتب على ما سبق أن سبب الكفر الحقيقي يكمن في إرادة متعسفة مكتفية بذاتها وغير مبالية بالمتبعات المرتبطة بإمكانية وجود الله - عز وجل - ولذلك فإن حجة رهان باسكال تدفع الراضي[1] عن نفسه أو الشكاك أو المعاند إلى التخلص من اللامبالاة

(1) آرثر شوبنهاور (1788 - 1860م) فيلسوف ألماني، معروف بفلسفته التشاؤمية يرى في الحياة شرًّا مطلقًا فهو يبجل العدم ويرى في الانتحار شيئًا جيدًا وقد كتب كتاب «العالم فكرة وإرادة» الذي سطر فيه فلسفته؛ فلذلك تراه يربط بين العلاقة بين الإرادة والعقل فيرى أن العقل أداة بيد الإرادة وتابع لها.

﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾. وبذلك هي حجة لا تُعنى بالأدلة بقدر اعتنائها بالالتزام الشخصي؛ لأن السبب الحقيقي وراء الزندقة هو رفض المرء أن يأخذ عيوبه مأخذ الجد وهي بذلك تتخلص أيضًا من القلق المتوطن في غير المؤمن لأن أسئلة الحياة الكبرى لا تستدعي أجوبة فقط وإنما تستدعي قرارات.

وعلى الرغم من تحول باسكال إلى الإيمان بالله - عز وجل - عام 1654 (في 23 نوفمبر كما ترك في مذكراته)، فإنه يقر أن هذا الإله لا يظهر بشكل كاف حتى يراه كل الناس حتى يُرى في كل شيء ولا يخفى تمامًا حتى لا يُرى في أي شيء. وتلك الحيرة «حيرة العقل وارتباكه وسط الصمت الأبدي للفضاء اللامتناهي» هي ما جعلت باسكال يعبر عن جوهر تلك الحيرة بما أسماه باحتجاب الله - عز وجل - The Hiding God فهو ظاهر وباطن في آن واحد وهو غيب السماوات والأرض. ويفسر باسكال سبب ذلك الاحتجاب إلى خطيئة آدم الأولى التي انتزعت من الإنسان حب العمل لله وإن لم تسلب قدرته على هذا الحب.

وفي الحقيقة أن احتجاب الإله عن باسكال ليس ببعيد عن «موت الإله» عند نيتشه ففي الحالتين ينطوي الأمر على نوع من الغموض والالتباس ويتوقف على قرار نوع ودرجة المخاطرة التي يود المرء أن يخوضها.

لقد لاحظ نيتشه استحالة التوفيق (في نظره) بين وجود الإله الحي وبين الشرور والآلام الموجودة في العالم والتي لازمته شخصيًا. وقد ساعده على اتخاذ قراره بالمخاطرة بالكفر كتابات فيلسوف ملحد آخر هو شوبنهاور (Schopenhauer 1788 - 1860) والذي يعتبره البعض أول من جاهر بكفره

من فلاسفة العصر الحديث وتأثر نيتشه بشوبنهاور تأثر التلميذ بالأستاذ فهو يصفه بالفارس المغوار الذي يسير على طريق الأهوال يرافقه الموت والظلم (الأقدار القاسية ونكبات الدهر) دون أن يزعزعاه ودون أن يحدوه الأمل.

«وتأثر نيتشه بكتابات شوبنهاور خاصة كتابه (العالم كإرادة وتمثل) وكما أسلفنا فإن سبب إلحاد نيتشه الأساسي هو عدم إمكانية توفيقه بين آلام العالم وبين الله الحكيم الرحيم وعلى القارئ الرجوع إلى الفصول السابقة للرد على هذه الحجة.

ولكن نيتشه يعترف بأن العدمية التي تنشأ عن الإلحاد هي مشكلة مخيفة وموحشة، فهو يرى مستهزئًا أنه إما أن هذا الإله حي فعلًا ولكنه لا يستطيع التعبير عن نفسه وإما أن عذره الوحيد كما قال ستاندال Standal: أنه غير موجود!!

في الفترة المتأخرة من حياة نيتشه (قبل موته مجنونًا) اتخذت كتاباته طابعًا دراميًا فيقول في إحدى فقراته: «لقد مات الإله!.. أنا وأنتم قتلناه» وكان بذلك لا يعني إلحاده الخاص فقط ولكن كان أيضًا يعبر عن إلحاد الحضارة الغربية بأسرها.

ويستعيض نيتشه بإله الإنسان الأعلى أو الـ Superman، والإنسان الأعلى عنده ليس إنسانًا طيبًا يخضع للقيم الأخلاقية المعترف بها ويحاول تحقيق الخير وتجنب الشر، بل هو إنسان يسعى إلى مزيد من الحيوية في كل شيء.

واستعاض في فكرة الموت والفناء بفكرة العود الأبدي أو الـ Eternal Recurrence وهي فكرة شبيهة بفكرة التناسخ، إلا أن التناسخ يعني عودة البشر الفرد في صورة أخرى أما العود الأبدي فيعني عودة البشرية ككل.

لقد مات نيتشه مجنونًا بمرض الذهان العقلي ولكن كمل مسيرته المتشائمة فلاسفة الوجودية أمثال هيدجر وكامي وياسبرز وسارتر.

وقدم أحدهم – كامي – سؤالًا: هل الحياة بدون إله تستحق العيش فيها أم لا؟ ويرى كامي أنها تستحق العيش وأنها على أسوأ الفروض لا ينبغي التخلص منها (بالانتحار).

فإن كان «موت الإله» عند نيتشه يعني سقوط القيم العليا المرتبطة بعقيدة الألوهية والعالم الآخر الأبدي، فإن نيتشه وجد نفسه مضطرًّا إلى إثارة التساؤل الجوهري: «أليس الإنسان بذلك يظل في فراغ عدمي لا نهائي؟!» ويرد باريت على ذلك بأن القيمة الوحيدة التي يمكن وضعها لتحل محل هذه القيم العليا هي: القوة!

ويرى الكثير من الباحثين الغربيين أن اتجاه الفلسفة الأوربية قد تغير فجأة بعد الحرب العالمية الأولى (1914-1918) حيث وجد الفلاسفة الأوربيون أنفسهم يواجهون العالم الذي كان نيتشه قد تنبأ به وأننا ندخل في ليل عالَم الظلام الروحي النيتشوي العبثي والذي ظهر في خلاله الكثير من الفلاسفة الوجوديين الذين ذكرناهم مثل هيدجر وكامي وياسبرز وسارتر بل وظهور بعض الأدباء الوجوديين مثل فيودور دوستيوفسكي[1] Fyador Dostovesky والذي أعجب نيتشه شخصيًّا بروايته واعتبرها سارتر[2] الشرارة الأولى الملهمة له في فكرة الوجود.

---

(1) مؤلف Notes from the Underground والتي تعد أول رواية وجودية.

(2) جون بول شارك سارتر (1905-1980) Jean-Pal Charles Sartre (أديب وناشط سياسي فرنسي) وأنشأ جماعة Underground عام 1941 مع سيمون دي بوفوار واشترك مع ألبرت كامي Albert Camus في كتاباته في مجلة الأخير الـ Combat وظلوا (سارتر وبوفوار وكامي) أصدقاء إلى أن ترك كامي الشيوعية عام 1951.

فيما سبق تناولنا بعضًا من الفلسفة الوجودية الذاتية فماذا عن الوجودية الإنطولوجية؟

يعلن هيدجر دائمًا أن ما يهمه هو الوجود العام الكلي- يعني الوجود من حيث هو كذلك وليس الوجود الجزئي الإنساني أو غير الإنساني- فالسؤال المحوري في فلسفته هو : ما الوجود؟

وهو في رحلته باحثًا عن جواب لهذا التساؤل، نجده يصل إلى احتمالين:

الاحتمال الأول: أن الوجود من حيث هو كذلك لا يمكن دراسته أو حتى البحث فيه. وهيدجر نفسه يصف الوجود بأنه عدم من حيث إنه الأساس الأول الذي يتعين أن تقام عليه الميتافيزيقا. (ولعله هنا يهرب مما انتهينا إليه سابقًا باستحالة نفي وجود الإله الأوَلي وإلا أصبح الوجود بالفعل عدمًا - فضلًا عن كونه عبثًا حينئذ).

فما أسهل ألا يسلم عقله بوجود إله خالق بأن يهرب إلى تعريف عبثي (لا معنى حقيقي) له بأن الوجود هو العدم. ولعل باسكال كان أكثر ذكاءً منه ولعله كان أكثر صدقًا منه عندما سلَّم باستحالة تعريف الوجود دون الوقوع في الخلق بأن تقول الوجود هو: فلفظة هو تعني أن عندك تعريفًا ذهنيًا سابقًا له وهو ما يعني تباعًا أنه موجود. وبالتالي سيكون حتمًا علينا استخدام المعرف في التعريف وهو غير جائز. ولعل هذه إحدى مشكلات اللغة اللاتينية والتي تستخدم الفعل «is» يكون بأن تقول مثلًا: The man is strong عكس العربية التي تعبر عن الشيء نفسه بـ : الرجل قويٌّ دون استخدام: الرجل يكون قويًا.

الاحتمال الثاني: أن الوجود مجرد تصور عام استخلصناه تجريديًا من الموجودات الجزئية مثل مفهوم «الإنسانية» مثلًا. فهو مجرد تصور عام استخلصناه تجريديًا من الموجودات الجزئية.

وعلى ذلك نجد أن هيدجر يسعى إلى فهم الوجود باعتباره حقيقة واقعة وهو بذلك يهاجم الميتافيزيقا لأنها تبحث في الموجود من حيث هو كذلك بما في ذلك بحثها في الإله باعتباره موجودًا في حين أن المطلوب - في رأيه - هو تجاوز تلك الميتافيزيقا وتخطيها وإقامة الأنطولوجية الحقة التي تبحث في الوجود من حيث هو كذلك فقط[1].

وهو بذلك يقحم نفسه في دائرة مفرغة (Paradox) إشكاليتها أن الوجود من «حيث هو كذلك» ليس موجودًا، وبالتالي فإن الوجود إما أن يكون شيئًا واقعيًا (موجودًا) وبالتالي يندرج ضمن الوجودية التي تؤلف الموجودات من حيث هي كذلك وتندرج ضمن مبحث الميتافيزيقا التقليدية التي يهاجمها هيدجر أو أنه (أي الوجود) مجرد تصور ذهني (غير موجود) ويتفتق ذهنه بعد هذا كله - ويا له من إنجاز بشري: أن الوجود هو ما هو!!

وهنا وقفة دقيقة تفضي بنا إلى إمكانية التوجه الفكري لدى هيدجر بأنه لم يكن يُعنى بمشكلة الله - عز وجل - إلا بعد أن يحل مشكلة الوجود. وأن لسان حاله بأن الوجود «هو ما هو» قريبة في نظر بعض المحللين[2] ما ذكر في سفر الخروج وهو السفر الذي خاطب الله - عز وجل - نبيه موسى (عليه السلام) بقوله: «أهيه الذي أهيه» أي أنا الموجود أو أنا الكائن الدائم.

(1) مثل قول كوفمان: Heidegger: The Way Back Into the Ground of Metaphysics, p. 208.

(2) مفكر وجودي - ألماني أمريكي - متوفى سنة 1965.

(أو ربما كما ذكر في القرآن الكريم في السياق نفسه: ﴿إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ .. ﴾ (سورة القصص، الآية رقم 30).

إن نظرة هيدجر تلك أقرب ما تكون لبعض الفلسفات الصوفية (غير الإسلامية) مثل تلك الخاصة بشرق أسيا والتي توحد بين الله (سبحانه وتعالى) والوجود.

بعد أن خضنا قليلًا في أفكار الوجودية، لا نريد لقارئنا العزيز أن يظن أن غالبية المفكرين الوجوديين هم ملحدون. فنجد مثلًا أحدهم وهو بول تيليخ Paul Tilich يحاول أن يوفق بين الفكر الوجودي والفكر المسيحي في مؤلفه المشهور Systematic Theology – في ثلاثة مجلدات – والذي أظهر فيه طريقته المعروفة Method of Correlation والتي يوفق فيها بين بعض الرؤى المسيحية والوجودية.

قبل أن ننتهي من الوجودية ، لا يفوتنا أن نجنح قليلًا إلي فكر سارتر[1] Jean Paul Sartre والذي يلخص فكره ويلخص الوجودية بأنها: الوعي بالنفس أو بالذات. وأننا – بني البشر – لا نصلح لأن نكون أحرارًا. وهذه النظرية مبنية على إلحاده. فهو يفترض أننا لو وجدنا سكينًا وورقة، فنفترض أنهما وجدا لغاية أو لسبب معين. ولكنه ينفي ذلك ويقول بأن الوجود يسبق الغاية لأنه ليس هناك خالق! وبالتالي فكل إنسان هو إله نفسه ولكنه إله ناقص (مفلس حسب قوله) لأن حريته منقوصة.

---

(1) مفكر وجودي فرنسي وأديب وناشط سياسي.

وبالطبع يرى الباحث المنصف أنه بنى فلسفته على افتراضات مسبقة لا يستطيع أن يثبتها وهي أنه لا يوجد خالق للأشياء أو للوجود، وبالتالي تنشأ الغاية بعد وجود الأشياء.

ويستطيع القارئ الواعي أن يرى مدى ارتباط هذا الجانب من الفكر الوجودي بالفكر الدارويني الذي يسلم بأن الغاية من الأعضاء في الكائنات مثلًا توجد بعد إيجادها وليس بسبب خطة مسبقة من حكيم خبير! وذلك يوضح مدى تأثير وتأثر مثل تلك الفرضيات العلمية والفلسفات الوجودية.

خامسًا : اللاأدرية:

والآن لننتقل إلى فكر آخر كنا قد نوهنا عنه وهو «اللاأدرية» Agnosticism، واللاأدرية، كما يدل اللفظ، هو نوع من التفكير -الذي أراه- سلبيًّا لسان حاله أنه لا يستطيع أن يحدد إلى أي جانب ينتمي.

والجدير بالذكر في هذا المقام، أن بعض الناس الذين يعدون أنفسهم منتمين إلى هذا الفكر، ما هم إلا أناس سلبيون ليس لسان حالهم عدم التحديد فحسب، ولكن قد يكون لسان حال بعضهم أيضًا: «لا يعنيني الأمر» Not Interested!

وكأن الأمر لا يعنيهم ألبتة. والأمر هنا ليس بالهزل. الأمر هو: من أين جاءوا وإلى أين هم ذاهبون؟

إن كنت أستطيع أن أصدق أن القلة القليلة من أنصار هذا التيار قد يكونون صادقين في أول طريقهم، ولكنني أعتقد أن الغالبية العظمى منهم

يؤثـرون الهروب على المواجهـة لأن القضية هنا لا تحتمل الركون في منتصف الطريق ولا تتحمل عدم الوصول فيها إلى قرار ولو كان اختياريًّا!.

اللفظ اللاتيني وهو Agnosticism أصله يوناني يعني الـ Gnosticism وهي المعرفـة باليونانية (Gnosis). وأول من اسـتخدم اللفظ هو توماس هكسـلي Thomas Huxley في عـام 1960 . وهـي اختصـارًا تُعنى باسـتحالة إثبات أو نفـي وجود الغيبيـات مثل الدار الآخـرة ، الله، وكل الحقائق المطلقة، وهناك فرق دقيق بين اللاأدرية ومنهج الشك Skepticism.

فإن كان الأول ينفي إمكانية إثبات أو نفي قضية معينة، فإن الثاني يشكك في قضية يراها أنصارها من المسـلمات أو يناقش بعض الفرضيات التي يراها لا تعتمد أو غير ذات صلة بالقضية المشكوك فيها من قبله.

وإن كان البعض يرى أن بداية منهج الشـك بدأت في الفلسـفة الإغريقية القديمة، إلا أن الكثير يقرون أن حجة الإسلام الإمام الغزالي[1] هو من أصَّل هذا النهج وأن رينيه ديكارت أخذ منه الكثير.

والآن بعد أن عرفنا الفارق الدقيق بين اللاأدرية ومنهج الشـك، نستطيع أن نخلـص إلى أن الثـاني قد يكون محمودًا لمن يسـتخدمه مخلصًا صادقًا كأداة للوصول إلى الحقيقة المطلقة التي يرى أن الكون دونها غارق في أوحال العبثية وأعماق بحار العدم.

---

(1) أبو حامد محمد الغزاليّ الطوسي النيسابوري الصوفي الشافعي الأشعري، أحد أهم أعلام عصره وأحد أشهر علماء أهل السنة والجماعة في التاريخ الإسلامي، ومجدّد علوم الدين الإسلامي في القرن الخامس الهجري.

أمـا اللاأدرية كما نراها، فهي تدَّعي -دون دليل مادي- اسـتحالة إثبات أو نفـي وجود الله. وكأنها تنعت المؤمنـين والمنكرين بالانحراف حتى الوهم أو بتعمد الكذب. وهنا يكمن لب الموضوع، وينتج التساؤل المشروع التالي: من الذي عليه عبء الإثبات؟ (Burdon of Proof).

هل المؤمن هو المطالب بإثبات وجود الله؟ أم أن المنكر هو المطالب بنفي ذلك؟

وفي الحقيقـة العبـارة السـابقة، خاصة في نصفهـا الثاني تفتقـر إلى الدقة. فنحـن - وكما سـنبين لاحقًا إن شـاء الله- نـرى أن المنكر ليـس مطالبًا بنفي وجـود الله ولكنه مطالب بالخروج إلينا بحل آخر بديل ومقبول يسـتطيع أن يدافع عنه.

وقبل أن نخوص في ذلك، دعونا ننتقل إلى أحد مفكري مذهب اللاأدرية وهـو برترانـد رسـل Bertrand Russel [1] والذي يرفض تمامًـا فكرة أن عبء الدليـل يقع على عاتق المنكر أو الشـاك. وخرج في إحـدى كتاباته «هل هناك إلـه» «Is there a God?» قائـلًا: لـو أتى أحدهم أن هناك ملعقة شـاي تدور حول الشـمس في مدار بيضاوي! لا نستطيع أن ننفي ذلك وأن نقول إنه تبعًا لذلك فإن المقولة تكون صحيحة.

وفي الحقيقـة أن المدقـق المنصـف يـرى أن ذلـك المثال وغيره مـن الأمثلة الأخرى التي سـاقها بعض من أمثاله مثل ريتشارد داوكنز، كالتنين القابع في الجراج ووحش الإسـباجيتي الطائر وغيرهم من الأمثلة التي تدعو للرثاء - يرى المدقق أن تلك الأمثلة غير ذات صلة بالموضوع الذي نحن بصدده. لأن

(1) برتراند أرثر ويليام راسل (Bertrand Russel)، م. 18 مايو 1872 - و2 فبراير 1970) إيرل راسل الثالث، فيلسوف وعالم منطق ورياضي ومؤرخ وناقد اجتماعي بريطاني.

ادعـاء وجود خالق لهذا الكون هو ذو وجاهة بمكان ويقبله المنطق عكس ما سـلف من أمثلة سـخيفة لا تمت بأي صلة بالعلل والمعلولات أو بالأسـباب والنتائج.

وبالتالي وإن كنا نسلم أن في غالبية الأمور يكون عبء الدليل على المدعي، إلا أنه في حالة وجاهة ذلك الادعاء ينتقل عبء الدليل على المنكر.

فمثلًا في قصة سيدنا يوسف مع امرأة العزيز التي راودته عن نفسه، شهد شاهد من أهلها وجاء بقرينة تدل على أنها هي التي راودته عن نفسه، وبالتالي انتقل عبء الدليل ليكون على المنكر.

﴿وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ فَكَذَبَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ وبالمثل نستطيع أن نقـول إن قرائـن مثـل: ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ﴾، أو ﴿وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا﴾،أو ﴿أَمۡ خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ أَمۡ هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ﴾، كل هـذه القضايـا وغيرها الكثير تجعل عبء الدليل ينتقل من المؤمن إلي المنكر.

وهـذا مـا يفعلـه القاضي المنصف -أعنـي أن يطلـب دليل نفـي من المتهم خاصة لو كان تحت يديه عدة أدلة إثبات أو حتى قرائن.

لا يفوتنا أن ننوه ببعض أنوع اللاأدرية كما يلي:

1- اللاأدرية القوية المغلقة Strong Agnosticism or Strict Agnosticism:

وهي النظرة التي تؤمن بأن السؤال عن وجود أم عدم وجود قوة (أو قوى) إلهية، والسؤال عن طبيعة الحقيقة المطلقة كليهما لا يستطيع

الإنسان أن يعرفها لعدم قدرة الإنسان الطبيعية على أن يثبت أي خبرة إلا مع خبرة لا موضوعية أخرى.

فلسان حال اللاأدرية القوية هو: أنا لا أستطيع أن أعرف لو أن الله – عز وجل – موجود أم لا.. وأنت أيضًا لا تستطيع!.

2- **اللاأدرية الضعيفة (المفتوحة) Weak Agnosticism or open Agnosticism:**
وهي النظرة أن وجود أو عدم وجود قوة (أو قوى إلهية) هي «حاليًا غير معلومة ولكنها ليست بالضرورة غير ممكنة أن تعرف. وبالتالي يؤجل أنصار هذه النظرة البت في الموضوع لحين (أو في حالة) ظهور أدلة كافية في نظرهم.

فلسان حال اللا أدرية الضعيفة هو: أنا لا أعلم لو أن الله (سبحانه وتعالى) موجود أم لا، ولكن ربما يومًا ما لو وجدت الأدلة الكافية أستطيع أن أجد شيئًا ما.

3- **اللاأدرية البرجماتية Apathetic/Pragmatic Agnostisim:** وهي النظرة بأنه لا يوجد دليل على وجود أو عدم وجود قوة (أو قوى إلهية)، ولكن لأنه يبدو أنه أي قوة إن وجدت تظهر وكأنها لا تأبه بالكون أو بسكانها فإن السؤال عن وجودها يظل سؤالًا أكاديميًا تنظيريًا بحتًا.

4- **اللاأدرية الملحدة Agnostic Atheism:** وهي نظرة أولئك الذين لا يدعون معرفة وجود قوة إلهية ولا يؤمنون بأي منها.

5- **اللاأدرية المؤمنة (أو الروحية) Agnostic Theism:** وهي نظرة أولئك الذين لا يدَّعون معرفة وجود قوة إلهية ولكنهم يؤمنون بوجودها.

وهي نظرة ترى أنه من المستحيل الإحاطة بتلك القوة الإلهية بشكل موضوعي ولذلك فأولئك الذين يريدون أن يؤمنوا، يؤمنون!.

6- **اللاأدرية التعريفية Ignosticism:** وهي النظرة التي ترى أن تعريفًا محددًا للقوة الإلهية يجب أن يوضع أولًا قبل الخوض في جدل وجوده أو عدم وجوده.

والآن دعونا نناقش كل نظرة على حدة منبهين أن جميع تلك النظرات تشترك في نقطة واحدة، وهي إيمانها بعدم وجود دليل على وجود أو عدم وجود الله عز وجل، وهي النقطة التي نختلف فيها ونخطئهم كما يلي:

1- **اللاأدرية القوية:** يخلص أنصار ذلك الرأي إلى أنه من المستحيل معرفة الرد على سؤالنا وهم:

(أ) يخلطون، في رأيي، بين شيئين. الأول هو معرفة وجود الشيء والثاني هو الإحاطة المعرفية بالشيء نفسه. فإن سلمنا جدلًا باستحالة الإحاطة المعرفية بالشيء نظرًا لخبراتنا اللاموضوعية المحدودة ، فلا يدل ذلك بالضرورة على عدم معرفة وجود الشيء نفسه.

ولو سلمنا بصحة نظرتهم هذه، لتحولت المعرفة والعلوم الإنسانية المتراكمة عبر العصور إلى خبرات عبثية لا موضوعية لا يعتد بها، والأمر ليس كذلك، والله أعلم بما هنالك!

(ب) في تفسيرهم لسبب وجهتهم هذه يستبقون النتيجة ويقولون إنه نظرًا لأن خبراتنا لا موضوعية فإنه يستحيل الوصول إلى إجابة عن مسألة وجود الله - عز وجل - وكأنهم يعرفونها مسبقًا بأنها موضوعية فمن

الـذي قال إنهـا موضوعية أو غيـر موضـوعية ومن أدراهم أنها مسـألة ليس كمثلها شيء؟!

(جـ) يفترضـون أن الوصـول لتلك المسـألة يتطلـب محاولـة معرفية من الإنسان فقط. ولا يضعون أي احتمال أنه لو وجدت تلك القوة الإلهية لربما وصلت إلينا هي بكيفية نعلمها أو لا نعلمها.

2- **اللاأدرية الضعيفة**: وهي النظرة التي نراها وحدها في المعتقد اللا أدري والتي قد تكون صادقة، ولكننا نخطئهم في استهانتهم بعدم قدرتهم على اتخاذ قرار (نراه مصيريًا) وأيضًا نخطئهم زاعمين أنهم لو بذلوا مجهودًا أكبر في البحث عن الحقيقة لتوصلوا إليها، ونرى أن الأدلة الموجودة في الكون أدلة ضروريـة للإيمان ولكنهـا غير كافيـة دون إعانـة من المؤمَـن به (الله سبحانـه وتعالى) وهي بالتالي ضرورية وليست كافية Necessary but not Sufficient.

3- **اللاأدرية البراجماتية**: نختلف معهم (كما نختلف مع جميع أنواع اللاأدرية) في عدم استدلالهم على دليل لوجود الله - عز وجل - وأيضًا نخطئهم في افتراضهم بأن تلك القوة إن وجدت - في نظرهم، لا تأبه بالعالم أو بالإنسان!

وهو قطعًا افتراض مسـبق لا دليل عليـه، بل إن كل شيء حولنا يدل على أن هذا الكون مصنوع بشـكل يجعل حياة الإنسان عليه ليست ممكنة فحسب بل فيها الكثير من المتع الحسـية واللاحسـية[1](راجـع فصل الكون)، ونرى

(1) ثم إن الديانات المتعددة التي يدعي أصحابها أنها رسالات من الله - عز وجل - شاهدة على أن هناك خالقًا لهذا الكون العظيم، صدقها من صدق وكفر بها من كفر، فلن يستطيع من كفر بها أن يقول يوم القيامة إنه لم تجِئْهُ رسالة من الله - عز وجل - أو إن الله - عز وجل - لم يكن يكترث به!!

أيضًا أن دلائل النبوة والهداية كثيرة وهي تدل على اهتمام الخالق العظيم بنا، ولذا نرى أنه افتراض لا موضوعي لا دليل عليه، وبالتالي فإن المسألة لا تعد في نظرنا تنظيرية بحتة ولكننا نراها على النقيض مسألة مصيرية يترتب على حسمها الكثير.

4- **اللا أدرية الملحدة:** مثلهم مثل أصحاب اللاأدرية البراجماتية، لا يدَّعون معرفة وجود قوة إلهية بل إنهم «يميلون» إلى أن إثبات عدم وجود الله - عز وجل - أيسر من إثبات وجوده. أو أنهم في ميلهم هذا يستندون إلى أحاسيس ورغبات غير موضوعية.

ويرد عليهم بأن عدم معرفة الشيء لا يعني انتفاءه. فالمزارع البسيط الذي يشاهد التلفاز على الهواء والذي ربما لا يعرف شيئًا عن وجود القمر الصناعي، لا يعني ذلك عدم وجود القمر الصناعي، بل يعني ببساطة جهله لقصور في علمه أو إدراكه.

5- **اللاأدرية المؤمنة:** هؤلاء نشفق عليهم ونظن بهم الخير، وقد يكونون صادقين في بحثهم عن الحقيقة، إلا أنهم يظنون أن عدم القدرة على الإحاطة بالشيء يعني استحالة الإيمان به بشكل موضوعي. وفي هذا مغالطة في نظرنا، لأننا نرى أن الإنسان يستطيع الإيمان بالأشياء المجردة والمطلقة دون القدرة على الإحاطة التامة بها. فالإنسان يستطيع أن يؤمن بأن محيط الدائرة يساوي $2r\pi$ ولكنه لا يستطيع أن يحيط بالمعنى المطلق للدائرة التي من صفاتها الوجود بين بعدين وهو الذي يعيش في كون يراه ثلاثي أو رباعي الأبعاد.

وبالمثل، نرى أن العقل الإنساني يستطيع أن يصل إلى حتمية وجود قوة إلهية خارجة عن أبعاد الكون التي يعهدها ولكنه بالطبع لا يستطيع الإحاطة التامة بها.

وبالتالي فنحن نرى أن المؤمنين نوعان: نوع يؤمن فقط لأنه يريد أن يؤمن دون اعتبارات موضوعية. ونوع يؤمن لأنه يرى بعقله حتمية وجود ذلك الإله القادر القوي الذي لا يخضع للطبيعة – أما النوع الأول فمنه من هو تابع للطبيعة التي جُبل عليها ولم يرهق ذهنه في التفكير للوصول إلى الحقيقة. ومنه من يمشي على الفطرة التي فطر الله الناس عليها.

6- **أما اللاأدرية التعريفية**: فلنا معها وقفتان: **الوقفة الأولى** وقفة جدلية فلسفية ملخصها السؤال الآتي: ما الذي يجيء أولًا؟ التعريف أم المعرف به؟ ولو أردنا تداول المسألة من منظور آخر نقول إن الشيء المعرف موجود بالضرورة. فما معنى أن تعرف شيئًا ليس له وجود؟

فلو قلنا مثلًا إن تعريف المثلث هو ذلك الشكل ثلاثي الأضلاع ومجموع زواياه 180°. فما معنى ذلك؟ يعني أن فكرة المثلث موجودة بالضرورة قبل أن نعرفها. وهذه الحجة أراها تصلح حتى لو لم أتمكن من تقديم تعريف وافٍ شافٍ وهي أراها تصلح لو عرّفت صفة واحدة من صفات الشيء الذي أريد إثباته.

فإثباتي مثلًا أن إحدى صفات الله عز وجل أنه خالق، تصلح وحدها أن تثبت بالضرورة وجود الله – عز وجل.

فلو قلت مثلًا إنه من صفات المثلث أن مجموع زواياه 180°، يصبح ذلك دليلًا بالضرورة على وجود شيء اسمه المثلث ولكنه بالطبع لا

يصلح كتعريف شاف واف كاف للمثلث لأنني أستطيع أن أجد شكلًا مجموع زواياه كالمثلث 180° وليس بالمثلث.

مثـــال ذلـــك:

أما وقفتنا الثانية في هذا المقام، فهي أننا نرد على أنصار ذلك الرأي ذاهبين إلى وجود تعريف كاف واف لتلك القوة الإلهية، نجدها متشابهة في الكثير من المعتقدات والمذاهب العالمية، وبالتالي نرى أن حجتهم هذه هي كلمة حق أريد بها باطلٌ، وما هي إلا مضيعة للوقت وهروب من المسألة. ونسرد على سبيل المثال لا الحصر بعض الصفات التي نراها واجبة لله عز وجل على قدر ما نستطيع أن نصفه - سبحانه القدوس.

- الأول الآخر.
- القديم ذو الإرادة.
- الظاهر الباطن.
- الرحمن الرحيم.
- الملك.
- الذي ليس كمثله شيء.

الفصل الرابع

السببية

"نحن مثل طفل صغير يدخل مكتبة كبيرة مليئة بالكتب بلغات مختلفة.

الطفل يعلم أنه لا بد أن أحدًا قد كتب تلك الكتب ولكنه لا يعرف كيف؟ إنه لا يعلم اللغات التي كُتبت الكتب بها. الطفل يرى بالتقريب أن هذه الكتب قد رتبت بنظام غامض ولكنه لا يعلم هذا النظام!

هذا بالنسبة إليَّ، هو نهج أذكى أذكياء بني البشر تجاه الله. نحن نرى كونًا نُظم بإبداع ويرضخ لقوانين معينة ولكننا نفهم بالتقريب هذه القوانين. عقولنا المحدودة لا تستطيع أن تحيط بالقوة الغامضة المحركة للأكوان.. "

«ألبرت أينشتين»

نستطيع أن نقول: إن السبب باختصار هو الإجراء الذي يجعل شيئًا ما يحدث: Causality وبالتالي هي علاقة بين المسبب والنتيجة (Cause and Effect).

وبالتالي نستطيع القول: إنه لو انتفى السبب (أو الأسباب) لانتفت النتيجة بالضرورة. ولكن ماذا عن العكس؟! هل لو انتفت النتيجة لانتفى السبب؟! هذا سؤال خاض فيه علماء الدين وبعض الفلاسفة خلص بعضهم فيه (خاصة علماء الدين) إلى أن العلاقة ليست علاقة حتمية؛ لأنها لو كانت كذلك لاستحال وجود خوارق ومعجزات من ناحية ولأصبح الله - عز وجل - وهو السبب الأول مقيدًا بظهور آثار قدرته وهذا يستحيل عقلًا.

فلو قلنا مثلًا: ما دامت لا توجد ساعات مصنعة مثلًا ، يعني ذلك عدم وجود صانعي الساعات، ثم طبقنا ذلك على الوجود، لعنى ذلك شيئًا من اثنين إما أن الله - عز وجل - قدرته مقيدة بظهور آثار قدرته (خلقه) سبحانه وتعالى عن ذلك، وإما أن الكون نفسه قديم وهذا ما وقع فيه بعض

الفلاسفة الأولين وزاد عليهم الإمام الغزالي في كتابه الماتع «تهافت الفلاسفة» كما أسلفنا في فصل سابق.

لذا خلص بعض علماء الدين إلى أن العلاقة هي علاقة حتمية في الغالب وأن النتيجة لابد أن تكون متأخرة عن السبب لا سابقة عليه ولا متزامنة معه، خاصة لو كان للسبب إرادة حرة مستقلة. مثل علاقة الوالد بولده مثلًا.

فإن قال قائلٌ: إن النتيجة قد تكون متزامنة مع السبب مثل الخاتم مع اليد أو الإنسان وظله قلنا إن هذين المثلين وغيرهما لا يصلحان في هذا المقام للآتي:

أولًا، لأننا نرى أن هذه الأمثلة تتطلب عنصرًا نراه غير موجود في معرض نقاشنا هذا وهو «الارتباط»، ففي مثال الخاتم مثلًا نجد أنه مادام لبس الخاتم في الإصبع فإن هناك ارتباطًا لا ينفصم بينهما (الخاتم والإصبع) وأن سبب إيجاد الخاتم في الإصبع هو سابق لا محالة لحركة الخاتم الناتجة عن حركة الإصبع.

هل نقول على الشخص إنه شاعر فقط عندما يقول شعرًا، أم إنه لم يكن ليستطيع أن يقول شعرًا إلا لأنه شاعر؟!

فالشاعرية فيه قبل أن يقول شعرًا كذلك - ولله المثل الأعلى - الله عز وجل خالق قبل أن يخلق، رحيم قبل أن يرحم وهكذا.. وبالتالي يصح أن نقول إن حركة الخاتم سببها الأساسي (والأول) هو «القوة والقدرة» أو «السبب» الذي ألبسها في الإصبع والذي هو منطقيًا سابق لحركة الإصبع والخاتم، ولو تغافلنا عن هذا السبب الأول الذي ألبس الإصبع الخاتم لكأننا نقول إنهما شيء واحد وبالتالي لم يعد هناك حاجة للكلام عن سبب ونتيجة كشيئين مختلفين أصلًا.

ومثـال الظـل مـع أنه أكثـر صعوبة للتصـور، إلا أن نفـس الحجة تصلح فيه. لأن جسـم الإنسـان ليس هو السـبب الرئيسي للظل (مع أنه سـببٌ من الأسـباب) ولكن نستطيع أن نقول إن السـبب الأساسي (الأول) هو وجود الضوء والذي لا مراء سـابق لظهور الظل (حتى لو كان ذلك السـبق بمقدار ضئيـل جـدًّا وهـو زمن انتقـال الضوء مـن مصدره وصـولًا للجسـم المؤثر عليه».

ولذا فإنني أرى أن محور الحديث عن العلاقة بين السبب والنتيجة في خلق العالم وهو ما نناقشـه الآن (causality) يجب أن يدور حول السبب الأساسي الأول وليس عن أي من الأسباب الوسيطة والتي قد تكون ناتجة بدورها عن السبب الأول أو مكملة له. وليس من المنطقي تصور أسبابٍ مكملة للسبب الأول لخلق العالم وهو الله - عز وجل - وإلا لعنى ذلك قدم تلك الأسباب المكملة وهو ما نفيناه عقلًا سالفًا.

ولعـل هـذا ما دفـع بعض معتقـدات الشرق الفلسـفية في الهنـد والصين وغيرهـا إلى الإيـمان بوحـدة الخالق والمخلـوق وهو ما لا نذهب إليه شـكلًا ومضمونًا للأسباب التي سردناها من قبل.

وهذا الحديث ينقلنا إلى التكلم عن نوعين من الأسباب:

أولًا: السـبـب الضـروري Necessary:

لو «س» سـبب ضروري لــ «ص»، إذن وجـود «ص» يدل على ضرورة وجـود «س» وقت حدوث ص، ولكن وجـود «س» لا يدل بالضرورة على وجود «ص». (لأن س قد يكون سببًا ضروريًا) ولكن ليس كافيًا.

ثانيًا: السـبـب الكـافـي Sufficient:

لو «س» سـبب كافٍ لـ «ص»، إذن وجود «س» يدل على ضرورة وجود «ص» ولكن وجود «ص» لا يدل بالضرورة على وجود «س» لاحتمال وجود سبب كاف آخر «ك» مثلًا لـ «ص».

وهنـا نريـد أن نوضح نقطة نراها دقيقة خاصـة بالعلاقة بين الخالق - عز وجل - وبين خلقه.

إن وجـود العـالم يثبت وجود الله - عز وجل - لكنه قد يوحي لمن في قلبه مرض أنه سبب غير كاف مما قد ينقلنا إلى دائرة الشك.

ولـو قلنـا: إن الله - سـبحانه وتعالى - سـبب كاف لعنـى ذلك أن وجود العـالم ليس دليلًا على وجود الله - سـبحانه وتعـالى[1] - وأنه قد يكون هناك سبب كاف آخر هو الذي أدى إلى خلق العالم. ومع أن تعدد الأسباب الكافية نراه عبثًا (ولا يستقيم عقلًا) ولكن لأن التعريف يتحمل ذلك، ننوء بأنفسنا عن الاندراج فيه.

وأيضًـا قولنـا: إن الله - عز وجل - سـبب كاف يعني حسـب تعريفنا أن وجـود الله يعنـي ضرورة وجـود العـالم وهو ما رفضنـاه سـالفًا ونرفضه هنا

---

(1) على الرغم من أن وجود الخلق يدل على شيء من اثنين: إما على وجود أسباب متعددة كل واحدة منها ضرورية على حدة وجميعها مجتمعة كافية لوجود الخلق وهو ما ينقلنا إلى دائرة الشرك أيضًا، وإما على وجود سبب كافٍ واحد (لأنه لا ضرورة لوجود أكثر من سبب واحد كاف) . اقرأ إن شئت: ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾- (المؤمنون الآية 91) وأيضًا: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾﴾ (الإسراء: 42، 43).

أيضًا، لأن ذلك قد يدل على استمداد الله – سبحانه وتعالى – صفاته العليا الحسنى من خلقه. فيكون الله خالقًا فقط لأنه خلق العالم ويكون رزاقًا فقط لأنه يرزق عباده وهكذا وهذا ما نرفضه للأسباب التي أسلفناها.

وهنا نريد أن نذكر بالآية الكريمة: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ (الفرقان: 45) وكأن الشمس هي الدليل والسبب الأول للظل وليس العكس وكأن الآية تعطي إشارة إلى أن الله – سبحانه وتعالى – هو الدليل على وجود خلقه ليس العكس.

وبذلك نحاول أن نقول إن «إرادة الله» هي السبب الأول لوجود خلقه وكونه [1]، وأن السؤال عما إذا كان هذا يعني الفصل بين الله –سبحانه وتعالى– وإرادته نقول إن هذا من الخوض في ذات الله – سبحانه وتعالى– ولا يستطيع عاقل أن يقول إنه يستطيع معرفة ذلك إلا بمقدار ما يفتح الله به على عباده ويفتح عليه فتوح العارفين به.

نضيف أيضًا إننا نرى أنه ليس هناك ما يمنع أن يكون السبب الضروري كافيًا في الوقت نفسه، وهو ما نراه يستقيم مع الله – سبحانه وتعالى – ولا يستقيم إلا له وهو ما يتفق على أنه ليس كمثله شيء بالضرورة العقلية وبالنص على حد سواء.

ولذلك نستطيع أن نقول إنه من الأصح أن نقول إن السبب الضروري الكافي يدخل في نطاق الشرطية أكثر منه في السببية. (شرط أكثر من أنه سبب). وهو – اختصارًا ما يمكن اختزاله في عبارة إذا «س» فـ «ص». وهي

(1) إذا أراد شيئًا يقول له كن فيكون.

العبـارة التي تجعـل العلاقـة بين الســبب الضـروري الكافي وبين نتيجتــه: (If ....then .....) (إذا كذا ،.... إذًا كذا).

ومـن الممكن هنا أن يكون الـشرط إرادة «س» وليس فقط وجود «س». فلا يسـتقيم أن نقـول «إذا الله موجـود، إذًا الخلق موجـود» ولكن الأدق أن نقول: «إذا وجدت إرادة الله في أن يخلق، إذًا يوجد الخلق».

ولكـن يجب أن تحتوي الشرطية عـلى علاقة منطقية صحيحة لتكون ذات صلة بالواقع ومنطقيته. فلابد أن تكون هناك صلة بين ما سيعقب (إذا) وبين ذلك الذي سيعقب (إذًا).

وبالتالي ليست كل علاقة شرطية علاقة سببية.

فمثلًا لو قلنا: إذا «س» مثلث، إذًا «س» له ثلاثة أبعاد. هذه عبارة شرطية ليســت ســببية. فكـون «س» ذات ثلاثة أبعاد ليس بسـبب كـون «س» مثلثًا ولكن لأن ذلك هو تعريف المثلث (علاقة تعريفية).

ومثـالٌ آخر لإيضاح الصورة: إذا لم يكن المرحوم عباس العقاد هو كاتب كتاب «التفكير فريضة إسلامية» ، إذًا شخص آخر كتبه.

فعـلى الرغـم مـن عدم وجود سـببية مبـاشرة بين عـدم كتابة العقـاد لهذا الكتـاب القيم وبين وجود شـخص آخـر كتبه، فإن العبارة تبـدو من الناحية الشرطية المنطقية صحيحة.

وهنا نعود سريعًا لما قد أسلفناه من قبل من أن السببية شرطية (في الغالب وليس في كل وقت)[1].

---

(1) وإلا لدخلنا في دائرة الشرك مع الله - سبحانه وتعالى - وكأن هناك فاعلًا مع الله وهو ما لا نذهب به، فمنهجنا أن الله فاعل في كل شيء في كل وقت

فمثـلًا، النـار حارقة بفعل الله فيها (أن تحرق غالبًا) ويسـتطيع أن يعطل عمل الإحراق فيها.

وهذا ما يقع فيه الكثير من الناس إلا من رحم ربي بأن يظنوا أن «س» هو شرط لـ «ص» أو أن «س» سبب كاف لـ «ص» فقط لاعتياد وجودها إغفالًا لأنـه مـن الممكن أن يكون تلازمهما راجعًا إلى سـبب آخـر «ك» يقع عليها في أغلب الأوقات، خاصة لو كان ذلك السبب «ك» ذا إرادة حرة. (الله مثلًا).

اقـترح المفكـر والفيلسـوف دافيـد لويـس David Lewis أن كـل العبـارات الخاصـة بالسـببية مـن الممكـن فهمهـا بطريقـة معاكسـة للواقع (Counterfactual statements).

فمثلًا: العبارة القائلة بأن زيدًا مات مبكرًا بسـبب التدخين تكون مرادفة لقولنا: إنه لولا تدخين زيد لم يكن ليموت مبكرًا.

وقـد يقـول قائـلٌ ومـا الفائـدة التـي تعـود علينـا باسـتخدام العبـارة Counterfactual بدلًا من عبارات السببية المعتادة؟

في الواقع أنه ثبت بالتجربـة أن العقـل يسـتطيع أن يتقبـل أكثر أسـلوب الـ Counterfactual.

لأنه أكثر بساطة ولأنه أكثر إمكانية أن يؤدي إلى استطاعتنا حساب فرص أن يكون زيدٌ مازال حيًّا لو لم يكن يدخن.

وبالمماثلة نسـتطيع أن نعبر عن الجملة السـببية: إن وجود إرادة لخالق ما، في أن تخلـق الكـون أدت إلى وجـود الكـون - نسـتطيع أن نعبر عنها بشـكل

بهذا الشكل Counterfactual: لو لم تكن إرادة الخالق موجودة لخلق الكون، لم يكن ليظهر الكون إلى الوجود.

النقطة الوحيدة التي يعدها البعض مشكلة بالنسبة لفكرة دافيد لويس هي إهمالها إمكانية تدخل أسباب أخرى في الموضوع.

فمثلًا هب أن زيدًا لم يكن يدخن ولكنه مات ميتة مبكرة بسبب حادث أليم مثلًا، وبالتالي تكون عبارة بأن التدخين أدى إلى موته المبكر أدق - بشكل ما - من عبارة أنه لو لم يكن يدخن لمات ميتة مبكرة والتي تفيد حصر الموت المبكر بسبب التدخين فقط دون غيره.

وإذا طبقنا تلك المشكلة على مثال وجود إرادة الخالق - سبحانه وتعالى - قد يظن ظانٌّ أن عبارة لو لم تكن إرادة الخالق موجودة، لم يكن ليظهر الكون إلى الوجود تكون العبارة ليست على أتم الدقة إلا إذا:

(١) سلمنا سلفًا أن إرادة الله - سبحانه وتعالى - أزلية غير مسبوقة وبالتالي يستحيل عقلًا وجود أسباب أخرى تتدخل.

(ب) أو سَلَّمْنا أن هناك سببًا آخر أزليًا - غير مسبوق - أدى إلى وجود الكون وهو ما قد يتفق المؤمنون أيضًا على أن يسموه «الله».

والاحتمالان يخدمان التصور الأول بأنه يستحيل أن يكون ذلك الكون ليس له خالق ذو إرادة حرة مختارة. (Helpen and Pearl).

وأيضًا يجب أن نفرق بين ما يلي:

- The Contrapositive.
- The inverse.
- The Converse.

ويكون بدلًا من أن نشرحها جميعًا نسقطها على المثال الآتي:

الجملة الأصلية: كل الأشياء الخضراء لها لـون، وهى تعادل: (لو شيء أخضر، إذًا له لون) لو «س» إذا «ص». If P, then Q.

فالجملة الـ Contrapositive للجملة الأصلية تكون (لو شيءٌ ليس له لون إذًا ليس بأخضر) وهي تكون صحيحة.

Not Q, then Not P.

أمـا الجملة: لـو شيءٌ ليس بأخضر فليس له لـون (If not P, then not Q)، تكـون هـذه الجملـة الــ Inverse للجملـة الأصليـة وهـي ليسـت صحيحة بالضرورة لأنه من الممكن أن يكون شيءٌ ما أزرق مثلًا ويكون له لون.

أما الجملة الـ Converse للجملة الأصلية فتكون: لو شيء له لون يكون أخضر، وهي جملة غير صحيحة بداهة (If Q, then P).

أمـا الجملـة الــ Contradictory فتكـون مثلًا: يوجـد شيء أخضر وليس لـه لـون! P , then not Q، وهـي بداهـة غـير صحيحـة أيضًـا، ولـو كانـت الــ Contradictory صحيحة، لأصبحت الجملة الــ Converse والـ Inverse صحيحتين أيضًا.

ولكـن في بعض الأحيـان قد نجد أن الجملة الــ Inverse and Converse تكون صحيحة، ويكون ذلك في الجمل «التعريفية» التي نستطيع أن نستخدم فيهـا مصطلـح الــ (If) أو If and Only If الرياضي، وهو ما يعادل فلسـفيًّا ما أوردنـاه من أن السـبب يكون ضروريًّا وكافيًـا Necessary and Suffiecient أو Biconditional.

فلـو قلنـا مثلًا إن الشـكل يكـون مثلثًا «فقـط لـو» If (If and only If) له ثلاثة أضلع، لصحت في هذه الحالة أيضًا الجملة الـ Inverse لأن الشكل غير المثلـث لا يكـون له ثلاثة أضلـع. وأيضًا لصحت الجملة: لو وجد شـكلٌ له ثلاثة أضلع فهو مثلث بالضرورة (نقصد هنا شكلًا مغلقًا). هذا لأن العلاقة هنا علاقة تعريفية أكثر منها سببية.

وبالتالي نخلص إلى أن الجمل الصحيحة هي ست:

1- لو الجملة الأصلية صحيحة، إذًا الجملة الـ Contrapositive دائمًا صحيحة.
2- لو الجملة الأصلية غير صحيحة، إذًا الجملة الـ Contrapositive دائمًا غير صحيحة.
3- لو الـ Inverse لجملة صحيح، إذًا الـ Converse لنفس الجملة دائمًا صحيح.
4- لو الـ Inverse لجملة غير صحيح، إذًا الـ Converse لنفس الجملة دائمًا غير صحيح.
5- لو الـ Contradiction لجملة غير صحيح، إذًا الجملة صحيحة.
6- لـو جمـلة (أو الـ Contrapositive الخـاص بها) والـ (Inverse أو الـ Converse)، كلتاهما صحيحتان أو كلتاهما خطآن، إذًا هي جملة: ضرورية Logically Biconditional (P iff Q أو P if and only if Q).
P هنا هي الفرضية وQ هي الاستنتاج.

نخلـص بذلـك إلى أنه – ونحن في صدد الحديث عن العلاقة بين الكون وبين خالقه – سـبحانـه وتعـالى – نسـتطيـع أن نقيـس العلاقـة على النحـو الـ Contrapositive .

فلو الجملة صحيحة، يكون الـ Contrapositive دائمًا صحيحًا.

فلو قلنا إن الجملة هي: كل شيء محسوس (p) له خالق .(q)فإنه لو لم يكن هناك خالق (Q) لما كان هناك وجود لـ(P).

(If P then Q..... If not Q, then not P)

إذًا لو سلمنا بالوجود لسلمنا بالخالق.

ولكـن قـد يقول قائل: إنه يوجـد من ينكر الوجود نفسـه ونقول إن هذه المناقشـة ليست في هذا المقام وإن من ينكر الوجود وبالتالي وجوده هو نفسه، عليـه أن ينـصرف عنا حتى يثبت وجوده قبل أن يناقشـنا؛ فنحن لا نحب أن نناقش عدمًا ولا نستطيع مناقشة شيء لم يثبت وجوده!

والآن لننتقل إلى نقطة أخرى وهي السـؤال الآتي: هل فعلًا يمكن إثبات وجود الله؟ وما طبيعة هذا الإثبات؟ وما أنواع الإثباتات المختلفة؟

ومتى تكون الحقيقة العلمية صالحة لأن تكون دليلًا علميًا؟

ولنبـدأ بالسـؤال الأخـير، بكتـل Bechtel يقدم لنـا عوامل من شـأنها أن تساعدنا على أن نحدد ونقيم مدى صلاحية الحقيقة العلمية لأن تكون دليلًا علميًـا: منهـــا: وضـوح المعلومــة، توافقها مـع نتائج توصـل إليها بطرق أخرى ومدى توافقها مع النظريات المقبولة وهكذا ومدى صحة العلاقة بين الافتراض والدليل.

والآن دعونـا ننتقـل إلى نقطة أخرى وهي علاقة ما نقول ونحن في صدد الحديث عن وجود الله - سـبحانه وتعالى[1] - وأصناف الإثباتات المختلفة،

---

(1) وكاتب هذه السطور الفقير إلى الله يقر ويعترف بأنه أقل من أن يتعرض لمثل هذه القضية وأقل وأفقر من أن يتناول أي شيء قد يمس - دون أن يقصد - قدسية الله - سبحانه وتعالى - والله المستعان وأستغفره وأتوب إليه.

مـن البدهـي أن الدليـل (أو الأدلـة) هي التي تـؤدي إلى الإثبـات، (وأقصد الأدلة الصحيحة ذات العلاقة الصحيحة بالإثبات).

فما أنواع بعض تلك الأدلة؟

هناك الدليل الأساسي والدليل الثانوي Primary and Secondary ونقصد بالدليل الأساسي (Primary) هو المبني على «شهود عيان» Eye Witness First Hand.

أما الدليل الثانوي، فهو أي شيء آخر.

للأسـف هنـاك توجه يرى بـأن الدليل الأسـاسي أقوى دائمًا مـن الدليل الثانـوي وهذا ليـس صحيحًا دائمًا بالـضرورة. أو أن الدليل الأسـاسي دائمًا يجب الاعتداد به. والإجابة عن هذا بسيطة، استمع فقط لشهود عيان مختلفين وستجد حتمًا اختلافاتٍ بينهم.

السـبب الوحيد الـذي قد يجعلنا نعتد أكثر بالدليل الأسـاسي هو أنه أكثر احتمالية أن يكون صحيحًا.

فلو أن ابني حسن جاءني بجواب من مُدرسة فصله تشهد له فيه بالذكاء، فهـذا ليـس دليلًا كافيًا على أنه كذلك، لأنني لا أعلم يقينًا أن المدرسـة كتبت هذا الجواب ولا أعلم يقينًا مدى دقة اسـتنتاجاتها، ولكن لو شهد مثلًا أربعة مدرسـين آخرين على أن المُدرسة كتبته، فهذا يجعل احتمالية أنها بالفعل كتبته أكـبر. ولكن هـل يجعلني هذا أعلم يقينًـا أنه ذكي؟ ليس بعـد، لأنني عندئذ يجب عليَّ أن أثبت أن هذه المدرسة:

- حكمها صحيح وحكيم دائمًا.
- تقول ما تعتقد دائمًا بصدق دون مجاملة.

وهاتان النقطتان من الصعب (إن لم يكن من المستحيل) إثباتهما على سبيل اليقين المطلق.

فما الذي أريد أن أقوله؟ أريد أن أقول إن الإثباتات بصفة عامة تعتمد على دلائل أغلبها (Subjective) وبعضها (Objective) وأنه هناك فرق بين إثبات الشيء بناء على دليل مثبت (Verified Evidence) وبين تقديم نفس الشيء بناء على دليل صحيح (Validated Evidence).

ففي المثال السابق، لو أُثبت بناءً على دليل مثبت أن المُدرسة كتبت هذا الجواب ، فهذا لايعني بالضرورة أن مضمون الجواب صحيح.

ولكن ما يزيد من احتمالية كون ما في الجواب صحيحًا هو قوة الدليل الصحيح أو تعدد الأدلة الصحيحة القوية.

فمثلًا لو أُثبت أن المدرسة هي التي كتبت الجواب وأنها بالفعل تحقق المبدأين: حكمها صحيح وحكيم دائمًا وأنها تقول ما تعتقد دائمًا، فهذا بالفعل يزيد من احتمالية أن ابني حسن ذكي. وقد يزيد من هذه الاحتمالية لو أثبت أن كل مدرسي مدرسته الحكماء الذين يقولون الصدق دائمًا كتبوا جوابًا مماثلًا أيضًا[1].

---

(1) قس على ذلك ما يعتقده المسلمون من إجماع كل من عاصر رسول الإسلام بأنه الصادق الأمين، وهو ما يزيد صدقه في ادعائه وأمانته في النقل عن ربه.

وفي الحقيقـة أن كل الأبحاث العلمية تعتمد على مبدأين أساسـيين: مبدأ هاملـت Hamlet Principle ومبـدأ لابـلاس LaPlace Principle. الأول يقول إن «كل شيء ممكـن» والثـاني يقول «إنه كلما ازداد عـدم احتمالية الشيء، تحتم عليك أن تأتي بدليل أقوى لتؤمن به».

فلو جاءني كل مدرسي المدرسـة قائلين إنهم رأوا حمارًا أحمر اللون يطير في السماء، قطعًا سأحتاج إلى أدلة أقوى لإثبات صحة ذلك!.

وبالمثـل: الـشيء المقبـول المتعـارف عليـه عنـد النـاس، لـو أردت أن تنفيـه، فيجـب عليـك أن تخـرج علينـا بأدلة أقـوى حتى نؤمـن بما تقول (Burden of Proof).

فالمنكر لوجود الله عليه أن يخرج علينا بأدلة قوية تثبت ظهور ذلك الكون الفسيح البديع إلى الوجود من لا شيء وبأدلة أخرى قوية تفسر كيفية استمرار ذلك الكون بهذا النسق العجيب المبدع.

وحتى يفعلوا (ولن يفعلوا) يبقى تفسير وجود الخالق هو التفسير الوحيد المنطقي المقبول لدى الغالبية العظمى من البشر منذ فجر الحياة.

لا يفوتنا في هذا المقام أن ننوه بأننا ندرك تمام الإدراك أن الكثير من الأشياء التي كانت مقبولة لدى غالبية البشر ثبت خطؤها بعد ذلك (مثل فكرة دوران الشـمس حـول الأرض) أو مركزيـة الأرض في الكون ... إلـخ. ولكن هذا يؤيـد فكرتنـا ولا يعارضها فنحن لا نقول إن ما هو مقبول لدى غالبية البشر

هو الصحيح. ولكننا نقول إنه يبقى صحيحًا إلى أن يثبت العكس. خاصة لو كان يحمل أدلة منطقية في طياته.

ولكن ماذا عن الإثباتات الرياضية؟ والإثباتات المنطقية المحضة؟ وعلاقتها بما نقول؟

1- الدليل المباشر (Direct Proof):

الاستنتاج يبنى على الربط بين البديهيات والتعريفات والإثباتات السابقة. فلو أردنا أن نثبت مثلًا أن مجموع رقمين زوجيين هو رقم زوجي نقول:

لأي رقمين صحيحين زوجيين س وص نستطيع أن نكتبهما:

س = 2أ، وص = 2ب، لأي رقمين صحيحين أ، ب. لأن س وص هما مضاعفا الـ 2.

ولكن مجموع س + ص = 2 أ + 2 ب = 2 (أ+ب)، هو أيضًا من مضاعفات الـ 2.

إذن مجموعهما هو رقم زوجي أيضًا.

If x is an even number and y is an even number.
∴ we can write $x = 2a$, and $y = 2b$, where a & b are some integers.
∴ both x and y are multiples of 2.
But $x + y = 2a + 2b = 2(a+b)$ is also a multiple of 2,
∴ the sum is an even number by definition.

2) **إثبات عن طريق التناقض (Proof by Contradiction):**

وهو أكثر الإثباتات في الرياضيات شيوعًا ويعتمد على استبعاد الاحتمالات المستحيلة للوصول إلى الإثبات الصحيح (يلاحَظ هنا نفس منهجية التفكير في استحالة عدم وجود الله – سبحانه وتعالى – والإرغام عقلًا بالتسليم بوجود الخالق عز وجل).

ويعرف هذا المنهج أيضًا بالـ Reductio ad Absurdum

وهو باللاتينية يعني (By reduction toward the absurd)

ولنعط مثالًا وهو إثبات أن جذر 2 هو رقم غير صحيح Irrational number وهو الرقم الذي لا نستطيع أن نعبر عنه بـ m/n حيث integers m & n عددين صحيحين و n ليست صفرًا (n not equal 0). و m , n لا يشتركان في Common factor (وهو تعريف الـ Rational Numbers).

فنفترض العكس أولًا: نفترض أن: جذر 2 هو رقم صحيح (rational number).

جذر 2 = (b/a) .... (1)

حيث b لا تساوي 0 ولا يوجد Common factor بينهما.

$\therefore a = b\sqrt{2}$ from (1)

ولنربع المعادلة (الناحيتين)

$a^2 = 2b^2$ ------(2)

$\therefore a^2$ رقم زوجي

$\therefore$ a رقم زوجي أيضًا

إذن يمكن أن تكتب a كالتالي: a = 2c حيث «c» أي عدد صحيح.... (3)

ولنعوض (3) في (2).

$\therefore 2b^2 = (2c)^2 = 4c^2$

$\therefore b^2 = 2c^2$.

$\therefore$ b2 رقم زوجي

$\therefore$ b رقم زوجي أيضًا

$\therefore$ a & b = رقمان زوجيان مشتركان في common factor وهو الرقم 2

وهذا يناقض تعريفنا لـ Rational Number

إذن نحن مجبرون على أن نسلم أن جذر 2 هو رقم Irrational (ليس Rational) وذلك استنادًا لمنهج الإثبات عن طريق التناقض.

وهذا يتضح أيضًا عن طريق الـ Pythagoran theory في المثال التالي:

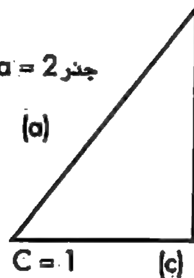
ABC هو مثلث قائم الزاوية و1= b , c

مثلث زاوية قائمة abc

و1 = B = c

حيث $a^2 = 2b^2$

لأن $a^2 = b^2 + c^2$ & b = c



وما سبق في الإثبات عن طريق التناقض يدل أنه ليس من الضروري أن يكون إثبات الشيء فقط عن طريق الإثبات المباشر، فعندما يقف العلم حائرًا يتدخل المنطق والعقل ليحلًا المسألة.

فلو توقف العلم عند الـ Big Bang ولا يعرف ما الذي قبلها، يتدخل العقل والمنطق ليصلا إلى أقرب الحلول.

وهناك أنواع أخرى عديدة من الإثباتات الرياضية لا يسمح المقام هنا بطرحها جميعًا: مثل:

Probabilistic Proof, by exhaustion, proof by contraction, .Combinatorial proof, non constructive proof, visual elementary proof, two column proof, statistical proofs, computer assisted proofs.... etc.

دعونا نتناول الإثبات غير البناء Non Constructive Proof لأنه يماثل الإثبات عن طريق التناقض في أنه يثبت أن كيانًا رياضيًّا معينًا لابد أن يوجد مثلًا some X satisfies f (x) دون أن يشرح كيفية وجوده. ولكنه يثبت استحالة عدم وجود ذلك الكيان. (ويذكرنا ذلك بنهج مألوف قد تناولناه في فصول سابقة. والمثال المشهور لذلك هو إثبات وجود رقمين ab irrational حيث إن a^b رقم rational:

إما أن (جذر2) أس (جذر2) هو رقم rational إذًا جذر2= a = b .

أو أن (جذر2) أس (جذر2) هو رقم irrational فنستطيع أن نكتب a= جذر2 أس جذر2 وb= جذر2

فيعطينا ذلك أن (جذر2 أس جذر2) أس جذر2 = جذر2 أس2=2 وهو رقم rational بشكل ab.

إذًا الـذي نريـد أن نقوله هـو أنه في قضية إثبات وجـود الله عز وجل، لا يتصـور أن يثبـت ذلك عـن طريق المشـاهدة وذلك لقصور فينـا نحن. ﴿ لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَ﴾ والأبصار هنا قد تكون ليسـت فقط للمشـاهدة بالعين ولكـن قد تعني بالعقل أيضًا: مثـل قوله تعالى: ﴿فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾.

ثـم إن الإثبات ليس بالـضروري أن يكون إثباتًا مبـاشرًا أو إثباتًا تعريفيًا بـل قـد يكون عن طريق التناقض كما أسـلفنا، بل في الحقيقـة قد يكون مزيجًا بينها جميعًا.

فمثلًا جملة مثل: «الله ذو وجود: لأنه يسـتحيل وجود ذلك الكون دونه» (إثبات عن طريق التناقض)

وجملـة مثـل: «الله ذو وجود: لأن كل نتيجة لها سـبب وكل فعل له فاعل (إثبات مباشر).

وجملـة مثـل: الله ذو وجـود: لأنـه خالق الخلـق وهو الدليـل على وجود الخلق (إثبات تعريفي).

بقـي أن نقـول إن عـدم الإحاطـة بجميع عنـاصر الأشـياء لا يعني عدم إمكانية إثبات شيء آخر عام.

فلو قلنا مثلًا إن أي رقم زوجى إذا جُمع على رقم فردي لكان الحاصل رقمًا فرديًا فمثلًا: 9 = 3 + 6.

لأنـه لو س رقم فردي ، إذًا: س + م س (حيث م رقم يقبل القسـمة على 2)= رقم فردى 3 + (2)3

أو أن أي رقمين فرديين يكون حاصل جمعهما زوجيًا .. إلخ. لا يلزم ذلك أن نجرب جميع الأرقام (اللانهائية) حتى نصل إلى النتيجة النهائية، وإلا لكان ذلك من العبث.

وهذا هو أساس المنهج الـ Inductive حيث يتم استخدام حقائق خاصة لإثبات حقيقة عامة.

ولكن الأمانة العلمية تحتم علينا في هذا المقام أن نقول إن الـ Induction لا يكون دائمًا منهجًا مؤكدًا للإثبات. ولا تكون حجة الـ Induction صحيحة إلا إذا كان الافتراض (Premise) والنتيجة (conclusion) صحيحين. لأنه قد يكون الـ Premise صحيحًا والـ Conclusion غير صحيح. أو العكس وبالتالي تكون الحجة غير صحيحة.

ولذلك فإن الفيلسوف الأسكتلندي ديفيد هيوم David Hume بين أن تفكيرنا المنطقي اليومي يعتمد أساسًا على تكرار الخبرات وليس عن طريق المنهج الـ Deductive الصحيح.

فمثلًا نحن نصدق أننا نحيا بالخبز لأن آباءنا وأجدادنا عاشوا به ولكن لا يوجد ما يؤكد منطقيًا أنه سيفعل في المستقبل!.

ويضيف هيوم أنه على المتشكك كل التشكك في ذلك ويريد أن يبحث عن الأدلة القاطعة أن يموت من الجوع قبل أن يصل إلى الحقيقة! وهو ما يعرفه هيوم بحاجتنا إلي التشكك العملي وليس التشكك المحض في كل شيء.

ونستطيع أن نقول إن علم الحفريات مثلًا يعتمد أساسًا على الـ Induction لأنه يصل إلى نتائج خاصة بغير المراقَب عن طريق الذي يستطيع مراقبته.

وهذا يؤيد ما قلناه سـلفًا من أن نظرية داروين للنشـوء والارتقاء مجرد نظرية لا ترتقي إلى أن تصل إلى مرتبة الحقيقة العلمية.

ولكن ماذا عن منهج Deduction ؟

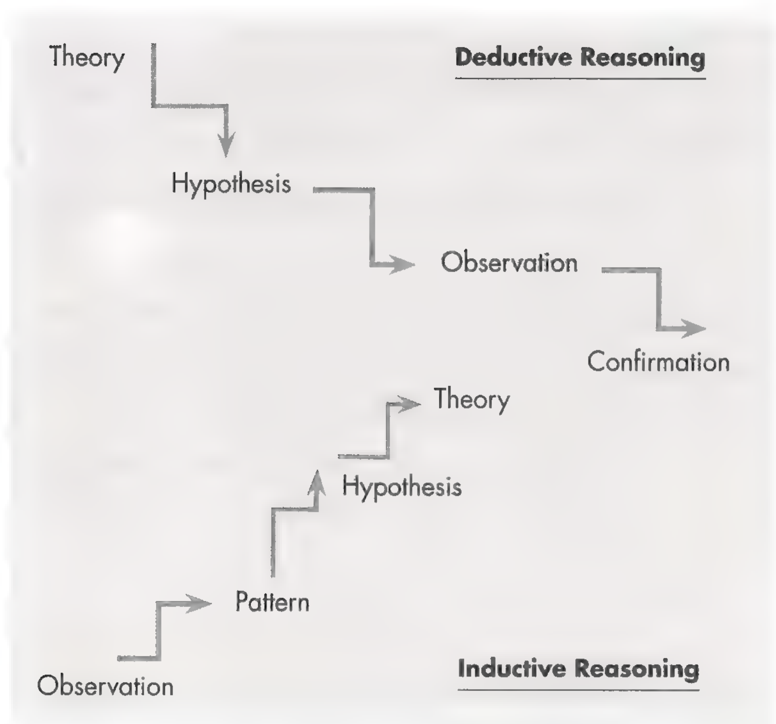
المنهـج الــ Deductive يعمــل مــن العـام إلى الخــاص إلى الأخــص (Top-Down) عكـس الــ Induction ، فنسـتطيع أن نفكـر أولًا في نظريـة (theory) في موضـوع ما، ثم نحـدد التفكير إلى فرضية محددة (hypothesis)، ثـم نحدد أكثر عندما نجمع ملاحظـات (Observations) لتناقش الفرضية، وبالتالي نسـتطيع تقيـم الفرضية واختبارهـا مع البيانات المحـددة لنصل في النهاية لتأكيد أو عدم تأكيد النظرية الأصلية.

أما في حالة الـ Induction وكما أسلفنا سابقًا فالمنهج يمشي بشكل عكسي، ليتحرك من المحدد التفصيلي إلى العام فالأعم (Bottom-Up).

فنبـدأ بملاحظـات أو قياسـات خاصة محددة ثـم نبدأ في إيجـاد علاقات (Relations) أو (Patterns) ومتكررات بينها حتى نبني فرضية محددة نستطيع أن نستكشـفها ونقيمهـا ثم في النهاية نسـتطيع أن نتوصـل إلى نتيجة عامة أو نظرية.

وفي الواقـع، نحـن هنا لا نفاضـل بين منهجي التفكـير، ونخلص إلى أن كليهـما ذو قيمـة في وقت محدد، فالمنهج الــ Inductive مفيد في حصولنا على نظريـات علميـة لم تكن لتصـل إلى عالمنا لـولا دقة الملاحظة لـدى العلماء في الأشياء المحددة.

أمـا المنهـج الــ Deductive فمفيـد جدًا في تأكيـد تلك النظريـات وتقييم صلاحيتها وهل هي صالحة دائمًا أم غالبًا وهكذا.



فكما هو مبين في الشكل أعلاه، نستطيع لو أوصلنا المنهجين معًا أن نوجد حلقة واحدة متكاملة تبدأ من النظرية وتمر بالمشاهدة والملاحظة وتعود إلى النظرية (أو تعديل وتطوير النظرية مرة أخرى).

وهذا هو المنهج الذي نرى أنه صالح للعلوم الإنسانية بشكل عام ولموضوعنا بشكل خاص.

فملاحظة أن كل شيء له سبب (الخاص) وصولًا إلى أن لهذا الكون خالقًا (العام) هو منهج Inductive. ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾.

والادعاء بأن هذا الكون كله (العام) لابد أن يكون له خالق (النظرية) ثم الوصول إلى دقائق الكون المذهلة المعقدة (الخاص) هو منهج Deductive ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ (الأنبياء: 22) ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا ﴾ (النساء: 82) والمزج بين المنهجين هو في رأيي المتواضع ازدراء للإيمان واليقين.

ولكن ماذا عن الرأي الآخر؟ ماذا عن حجج هؤلاء الذين لا يؤمنون بالله؟ ما أقوى أدلتهم على عدم وجود الله؟ هل عندهم دليل على عدم وجود الله؟ أو لنسأل السؤال بشكل آخر: هل عندهم دليل على استحالة وجود الله عز وجل؟ هذا ما سنتناوله في الفصل الخامس من هذا الكتاب.

الفصل الخامس

حجج غير المؤمنين والرد عليها

"النظرة الأولى من خلال كأس العلوم الطبيعية ستحولك إلى الإلحاد، ولكن في قعر (قاعدة) الكأس، الله ينتظرك!"

«فيرنر هايزنبرج»

لنحاول في هذا الفصل أن نتعرض لأقوى حججهم وبعضها كما سنجد ما قد تعرضنا له في فصول متفرقة من هذا البحث، ولكن رأينا أن نعيدها هنا مرة أخرى لتكون هي وغيرها محصورة بإيجاز في هذا الفصل:

1- لا يمكن أن يكون هناك إله لهذا الكون مع كل الشر الذي نجده في هذه الدنيا!

الجواب (ا): ليس كل ما تراه شرًّا هو في حقيقته شرًّا فالدواء المرُّ قد يكون سببًا في الشفاء.

الجواب (ب): لو لم يكن هناك ما تظنه شرًّا في هذه الحياة الدنيا لاستحالت أن تكون هناك حرية لاختيار الإنسان سواء للخير أو للشر (أو ما نظنه شرًّا).

الجواب (ج): صدق السائل في جزئية بسيطة من سؤاله وهي قوله «في هذه الدنيا» ونقصد بذلك أننا نرى مجرد جزء بسيط من شيء أكبر أو قُل فصلًا قصيرًا من رواية طويلة فكيف نستنتج أنه لا يوجد كاتب لهذه الرواية لمجرد أننا لا يعجبنا فصل منها؟!

الجواب (د): السؤال نفسه في نظرنا غير منطقي، إذ ما دخل الشر الذي نجده في هذه الدنيا بوجود خالق أم لا؟ لا بد وليستقيم السؤال حسب الحجة، أن يُستبعد وجود إله (رحيم) مثلًا في ظل ذاك الشر. ولكننا نجد أن تلك الحجة كثيرًا ما تستخدم (زورًا) في نفي وجود الخالق من الأساس وهو ما لا يوجد له سند أو استدلال عقلي له على الإطلاق!

2- وجود الكون[1] هو أكثر الأشياء إبداعًا. الإبداع ما هو إلا مزيج بين دقة الشيء وجودته وبين قدرة صانعه. وكلما زادت الإعاقة لدى الصانع، زاد الإعجاز.

ومقتضى هذه الحجـــة هو أن أكثر شيء إعاقـــةً هو عدم الوجود، وبذلك لو افترضنا أن هذا الكون صنعه خالق، لا بد ليكون فعلًا هذا الكون أكثر شيء إبداعًا، لا بد أن يكون ذلك الخالق غير ذي وجود!!،

(The God Delusion, Richard Dawkins , Page 110)

ولأن مثل هذه الحجج غير جديرة بالرد عليها في نظرنا فلن نفعل ولنترك القارئ الكريم أن يدلي بدلوه إن كان عنده بعض الوقت ليضيعه ردًا على هذه الحجة الواهية مع تحذيرنا أن التفكير في مثل هذه الحجة قد يسبب الإعاقة الذهنية للقارئ!!

3- كيف تثبتون وجود الله بادعائكم أنه لا بد من صانعٍ لهذا الكون، ثم لا تفسرون كيفية وجود ذلك الإله بدون صانع؟

---

(1) على الرغم من سذاجة هذه الحجة والتي أوردها Richard Dawkins في كتابه The God Delusion على لسان الأسترالي دوجلاس باسكينج فإننا نوردها لنبين مدى سذاجة ذلك الكتاب وكاتبه.

الجواب: كما أسلفنا من قبل، إنه بتسليمنا أن لكل نتيجة سببًا، لا تستدعي بالضرورة أن يكون هناك سبب لكل سبب وإلا لانتهينا إلى ما لا نهاية وهو المستحيل بعينه.

4- صانع الشيء الصعب إيجاده (مثل صنع الكون مثلًا) لا بد أن يكون احتمال وجوده أصعب.

الجواب: من قال ذلك؟ ليس بالضرورة ولا نرى علاقة منطقية تحتم ذلك وعلى المدعي الإثبات.

5- نعم نعترف أن وجود هذا الكون شيء صعب تفسيره وأن احتمالات وجوده دون إله ضئيلة للغاية، ولكن لو وزعنا هذه الاحتمالات على بلايين النجوم في ملايين المجرات، فليس من المحال عقلًا أن نجد كوكبًا واحدًا على الأقل في مجموعة شمسية (كوكب الأرض مثلًا) يصلح للحياة من بين كل هذه الاختيارات والاحتمالات.

الجواب: أولًا من الذي أقر بأن الاحتمال ضئيل؟ نحن نرى أنه مستحيل وليس ضئيلًا، لأن احتمال قيام الشيء يعتمد على العناصر المستخدمة في التجربة قبل التجربة. وإلا فما معنى وجود أي احتمالية وجود شيء من لا شيء؟ وما معنى وجود تجربة دون وجود لعناصر التجربة أصلا؟! فأي رقم مضروب بصفر ناتجه صفر. وأي تجربة عناصرها العدم ناتجها العدم. ثم من الذي سيوزع الاحتمالات على جميع المجموعات الشمسية والكون؟ فلو كان من المستبعد (أو المستحيل أن يلقى فرد - باعتبار وجود ذلك الفرد أصلا! - بعض الحروف فيخرج لنا قصيدةً لأحمد شوقي، فإنه ما زال من المستبعد (أو المستحيل) أن تخرج لنا هذه القصيدة حتى لو ألقيت الحروف بلايين المرات المتتالية عن طريق قردة مختلفة. فمن مسلمات علم الاحتمالات أن احتمالية التجربة تبقى ثابتة

مع كل مرة تؤدى فيها التجربة. ثم إنه على المدعي أن يجاوب على سؤال من أوجد هذه البلايين من الكواكب التي يدَّعي أنها سترفع إمكانية وجود حياة عليها؟!

6- المعجزة هي شيءٌ وهمي لأنه لا يمكن خرق الحقائق العلمية. فالنار تحرق والعصا لا تتحول إلى ثعبان ولا أحد يستطيع أن يحيي الموتى.

يوجد ردان لهذه المسألة: أولهما أن كثيرًا من أجهزة الاتصالات كنا نعدها من المستحيلات -فقط من عشرات السنين- والآن أصبح الطفل ذو الثلاثة أعوام ليس لديه مشكلة البتة في أن يمارسها ويستخدمها فضلًا عن أن يقتنع بها. فماذا عن قدرة من نؤمن أنه خالق ذلك الكون كله بحقائقه العلمية وخباياه؟

هذه واحدة، أما الثانية فهي أنه ليس لأن خبراتنا السابقة تقول إن النار حارقة، ليس معنى ذلك وجود دليل غير قابل للمناقشة أنها ستفعل في المستقبل (راجع الفصل السابق) الذي أوردنا فيه أن النار حارقة غالبًا بإرادة الله فيها ولذلك قال بعض علماء التصوف: من يقل بالطبع أو بالعلة، فذلك كفر عند أهل الملة. موزتان + موزتان = 4 موزات.

ولنضرب مثالًا بسيطًا لنقربه للأذهان 2 + 2 = 4 .

لكن لو قلنا إن 2 + 2 = 3 . هل هذا مستحيل؟ بالطبع لا، لأنه يمكن أن نكون قد أخذنا واحدًا من المعادلة مثلًا. فهل يدعي مدع أنه أحاط بجميع المؤثرات على جميع معادلات الكون. أليس ذلك الإله الخالق الذي يؤمن به الناس قادرًا على أن يسلب النار خاصية الإحراق فيها ولو لمرة؟ بلى قادر. وذلك ما نطلق عليه نحن المعجزة.

7- لم نجن من الأديان إلا الشرور والحروب والكراهية.

الجواب الأول: ندعو القارئ الكريم أن يعود إلى الفصل الأول الذي ذكرنا، والذي أفردنا فيه فصلًا كاملًا لأثر الدين في المجتمعات.

الجواب الثاني: هو مسألة القيم. لو لم يكن هناك إله، لم يكن هناك مقياس موحد للقيم الإنسانية، وبالتالي من الذي يحدد الخير والشر؟ وبالتالي كيف نقول إن الأديان لم تجن علينا إلا الشرور؟ فما الشر حينئذ؟ وهل هو من منظوري أم من منظورك؟!

8- الأديان كثيرة وبالتالي أي إله يجب أن نعبد؟

الجواب: تعدد الديانات (لا الأديان) لا يدل على شيء، فلو كان هناك قدر كاف من الأرضية المشتركة، قد تكون هناك أكثر من ديانة صحيحة، ولو لم يكن هناك ذلك القدر فقد يكون أحدهم صحيحًا، ولا تعني التعددية لنا بالضرورة أن كلهم غير صحيح أو أن الله غير موجود. وغالبًا ما يقصد أنصار هذا الرأي شيئًا من اثنين: إما أن التعدد يدل على التناقض وبالتالي عدم الصحة وهذا ما جاوبنا عليه لتونا. (حتى في البرهان الحسابي قد تجد أن (س) تساوي أكثر من رقم). وإما أن هناك قدرًا من الأشياء المشتركة بين تلك الديانات ، فيستنتج أصحاب ذلك الرأي أن ذلك يعني بالضرورة أن بعضهم أخذ من البعض الآخر وهذا يدل على عدم الصحة أو على أقل تقدير يدل -في نظرهم - على بشرية تلك الديانات. ونحن نرى أنه لا ضرورة لصحة ذلك الاستنتاج فما الذي يمنع أن تكون بعض (أو كل) هذه الديانات من مصدر إلهي واحد ولذلك تشابهت؟

9- التصميم الذكي الذي نراه في الكون ليس بالضرورة أن يكون بسبب خطة مسبقة من إله حكيم ولكن من الممكن أن يكون ذلك عن طريق التطور التدريجي عبر ملايين السنين دون خطة مسبقة ولكن عن طريق

الانتخاب الطبيعي ، ليس عن طريق الصدفة كما يقول غير الفاهمين لنظرية التطور، فالتصميم الذكي الذي نراه في كثير من الأنظمة في الكون لا يتحتم أن يكون عن طريق إما إله حكيم أو عن طريق الصدفة فقط، ولكن من الممكن أن يكون بسبب آخر غيرهما وهو التطور عن طريق الانتخاب الطبيعي.

الجواب: نحن نرى أن التطور عن طريق الانتخاب الطبيعي غير قادر على أن يفسر لنا بعض الأنظمة التي نعتبرها Irreducable Complex (غير قابلة للتبسيط-راجع فصل نظرية التطور) وعلى الرغم من محاولات الكثيرين من أنصار النظرية أن يظهروا قدرتها أن تصل بهذه الأنظمة إلى شكلها الحالي، إلا أن حججهم في هذا النطاق واهيةٌ – في رأينا – وإلى أن يخرجوا علينا بحلول أكثر إقناعًا ، لا نستطيع إلا أن نسلم بإله حكيم خالق لهذه الأنظمة (ولمزيد من التفصيل في هذه المسألة نرجو إعادة قراءة الفصل الخاص بنظرية التطور).

ثم إن قولهم إن التطور عن طريق الانتخاب الطبيعي مغاير للصدفة، هو قولٌ باطل لأن الصدفة في حقيقتها ما هي إلا نتاجٌ لسلسلة من الأحداث العشوائية[1].

والأحداث المتتالية العشوائية هي عبارة عن سلسلة من الصدف الناتجة عن فكرة البقاء للأصلح أو ناتجة عن التعرض العشوائي لمؤثرات معينة (والأصلح هنا أصبح أصلح عن طريق الصدفة وإلا فما الذي جعله أصلح؟).

---

(1) في نظر غير المؤمن بالله عز وجل، أما المؤمن فهو يرى أن كل صغيرة وكبيرة وكل حدث في هذا الكون يحدث لسبب ولحكمة قدرها العليم الخبير أزلًا.

فالمحصلة واحدة وهي أن الآلية الأساسية في نظرية التطور وهي الانتخاب الطبيعي معتمدة بشـكل متأصـل على العشوائية Random Selection. والعشوائية ما هي إلا سلسلة من الصدف المتكررة.

ونحن نرى أن هذه السلسلة من الصدف العشوائية غير قادرة على أن تصل بنا إلى الأنظمة المعقدة أو التصميمية العديدة التي تنطق في كل لحظة بأن وراءها عقلًا حكيمًا خبيرًا [1].

ثم إننا لو سلمنا جدلًا أن سلسلة الصدف العشوائية هذه استطاعت أن تفعل ذلك، فما الذي يمنع أن ما نراه عشوائيًا يكون هو عين الحكمة في نظر الإله الخالق سبحانه وتعالى وأن حدود عقولنا أو علمنا لا يسمحان أن نحيط بعلمه شيئًا وأن نعرف حقيقة تلك السلسلة وهي أنها ليست عشوائية كما يظن البعض، وإنما ترتقي عبر السنين حسب خطة محكمة؟!

10- نظريات الكم الحديثة تدل على أنه من الممكن أن ينشأ الكون من لا شيء وأن الكون محيط بذاته Self Contained لا يحتاج إلى إله لأنه مجرد كون كائن!.

الجواب: غالبًا هؤلاء الذين يثيرون هذا الرأي يقصدون ما قاله ستيفن هوكينج في كتابه الماتع «A Brief History of Time» ولكن المشكلة أن تفسير كلمة «self contained»، تحتاج الكثير من التأمل. فما معنى أن يكون الكون محتوى ذاتيًا؟ نريد تفسيرًا علميًا لهذا المعنى لأننا نرى أن

---

(1) (نرجـــو مطـــالعة على Youtube: http://www.youtube.com/watch?v=eakKfY5aHmY لمشاهدة صورة جميلة ومختلفة من هذه الأنظمة التي ترسمها بعض الطيور في توافق بديع جميل ندعو أنصار نظرية التطور العشوائي أن يفسروه لنا وكيف يضيف ذلك النسق الجمالي إلى فكرتهم المتمثلة في الصراع من أجل البقاء.

طرح مثل هذه المفاهيم دون شرحها باستفاضة يعني تركنا لما هو علمي إلى ما هو وراء الطبيعة Metaphysical.

أما فكرة أن يخرج الشيء من لا شيء معتمدًا على أنه يحتوي على ذرات سالبة وموجبة متكافئة وأن هذا يخرق قوانين الديناميكا الحرارية، فقد تعرضنا لهذا القول في فصل سابق وخلصنا أن قول «لا شيء» الآن ليس دقيقًا لأن «اللا شيء» الآن ليس «كاللاشيء قبل إيجاد الكون لأنه حتى الفراغ المصطنع ليس بعدم ، فمثلًا جدار الأسطوانة التي تستخدم في التجربة يحتوي علي ذرات، ولذا نرى أنه من المستحيل محاكاة ما كان قبل الوجود لأنه العدم ذاته وهو ما لا نستطيع أن نتصوره فضلًا عن استخدامه. وبالإضافة إلى ذلك فإن إجراء التجربة نفسها يكلف الملايين ووراءها عشرات العقول من العلماء المخضرمين، فكيف نسلم أن تجربة الوجود لا تستلزم عقلًا واحدًا لإيجادها ؟!

11- لسنا في حاجة إلى ذلك الإله. فالعلم يستطيع -فضلًا عن تفسيره أشياءً كثيرة، يستطيع أن يخلق لنا أشياء أكثر تيسر لنا الحياة.

الجواب كما قلنا من قبل أن العلم يتعرض لسؤال لماذا وليس لسؤال كيف وأنه باعتراف العالم قبل المؤمن أن الإنسان لم يؤتَ من العلم إلا قليلًا.

والعلم الذي يتشدَق الكافر به لا يستطيع أن يمنع عن جسده فيروس الأنفلونزا الضعيفة ولا يستطيع أن يمنع عنه الموت.

والعلم ما هو إلا محاولة لشرح نظام مسبق موضوع بناءً على قوانين سابقة ولولا ثبات تلك القوانين Consistency ، لما وصل إليها عن طريق المشاهدة والملاحظة أو حتى بالصدفة.

لعمري إن هذا هو عين الظلم؛ أن نؤمن بالقوانين العلمية ونجحد بواضع تلك القوانين. فحقًا، إن الشرك لظلمٌ عظيم.

12- لماذا لا نقبل أن يكون هذا الكون أزليًا؟ ما الذي يمنع ذلك خاصة وأنتم يا أهل الإيمان تقبلون بالشيء نفسه لإلهكم؟!

توجد ثلاث إجابات لهذا السؤال: اثنان يستندان للعلم الحديث والثالث يستند إلى المنطق العقلي:

الجواب 1: تمدد الكون: يعترف العلم الحديث الآن بحقيقة علمية وهي تمدد الكون (نرجو مراجعتها في فصل سابق)، لا يوجد ما يستند إليه علميًا بأن ظاهرة التمدد هذه حديثة (أقصد بعد نشأة الكون بزمن)، بل إن العلم الحديث يرى أنها ناتجة عن الانفجار العظيم الذي هو نظريًا بداية الكون. وبالتالي لو كان الكون أزليًا كما يدَّعون، ولو كان الكون يتمدد منذ الأزل (لا يوجد سبب علمي يدعونا أن نعتقد أنه بدأ التمدد في لحظة معينة)، لكانت المجرات الآن على بعد لا نهائي من بعضها البعض وهو ليس الوضع الحالي للكون، وبالحسابات المبنية على اتساع الكون الحالي وسرعة تمدده ، يرى العلم الحديث أن عمر الكون حوالي 41 بليون سنة مضت. (أي ليس أزليًا).

الجواب 2: نرجو الرجوع إلى ما أسلفناه عن المواد الـ Radioactive في الكون ولو كان الكون أزليًا لم تكن بعض هذه المواد ما زالت موجودة إلى يومنا هذا، لأن هذه المواد تتحلل في مدة زمنية محددة (كلٍّ حسب مادته) فيما يعرف بالـ Half Life. وبالتالي فإن وجود هذه المواد في زمننا هذا، هو دليلٌ آخر على عدم أزلية الكون.

3: فكرة أزلية الكون تناقض مذهب الكون الأزلي، وتناقض القانون الثاني للديناميكا الحرارية الذي ينص باختصار على أن الطاقة المستخدمة في إيجاد العمل تنتقل من حالة الاستخدام إلى حالة عدم الاستخدام، وهو ما يعرف بالـ Entropy أي أن الكون كله يميل ناحية عدم الاستقرار

أو عدم الاستخدام والفناء. فلو كان الكون أزليًا، فلماذا لم يفن قبل هذه اللحظة؟!

السؤال البريء الذي يطرح نفسه في هذا المقام هو: لماذا يقبل أصحاب هذا التساؤل أن يكون الكون أزليا، ولا يقبلون بنفس المنطق أن يكون خالقه أزليًا؟!

13- على الرغم من اعترافنا بأن نسبة تكوُّن الـ Enzyme مثلًا هي نسبة ضئيلة للغاية فإنها قد تكون غير منعدمة تمامًا، ووجود نسبة ولو ضئيلة يعني إمكانية حدوثها.

فلو تخيلنا أن شخصًا مجنونًا حبسك في مكان وقال لك: إنه سيطلق سراحك فقط لو استخدمت آلة معينة واخترت عشر أوراق من الآسات، وإلا ستنفجر تلك الآلة ولن تعيش، ولدهشتك تستخدم الآلة لتجد أنه سحبت العشرة أوراق، فعلى الرغم من ضآلة الاحتمالية فإنها ممكنة ووجودك يشهد على ذلك.

من أوجد الآلة في العالم؟

الجواب: نحن نقر بأن وجود نسبة ضئيلة لوجود الشيء لا يعني استحالة وجوده. فهذا نعتبره أمرًا بدهيًا يجب ألا يختلف عليه اثنان. ولكن اعترافنا بذلك يعني ماذا؟

في الغالب يستخدم غير المؤمن هذه القضية ظنًا منه أنها تخدم ما يؤمن به (وهو عدم وجود خالق) لكنه ضمنيًا يعترف بادئ ذي بدء بضآلة احتمالية وجود هذا الكون دون خالق. ويبنى على ذلك أننا لو أخذنا بالرأي نجد أن جزءًا كبيرًا من قضية الإيمان بالله ، هو اختيار مبني على ما يراه المرء من احتمالية أكبر لوجوده أو عدم وجوده.

فلو اعتبرنا أن شخصًا ما يجب عليه أن يتخذ قرارًا مصيريًّا بناءً على هذه النسبة، فأي قرار يجب عليه أن يختار (باعتبار أنه شخص مسئول وشخص ذكي)؟

نقول إنه ليس هناك مبرر أن يختار مثل ذلك الشخص الاختيار ذا النسبة الأقل خاصة لو كانت نسبة لا تذكر.

هذه واحدة، أما الثانية فنقول إن هناك فرقًا بين وجود نسبة ضئيلة ووجود نسبة منعدمة. ففي المثال الذي ضربناه في هذه القضية سلمنا أن النسبة ضئيلة، وذلك بسبب جاهزية المثال نفسه لأن نستعين به.

ولكن في الواقع يجب أن نسأل أسئلة معينة حتى يكون المثال مكتملًا، مثل: من الذي أوجد الآلة؟ ومن الذي أوجد العالم الذي حدد للمسجون طريقة النجاة التي اشتملت على نسبة ولو ضئيلة للنجاة؟

فغالبًا أنصار ذلك الرأي يرون أنه يمكن استخدامه في أنه بتسليمهم أن ظهور مثل هذا الكون للوجود بجماله ونسقه وإبداعه، هو ظهور نابعٌ من نسبة ضئيلة. ونحن نرى أنها نسبة منعدمة لا ضئيلة؛ لأن عناصر التجربة (الآلة) لم تكن موجودة من الأصل.

فقولهم إنه لو وزعنا هذه النسبة الضئيلة على بلايين النجوم، فلا يستبعد أن تظهر الحياة في واحدة (أو أكثر منها) - يقصدون على كوكبنا في مجموعتنا الشمسية.

ونحن نرى أن هذا القول باطل ونسألهم كما سألنا في المثال السابق: من الذي أوجد بلايين النجوم؟ ومن الذي أوجد عناصر التجربة؟

حتى لو وافقناهم جدلًا، لكان الاختيار المسئول الذكي هو الإيمان بوجود خالق قادر لهذا الكون، لا أن يكون وجود هذا الكون بشكل

مفاجئ دون سبب وبشكل عشوائي وبسبب صدفة. مع أنه حتى العشوائية والصدفة يحتاجان لعناصر تساعد على ظهورهما!

والكافر هنا ما هو إلا مؤمن بإله مفاجئ عشوائي هو الصدفة. ونحن نؤمن بإله حكيم خبير نرى أن الإيمان به هو الاختيار الذكي والمسئول.

14- لا يوجد طفل مسلم أو طفل مسيحي أو طفل يهودي. كل الأطفال لا تعي قضية الإيمان وبالتالي يولد الطفل بلا إيمان ويجب أن نتركه كذلك إلى أن يكبر ويستطيع الاختيار.

الجواب: نحن نرى أن جزءًا من الإيمان والكفر هو اختيار. ويرى بعض الفلاسفة والمفكرين أن الكفر هو دين أيضًا (اقرأ إن شئت Chris Hedges – «When Atheism Becomes Religion).

ونستطيع أن نرد بأن الطفل كذلك لا يعي قضية الكفر مثلما لا يعي قضية الإيمان. ومن حق الآباء أن يعلموا أبناءهم الإيمان كما يعلمونهم ما يرون أنه الخير والصواب لهم. لا ضير أن يعلموهم الصلاة كما يعلمونهم الصدق، وأن يعلموهم اجتناب الخمر كما يعلمونهم اجتناب الكذب، وإلا لاعتبرنا أن اختيار الأهل لأبنائهم مدرستهم التي يدخلونها والبلد الذي يعيشون فيه والنادى الذي يلتحقون به من باب الحجر على حرياتهم، وهذا لا يعقل.

نعم إننا نرى أن هذه النقطة المثارة لا علاقة لها بقضية الإيمان والكفر من الأساس.

15- كل الأدلة التي تستخدم في إثبات وجود الله قد تثبت فعلًا، وكذلك وجود قوة أو قوى وراء الكون والطبيعة، ولكن من الذي أدرانا أن إلهكم هذا هو الإله الذي تتحدث عنه الأديان السماوية وأنه واحد وليس إلهين (للخير والشر مثلًا) أو آلهة متعددة كآلهة الإغريق؟

الجواب: مع أن هذا السؤال يخرج عن صلب نقاشنا في هذا البحث؛ لأننا نتناول هنا السؤال عن وجود (أو عدم وجود) إله وراء الكون ولسنا بصدد تناول ذاته أو صفاته (وقد يكون ذلك في بحث آخر إن شاء الله).

ولكن بالرغم من ذلك، دَعُونا نرد باقتضاب على هذه النقطة كما تناولناها من قبل على النحو التالي الذي أثق بأنه سيفهمه كل من يفكر بمنطقية:

التعدد يقتضي المغايرة، والمغايرة تقتضي المفاضلة، والمفاضلة تقتضي العلو، والعلو يقتضي الواحدية، واللبيب بالإشارة يفهمُ!.

16- الإيمان هو كما ينسب إلى فرويد Freud مجرد wishful thinking أي شيءٌ يتمناه الإنسان ليعزي نفسه عن الآلام والأحزان التي قد تلم به في هذه الحياة. فمنَّى نفسه بجنة الخلود وبلقاء الأحبة في الآخرة.

الجواب: نقول إن هذا الادعاء يحتاج إلى دليل تمامًا مثل الادعاء بأن الكفر ما هو إلا هروب من المسئولية ومن الإحساس بالذنب وفرصة لاجتناب ما يحلو للكافر من آثام ومعاصٍ أو التحرر من أية قيود وتكاليف.

ونريد أن نضيف أنه في بعض الأحيان تكون الرغبة في الشيء دليلًا على وجود الشيء نفسه، تمامًا مثلما أن العطش هو دليل على وجود الماء. Atheism explained, p. 73.

17- سلمنا أنه لو هناك قوة وراء الكون فهي قوة واحدة لا متعددة ، ولكن ما الذي يمنع أن تكون هذه القوة عمياء لا إلهًا يفكر ويسمع ويعلم؟

الجواب: الناظر والمتأمل بصدق في الكون يستطيع أن يصل إلى إجابة هذا السؤال بنفسه.

فأنَّى لقوة عمياء صماء أن تبدع مثل هذا الكون الذي تنطق عناصره بالحكمة كل لحظة؟ ثم كيف لقوة عمياء صماء أن تضمن ثبات وجود هذا الكون وعدم فنائه لبلايين السنين؟ من أين تستمد تلك القوة طاقتها إن كانت صماء عمياء؟

أنَّى لها أن تستمد وجودها في المقام الأول؟؟ لقد قلنا إن الحل الوحيد لتفسير وجود مثل هذا الكون هو وجود قوة عاقلة **خارجة عن قوانين ذلك الكون**. فكيف نصدق بوجود قوة غير عاقلة ولا تلتزم بقوانين الكون؟

الحل الوحيد الذي يرضاه العقل هو وجود قوة عاقلة خارجة عن قوانين الكون ومهيمنة عليه في الوقت ذاته.

ناهيك كما أسلفنا عن الجمال والدقة والتصميمات المبدعة التي تنم عن وجود عقل حكيم وراءها.

ويعجبني في هذا المقام المثال الآتي:

هب أن بعض رواد الفضاء قد وجدوا على كوكب المريخ هاتفًا خلويًّا Mobile Phone، هل يستطيع عاقلٌ أن يدعي أن هذه الآلة أوجدها (أو تركها) علي المريخ قوة غير عاقلة؟!

18- لو كان إلهكم هذا حكيماً رحيماً كما تقولون فلماذا لا يهتدي إليه بعض الباحثين بصدق عنه؟

الجواب: أولًا: من الذي يستطيع أن يحدد درجة الصدق والإخلاص فيه؟ الكافر يقول عن نفسه إنه بحث بصدق وإخلاص عن الله ولكنه لم يجده. فكيف يكون هو الحكم على نفسه؟

هذه واحدة، أما الثانية فهي أننا نرى - كما قلنا من قبل - أن الإيمان جزء منه هداية وجزءٌ عن اختيار[1].

فقد يصل الكافر إلى ما يصل إليه المؤمن من درجة اليقين بوجود قوة عاقلة وراء الكون، ولكن قد يفتقر إلى الشجاعة الكافية التي تؤهله أن يتخذ الاختيار أو إلى التواضع الكافي الذي يثنيه عن رأيه.

وخلاصة القول أننا نرى أنه من يتحلى بالإخلاص في الصدق دون تكبر ودون خوف فسيصل إلى ما يصل إليه المؤمنون، الذين كان بعضهم في يوم من الأيام غير مؤمنين، وما أكثرهم!

19- تقولون إن الله عادل ورحيم، كيف يسمح أن يعذب المخطئين - مهما كان إجرامهم - بعذاب أليم دائم كما تدَّعون؟

هذه النقطة نستطيع تناولها بالإجابات الآتية:

أولًا، هذه الحُجة مرتبطة بصفة العدل والرحمة في الإله وليس في صفة وجوده، وبالتالي حتى لو كانت هذه الحجة صحيحة - ونحن لا نعتبرها كذلك - فهي لا تنفي بأية حال من الأحوال صفة وجود الله.

ثانيًا، نريد أن نسأل: هل الاعتراض هنا هو اعتراضٌ على ديمومة العذاب؟ أم على مقدار الألم في ذلك العذاب؟ أم على فكرة العذاب من الأساس؟

ولنبدأ بفكرة العذاب وهل تتماشى أصلًا مع عدل الله ورحمته أم لا؟

ولنحاول أولًا أن نتأكد أننا نقف على أرضية مشتركة بخصوص تعريف العدل والرحمة. نريد أن نتفق أن العدل هو بشكل مبسط: إعطاء كل ذي حق حقه، ونريد أن نتفق أيضًا أن العدل جزء من الرحمة أو بشكل آخر

(1) (والاختيار نفسه يعتمد على الهداية ولكن هذه مناقشة نستطيع أن نخوض فيها في مقام آخر).

الرحمة دون عدل لا تعد رحمة؛ لأن عدم وجود العدل يعني بداهةً وجود الظلم. فلو أعلن الله أنه سيرحم الجميع، لأدى ذلك إلى ظلم البعض بالضرورة.

ولنضرب مثالًا بسيطًا: لو ضرب أحد التلاميذ زميله بالقلم ثم عفا المدرس عن الجميع (لأنه طيب) لعنى ذلك وقوع الظلم (من المدرس بشكل غير مباشر) على التلميذ المضروب. فما بالكم بشياطين الإنس الذين يجلدون ويعذبون الناس ويشردون الأسر ويذبحون النساء وييتمون الأطفال؟ هل من العدل أن تعمهم رحمةٌ عامة دون أية ضوابط؟ ألا يكون ذلك ظلمًا للأطفال والنساء والشيوخ؟ بلى يكون ذلك الظلم بعينه!

ولكن لأنه العدل والرحيم في آن واحد، فهناك الكثيرون من المؤمنين الذين يعتقدون بأن الله عز وجل رحيم في عذابه في الآخرة (حتى استخدام كلمة «عذاب» اشتقاقًا من «ع ذ ب» أي العذوبة، كالماء العذب قد توحي بمزيج لا نعرفه من الرحمة في العذاب وكأنه عذاب معجون بالرحمة).

نظرة أخرى ترى أن عذاب الآخرة ما هو إلا تطهير للمذنبين ليصبحوا جديرين بالتنعم في الآخرة، تمامًا مثل صقل بعض المواد بالنار.

لكن ماذا عن مقدار الألم؟ نرى أن هذه نقطة نسبية والمقدار هو شيء غير موضوعي ويصعب قياسه Subjective ونؤمن بأن مقدار العذاب سيكون مكافئًا لمقدار الألم الذي يسببه الذنب للناس الآخرين.

أما عن ديمومة العذاب فهذه أيضًا نقطة يرى البعض أن العذاب ليس أبديًا (لأسباب يطول شرحها وليس هذا مقامها)، ولا بد أن نأخذ في

الاعتبار ديمومة الألم الذي قد يسببه الذنب ليس فقط لشخص واحد ولكن لأسرته وذريته إلى يوم الدين. (فمثلًا من أخذ حق أخيه في الإرث يؤثر ذلك ويؤذي أبناءه وأحفاده لأجيال وأجيال وهكذا).

20- لو كان الله ثابتًا لا يتغير كما تقولون، فكيف تفسرون أنه آثر زمنًا معينًا ليظهر فيه الكون؟ ولماذا لم يظهره قبل ذلك؟ فهل حدث له طارئ في الإرادة جعله يتغير؟ وبالتالي فإن وجود ذلك الإله ذي الإرادة الثابتة- كما تعَرفونه- غير منطقي!

يوجد ردان على هذه النقطة: أولهما أن افتراض أن الله داخل الزمن هو افتراض نراه خاطئًا؛ لأننا نرى (كما أسلفنا من قبل) أن الحل الوحيد لتفسير وجود الكون هو وجود قوة عاقلة (إلهية) ليس كمثلها شيء. لأنه لو كان مثلها شيء ، فمعنى ذلك سقوطنا في مشكلة أزلية الكون، وهو ما نراه إشكالية منطقية لا تحل إلا بذلك. وأن هذه القوة ليس كمثلها شيء، وهذا يعني عدم تأثرها أو تداخلها مع الزمن. وبالتالي إرادة الله لخلق الكون سابقة للزمن أيضًا، وبالتالي فإن تُحل إشكالية عدم ثبات الله المزعومة.

الرد الآخر هو أن إرادة الله الأزلية آثرت أن يظهر الكون في زمن معين دون زمن لحكمة لا يعلمها إلا هو ﷻ وبالتالي تحل الإشكالية أيضًا لأن الإشكالية المزعومة هي في حقيقتها تساؤل عن كيفية تغير إرادة الله الثابت بظهور فجائي لإرادته أن يظهر الكون. وليست الإشكالية المزعومة هي التساؤل عن كيفية وجود إرادة من الأصل؛ وإلا لعنى ذلك عبثية ظهور أي شيء في زمن دون زمن آخر.

21- يعترف علم الأحياء الحديث بالتطور وآليته والانتخاب الطبيعي وهي نظرية وآلية تنفي وجود الله.

نريد أن نقسم هذه العبارة قبل أن نتناولها، أولًا: جزئية «اعتراف علم الأحياء الحديث بنظرية التطور» هي عبارة تستحق أن نقف عندها. ويبدو لي أن الاعتراف بالشيء هنا يعني وصوله إلى درجة الحقيقة اليقينية، وهذا أبعد ما يكون عن الصواب.

على الرغم من اعترافنا أن نظرية التطور هي النظرية القادرة – في الوقت الحالي- أن تفسر بشكل نظري وعمليٍّ بشكل جزئي تطور الأحياء (وليس نشأتها)، فإن النظرية نفسها مرت بفترات متفاوتة من التطور!

فوضعها الحالي الذي يعترف ببعضه علمُ الأحياء الحديث ليس هو هو ما اقترحه شارلز داروين منذ مائة وخمسين عامًا وليس هو هو ما سيقر ببعضه علم الأحياء الحديث بعد مائة وخمسين شهرًا. (أي ما يزيد قليلًا على عقد من الزمان).

ونريد أن نضرب مثالًا بسيطًا على ذلك من المجلة العلمية المحترمة Discovery عدد يناير – فبراير 2010 ص 51-52 القائلة بأن داروين نفسه كان سيدهش لو علم بما أقره العلم الحديث أن بعض الـ Mutations التي تغير الجينات من جيل لآخر لا تفعل شيئًا على الإطلاق لهذه الجينات من ناحية كفاءتها للتعايش أو البقاء. بل على الأكثر نظرًا لترسبها بمعدلات مرتفعة فإن هذه الـ Mutations الصامتة «Silent Mutations» ، إن وُجدت بصفة مشتركة بين نوعين من الـ Species لعنى ذلك قرب اتصالهما ببعض. وبناءً على ذلك توصل العالم الأحيائي كازي دان Casey Dunn في جامعة براون – بمقارنة 71 حيوانًا مختلفًا وجد أن الجد المشترك لجميع الحيوانات على كوكبنا

ليـس بسيطًا كالـ sponge كما كان يُظـن سابقًا، ولكنـه قد يكـون أكثر تعقيـدًا مثل الـ Comb Jelly Fish [1] .

أما الجزء الثاني من العبارة الخاص بأن نظرية التطور وآلية الانتخاب الطبيعي ينفيان وجود الله، فهذه في الواقع عبارة تثير دهشتي جدًّا، فإما أن قائلها لا يدري شيئًا عن النظرية وإما أنه لا يعلم شيئًا عن فكرة التوحيد وإما أنه جاهل بهما معًا! وفي الواقع هناك احتمالٌ آخر وهو أن يكون مفتريًا يريد أن يحارب الدين بالنظرية أو يحارب النظرية بالدين!

وفي الحقيقة أن هذه العبارة تحتوي على ادعاءٍ صريح يجب على قائله أن يخرج علينا بالدليل والبرهان. وبما أننا في هذا البحثُ بصدد الدفاع عن فكرة الدين وبصفة خاصة فكرة الإله، ولسنا بصدد الدفاع عن النظرية، فعلى المدَّعي أن يخرج علينا بالدليل على أن صحة النظرية تنفي صحة وجود الله.

وهذا الادعاء من السذاجة بمكان مثل الذي ينفي وجود الله لأنه درس في الابتدائي أن دوران الأرض حول الشمس يجعل الشمس تشرق على الأرض كل يوم، وبالتالي لا وجود (في رأيه) لإله قادر حكيم خلق الأرض أو الشمس وقيوم على حركتها كما يريد!

(1) (مثال آخر هو اكتشـاف الأخ أو على الأحرى الجد) «أردي» Ardi وهذا اختصار لحفرية ترجع إلي 4.4 مليون عام تسمى Ardipithecus ramidus وهذا الاكتشاف ينسف الاعتقاد السائد بأن جدودنا كانوا يسكنون البرية وكانوا على شكل قرود يمشون على أربع. فهذا الإكتشاف الحديث يقترح أن يكون جدودنا عاشوا في الـ Pilocene في أماكن خشبية على رجلين! وهذا الاكتشاف الذي تم في إثيوبيا عن طريق Middle Awash Research Group والذي عثرِ على أكثر من 6000 مخلوق يقترح أنه قبل أن يكون جد الإنسان رأسه كبيرًا (نسبيًا مقارنة مع القرد مثلا)، كان يمشي معتدلاً على رجلين وهو ما يخالف الاعتقاد السائد لأنصار نظرية التطور الأصلية Discovery Jun-Feb 2010 p. 22.

والجدير بالذكر في هذا المقام أن نقول إن أنصار نظرية التطور - كما يقول الكاتب المعاصر جوسوامي Goswami على لسان الأديب الحائز على نوبل: بول ديراك Paul Dirak، إن الحل للإشكاليات الكبرى يتطلب ترك الإيمان في مسلمات كبرى!!. ويستأنف جوسوامي قائلًا إن أنصار نظرية التطور يفعلون اليوم كما كان يفعل أنصار نظرية أن الأرض هي مركز الكون في عنادهم بأن يرسموا عددًا «لا نهائيًا من الحلقات والحلقات ليبرروا دوران الأفلاك السماوية حول الأرض ليتمكنوا من التمسك بنظريتهم القديمة» (التي أثبت خطؤها بالطبع).

فأنصار الداروينية يفعلون اليوم الشيء نفسه تجاه أي اكتشاف يغير أو يناقض مبادئ النظرية ومبادئ آليتها بأن يقوموا بتعديلات «لانهائية» للنظرية الأم لتواكب تلك الاكتشافات. ويذهب جوسوامي للموضوع بشكله العام بعد أن تناوله بشكله الخاص ليرسخ أن علماء الأحياء لابد لهم من التسليم بأن علم الأحياء علم غير مكتمل ويحتاج لمبادئ جديدة غير مادية لتنظمه. ثم يعود مرة أخرى للخاص قائلًا بأنه طبقًا لنظرية التطور، كان ينبغي أن تتحقق التوقعات النظرية لداروين بوجود الآلاف من الحفريات الوسيطة لتملأ أغلب فجوات الحفريات الحالية.

22- نحن نرى أن ادعاءكم بأن فكرة وجود الإله هي فكرة ضرورية لتحقيق منظومة القيم في الحياة ، هو ادعاءٌ باطل، والدليل على ذلك ما نراه من ملحدين ذوي قيم عظيمة في الحياة ومؤمنين غير ذوي قيم عظيمة في الحياة.

مع أننـا لن نتوقف عند ادعـاء أن هناك غير مؤمنين يتحلون «بقيم عظيمة»، فنحن نـرى أنه لا مانع أن يتحلى بعض غير المؤمنين ببعض

الأخلاق الحميدة، وقد يعود ذلك لطريقة تربيتهم ونشأتهم وتفاعلهم مع البيئة التي ينشئون فيها.

ولكننا نريد أن نفرق بين شيئين: هناك فرق بأن نقول: إنه لو كان الله غير موجود ، لانعدمت القيم في الحياة، وبين أن نقول: إنه لو كان الله غير موجود، لكانت منظومة القيم منظومة نسبية وبالتالي عبثية.

فنحن لا نقول بأن وجود بعض القيم في الحياة أو عدم وجودها يعني وجود الله أو عدم وجوده، ولكننا نقول: إن وجود الله -سبحانه وتعالى- هو القادر على توحيد منظومة القيم إلى حد كبير. ولا يقولَنَّ قائلٌ: «إن القيم الأساسية معروفة، ومتفق عليها بين بني البشر» وإلا فليفسِّرْ لنا لماذا يختلف الناس على تعريف واحدٍ بين الإرهابي والمقاوم، وبين قاتل ومقتص، وبين زنا وعلاقة زواج، وبين إرهابي ومدافع عن الديمقراطية، وليقل لنا ما الصفة المشتركة في منظومة القيم العالمية هذه؟ وهل هي الرحمة أم الحب؟ هل هي العدل أم الحرية؟

ومع أننا نرى أن هذه النقطة غير ذات صفة في إثبات أو نفي وجود الله ﷻ ، فإننا نرى أن عدم وجود الله يؤدي حتما إلى عبثية قيمية وبالتالي إلى الفساد في الأرض.

في بعض الأحيان يحوِّر البعض الادعاء السابق قليلًا قائلين بأن الملتزم بالقيم لا خوفًا أو حتى حبًّا في الإله ، أفضل (أو على درجة من القيم أعلى) من الملتزم بالقيم خوفًا من الله ﷻ أو حتى حبًّا فيه؛ لأن ذلك (في نظرهم) هو الدليل على كمال الإيمان – ليس بذلك الإله ولكن بالقيم في حد ذاتها!

ونحن نرى أن هناك أصنافًا مختلفة من البشر، منهم من يؤمن بالقيم في حد ذاتها، ومنهم من يعمل بها خوفًا من الله. ولكن بادئ ذي بدء، الإيمان

الكامل بالقيم ليس قيمة فُضلى مطلقةً في حد ذاتها، لأنه كما أسلفنا قد تكون تلك القيم ذات قيمة نسبية لو لم تصدر عن «قيوم» السموات والأرض؛ ولذلك لا يكون التمسك والإيمان بها بالضرورة قيمة أصلًا، بل قد تعد من الرذائل من وجهة نظر الآخرين. هذه واحدة.

أما الثانية، فيجب ألا ننسى أن هناك صنفًا آخر من البشر (وهو الأعم للأسف) الذي لا يعمل بالقيم إلا لو آمن بالله. وهناك صنف ثالث لا يعمل بالقيم حتى لو آمن بالله ولكن يُتوقع أن يكون خرقه لها أقل في حالة إيمانه.

لذا، يجب أن ننظر إلى الصورة الكبيرة وألا نبني استنتاجاتنا على جزئية واحدة من الحقيقة دون الالتفات إلى الأجزاء الأخرى.

23- تستدلون دائمًا على وجود الله ﷻ استنادًا إلى فكرة التصميم الذكي الجيد. فماذا لو لم تكن بعض التصميمات جيدة أصلًا؟

نريد أن نبدأ ردنا على هذه الشبهة بأن نقول: إن الإنسان قد خُلق في أحسن تقويم في نطاق كونه بشرًا. ولا يدَّعي مؤمن عاقل أن الإنسان مخلوق كامل؛ لأنه لو أصبح كذلك لتحول إلى إله أو إلى سوبر مان بدلًا من كونه بشرًا.

والسؤال الأصح هو :هل خَلْقُ الإنسان بشكله الحالي يساعد على التعايش في الحياة ومواصلة العيش فيها أم لا؟

ثم دعونا نتناول بعض الأمثلة التي يضربها بعض المروجين لهذه القضية:

(1) أن القفص الصدري في الإنسان لا يحمي جميع الأجهزة الداخلية.

قبل أن نتناول هذه النقطة بالذات لا بد أن يدور لدينا تساؤلٌ وأيضًا للمؤمنين بنظرية التطور عن طريق الانتخاب الطبيعي: ماذا كان شكل

القفص الصدري منذ ملايين السنين؟ ومنذ متى كان شكله كما هو عليه الآن؟ ولماذا لم يتطور إلى الشكل الذي يروج له المروجون؟وهل يتطور نحو هذا الشكل المأمول أم لا؟ ولكن السؤال الحقيقي والمبدئي: هل فعلًا الأشكال الحالية منقوصة أم لا؟ وإن كانت الإجابة بالإيجاب فما شكل القصور المزعوم؟

ولنبدأ بالقفص الصدري للإنسان: يعرف القفص بالـ Thoracic Cage وهو ذو شكل عظمي يحيط بالصدر ويساعد على ثبات الكتفين.

يعتبر القفص الصدري جزءًا من الجهاز التنفسي، ولذلك فهو يحيط ويغلق الـ Thoracic Cavity التي تحتوي على الرئتين.

وبفضل وجود الفراغ في أسفل القفص الصدري، يستطيع الـ Diaphragm العضلي التحرك إلى أعلى وإلى أسفلي ليمكِّن الرئتين من التنفس بشكل طبيعي.

فقصر علة وجود القفص الصدري على أنه لحماية كل أجهزة الجسم، هي علة منقوصة؛ وبذلك لا يعتد بكونه غير تصميم ذكي، بل بالعكس لأنه يخدم نظامه الرئيسي وهو التنفس - دون اعتراض أية نظم أخرى.

(2) **وهـــن العظـــام:** (Muscle Atrophy) يتساءل أصحاب ذلك الرأى عن كيفية ظهور وهن العظام لو كان مصمماً بشكل ذكى:

ونقول: إن الغالبية العظمى لوهن العظام تكون ناتجةً عن سوء استخدام يظهر بسبب أعمال معينة أو بسبب التقدم في السن. وكما أسلفنا من قبل إنــه لم يقصـد أن يكون الإنســان علي شكل إله أو حتى (Super Man) لا يمرض أبدًا.

أما وهن العظام الناتج عن مرض فيكون أحد نوعين: أحدهما الناتج عن تدمير بعض الأعصاب التي تغذي العضلات أو مرض العضلات نفسها.

(جـ) لنسمع أولًا ما يقوله شارلز داروين شخصيًّا عن العين في كتابه: «The Origin of Species»: الافتراض أن العين قد تكون قد نشأت عن طريق الانتخاب الطبيعي، أعترف بحرية «يبدو افتراضًا على أعلى درجة من العبثية» (To suppose that the eye [....] could have been formed by natural selection, seems, I freely confess, absurd in the highest possible degree».

وكون هذا اعترافًا منه باستحالة تشكل العين «كمثال» عن طريق عشوائية الانتخاب الطبيعي، أو أنه مجرد اعتراف منه أن هذا التشكيل «يبدو» مستحيلًا ولكنه ليس كذلك، إلا أن هذا في حد ذاته يعتبر اعترافًا منه بصعوبة ذلك على أهون الفروض.

والمشكلة تكمن في صعوبة إيجاد بقايا حفريات أو حجريات قديمة للعين نظرًا لطبيعة أنسجة العين الهشة.

وعلى الرغم من محاولات أنصار نظرية التطور الذين يلهج لسان حالهم بأنه لا إله إلا التطور وأن الانتخاب الطبيعي هو رسول التطور، وعلى الرغم من محاولتهم إيجاد حلول مفترضة لإمكانية نشوء العين عن طريق الانتخاب الطبيعي، فإنهم (مثل بيه Behe) مثلًا يعودون فيقرون صعوبة نشوء جهاز أولي لإحساسه بالضوء على المستوى المولوكيولي وأن البيوكيميكال Biochemical Reactions اللازمة لظهور تلك الخلايا البسيطة للاستشعار الضوئي تحتاج لتفسيرات حتى يومنا هذا!.

أما عن قولهم إن الضوء يجب أن يمر على الشعيرات الدموية قبل أن يصل إلى قاع العين وقولهم إن الصورة تكون مقلوبة في العين، فلا يلتفت إليه؛ لأن العبرة بأداء ذلك الجهاز، ولو كان عدم قلب الصورة إلى قاع العين أو مرور الضوء عن طريق الشعيرات الدموية أجدى وأنفع، فلماذا لم يحدث ذلك عن طريق الانتخاب الطبيعي عبر ملايين السنين؟ وبماذا تفسر نظرية التطور انعكاس الصورة بشكل مقلوب؟ وكيف يكون ذلك أمرًا من أمور تكيف العين عبر ملايين السنين وتطورها وبقائها؟

24- والآن لننتقل إلى قضية أخرى قد يثيرها المعترضون على وجود الله وهو ما يعرف بالـ Falsiability وهي الإمكانية المنطقية لإظهار أن قضية معينة خطأ عن طريق التجربة العملية أو الملاحظة (قابلة للنفي).

والـ Falsiability لا تعني أن القضية خطأ، ولكنها على الأحرى تعني أنها لو كانت خطأ لأمكن إظهار ذلك عن طريق التجربة أو الملاحظة.

فعلى سبيل المثال: «الإنسان لا يعيش إلى الأبد» هي قضية ليست Falsifiable (على الرغم من أن كل من نعرفه في الماضي لم يعش إلى الآن) ولكننا لا نستطيع عن طريقة التجربة العملية أن نعرف إن كانت تلك القضية ستستمر إلى الأبد أم لا؟.

في حين أن جملة» الإنسان يعيش إلى الأبد» هي جملة Falsifiable لأننا نستطيع عن طريق الملاحظة أن نفند وننفي هذه الجملة بموت إنسان واحد فقط.

و لذلك قال ألبرت أينشتين:

«No amount of experimentation can ever prove me right; a single experiment can prove me wrong» (Albert Einstein).

أي أنه لا يمكن لأي عدد من التجارب (النهائية) أن يثبت أنني على الصواب ولكن تجربة واحدة تستطيع أن تثبت أنني مخطئ!.

والـذي روج لـهـذه القضيـة -(أعني الـ Falsiability) هو كارل بوبر Karl Popper الذي أصَّل بشكل فلسفي تحليلي للمنهج العلمي وأنه لا يكون «علميًّا» إلا لو كان Falsifiable «قابلًا للنفي».

ولكن نريد أن نعيد ونزيد في هذه النقطة التي نراها هامة. نريد أن نعيد أن نظرية الـ Falsifiable لا تعني أنها خطأ بالضرورة، ونريد أن نزيد أن قضية الـ Unfalsifiable لا تعني أنها قضية عبثية؛ لأن العديد من النظريات الـ Falsifiable قد تنشأ نتيجة لها.

خذ مثلًا فكرة اليونان القديمة بوجود ما يسمى بالنواة في المادة. هذه فكرة كانت Unfalsifiable في وقتها ولكنها الآن Falsifiable ونتجت عنها نظريات حديثة Falsifiable في الفيزياء أيضًا.

ولكن ماذا عن قضية وجود الله ﷻ؟ هذا ما يسأله المعارضون للقضية. وأنا أريد أن أمارس حقي في السؤال أيضًا: وماذا عن نظرية: «عدم وجود الله»؟! وأزيد: وماذا عن نظرية مثل نظرية التطور؟

ونبدأ بنظرية التطور: هل هي Falsifiable أم لا؟ ويجب أن ننوه بأنه في استخدام منهج الـ Falsifiability يجب أن يكون المرء حريصًا ودقيقًا في آن واحد ويجب أن يكون لديه تفريق دقيق ومحدد للقضية التي سيتناولها. فعندما نتكلم عن نظرية التطور يجب أن نحدد ما الذي نتكلم عنه فيها؟ هل آلية الانتخاب الطبيعي، أم قضية الأصول المشتركة..؟ أم ماذا بالضبط؟ وهكذا...

نستطيع أن نقول إنه من المقبول منطقيًّا أن فرضية الأصول المشتركة ليست Falsifiable بشكل مباشر لعدم تمكننا من إثباتها عن طريق التجربة العملية أو الملاحظة.

وعندما نقول إن فرضية الأصول المشتركة ليست Falsifiable (ليست قابلة للنفي) فإننا نعني أنها ليست قابلة للنفي المباشر مثل المثال الذي ضربناه آنفًا وهو أن «الإنسان (كل إنسان) يعيش إلى الأبد» وهي الجملة التي نراها قابلة للنفي المباشر (بموت إنسان واحد فقط). ولذلك حاول بعض أنصار نظرية التطور مثل ريتشارد داوكنز.و JBS - Haldin ، -هالدان بقولهم نفس الشيء تقريبًا وهو أن فرضية الأصول المشتركة قابلة للنفي؛ لأنه لو وجد وحيد قرن أو أرنب واحد في العهد البريكامبرياني Precambrian ، لنسف هذا نظرية التطور من أساسها.

ولكننا نرى أن قابلية هذا النفي غير مباشرة وغير قاطعة كقولنا: لو وُجد إنسان واحد يعيش للأبد (في المستقبل مثلًا) لنفى ذلك جملة أن الإنسان (أي إنسان) لا يعيش إلى الأبد، وكما بينا من قبل، فإن هذه الجملة: ليست قابلة للنفي؛ لأنها تعتمد على نفي مستقبلي قد يظهر أو لا يظهر وعدم ظهوره لا يعني عدم وجوده.

وعلى أية حال لو وافقنا أنصار نظرية التطور[1] بأنها على منهج كارل بوبر تعد نظرية علمية لأن فرضية الأصول المشتركة- في نظرهم- قابلة للنفي، فقياسًا على ذلك نستطيع أن نقول إن فكرة وجود الله هي فكرة قابلة للنفي Falsifiable كذلك بقولنا مثلًا «إنه لو أثبتنا عن طريق التجربة ظهور كون ككوننا دون خالق، لعنى ذلك عدم ضرورة وجود واجب الوجود. أو نقول مثلًا: لو وجدنا بعد موتنا أنه لا يوجد حساب أو عقاب ولا جنة ولا نار لعنى ذلك عدم صحة ادعاء أديان التوحيد!!

---

(1) نقول أيضًا إنه لو صح أن نظرية التطور قابلة للنفي، وبالتالي تعد نظرية علمية، فنريد ردودًا على بعض أسئلتنا التي سردناها في الفصل الخاص بنظرية التطور مثل: لماذا تعرض بعض الحيوانات نفسها للخطر في سبيل أبنائها؟ ولماذا تكون بعض الحيوانات ذات ألوان أخاذة تعرضها للخطر؟ وهكذا..

أما بالنسبة لآلية الانتخاب الطبيعي فكان كارل بوبر نفسه يرى صعوبة قابليتها للنفي[1].

بقي هنا سؤال قد يطرأ للبعض، وهذا السؤال في الواقع هو مدخلنا الثاني ردًا على سؤال: هل قضية وجود الله قابلة للنفي (و بالتالي علمية) أم أنها غير قابلة للنفي وبالتالي غير علمية (في نظر كارل بوبر)؟ هذا السؤال هو: ماذا عن المسلمات (axioms)؟ ماذا عن «علم» الرياضيات والمنطق؟هل هما قابلان للنفي أم لا؟ فلو كانا قابلين، لوقعنا في مشكلة تناقضية. ولو كانا غير قابلين للنفي فهما إذن ليسا بعلم؟ وهذا هو مربط الفرس في نظرنا بالنسبة لقضية وجود الله. ولذلك يرى البعض أن تلك القضية أصلًا مسلمة بسيطة لا تحتاج لإثبات، ويراها البعض الآخر غير قابلة للإثبات العلمي. وهذا كان حواري مع واحد من غير المؤمنين وهو أن هناك فرقًا بين العلم والمنطق. العلم يستطيع أن يثبت أو يفترض أن هناك بداية لهذا الكون ولكنه لا يستطيع أن يزيد على ذلك. ولكن بالمنطق نستطيع أن نقول إن خالق الكون هو واجب الوجود وهو ما نسميه الله.

وبالتالي يكون الإيمان بالله مكونًا من جزأين: جزء علمي وجزء منطقي مغلفين بأمور أخرى كثيرة نفسية وعاطفية وفطرية.

فالجزء العلمي قابل للنفي؛ لأنه لو أثبت العلم أزلية الكون مثلًا لسقطت فكرة (ضرورة وجود سبب أول) وجزء غير قابل للنفي قل عليه غير علمي (لو اعتبرت بالمثل أن المنطق والرياضيات ليسا من العلم في شيء وهذا الجزء هو الفطرة وهو المسلمة البديهية وهو الحق. وقد يكون

(1) الجدير بالذكر في هذا المقام أن نذكر أن كارل بوبر أيضًا كان يرى عدم ارتقاء النظرية الماركسية والـ Psychoanalysis لأن تكونا علميتين نظرًا لأنهما غير قابلتين للنفي في نظره.

ذلك هو المقصود بحق اليقين مقارنةً مع «علم اليقين» وكلاهما «يقين» ولكن أولهما عن طريق الحق وثانيهما عن طريق العلم[1].

ولذلك نرى مفكرًا مثل Charles Sanders Pierce شارلز بيرس يفرق بين الرياضيات والعلوم الأخرى ويعدها أكثر أصولية من غيرها كعلم. وهو هنا يوافق بعض الفلاسفة الإغريق والقدامى الذين كانوا يرون أن الرياضيات والمنطق هما أم العلوم اللذان لا يكتشفان ماهية الأشياء ولكن كيف يجب أن تبدو الأشياء ليس فقط في عالمنا، بل في عوالم أخرى أيضًا!

25- ننتقل الآن إلى نقطة أخرى وهي زعم البعض أنه من الممكن ظهور مثل هذا الكون (عن طريق ظهور البروتين مثلًا) عن طريق الصدفة.

ودليلهم المزعوم على ذلك هو التجربة التي أجراها ريتشارد هارديسون في الثمانينيات من القرن العشرين بكتابته لبرنامج على الكمبيوتر ردًا على فكرة إمكانية ظهور الكون المنظم عن طريق الصدفة.

الجواب: كان المؤمنون بالله دومًا يتحدون غير المؤمنين بالله قائلين إن الوقت المنصرم منذ نشأة الكون (فضلًا عن نشأة الأرض) غير كافٍ لأن تظهر خلايا بسيطة مثل البروتين مثلًا، وكانوا يضربون مثالًا على ذلك بأن قردًا لا يستطيع أن يكون جملةً بسيطة مثل: To Be or Not to Be (قالها شكسبير في رائعته: هاملت)، عن طريق الصدفة إلا عن طريق (26^{13}) ثانية (باعتبار أنه يستخدم آلة كاتبة ويضغط زرًا كل ثانية) وهو ما يعني ستة عشر ضعفًا مما انقضى منذ نشأة الحياة على الأرض!

---

(1) (وثالثهما عن طريق «العين» – التجربة عين اليقين ، وقد يكون ذلك منظورًا آخر للإسلام ثم الإيمان ثم الإحسان أو الشريعة والعقيدة والتصوف. والله أعلم).

فاستخدم الرافضون لفكرة الخلق مثالًا برنامج الكمبيوتر؛ ليبرهنوا على أن ذلك ليس بالمستحيل رياضيًّا، ولم يعرفوا أن محاولتهم هي في الحقيقة ضدهم وأنها تثبت وجود الله وليس العكس!.

فماذا فعل ريتشارد هارديسون، وماعلاقته بنظرية التطور؟ يقول أنصار النظرية إن فرضية الانتخاب الطبيعي لا تعني الصدفة المجردة (نرجو مراجعة ما أسلفناه عن العلاقة الوطيدة بين الصدفة والعشوائية التي تروج لها تلك الآلية) ولكنها - كما يزعمون - ليست كذلك ولكن آلية الانتخاب الطبيعي في نظرهم عكس ذلك. فهي تحتفظ بالعناصر «الجيدة والمساعدة على البقاء» وتبني عليها بعشوائية حتى تصل إلى ما نراه الآن من تصميمات بديعة!

وعن طريق تجربة ذلك البرنامج، وجد ريتشارد هارديسون - بمحاكاته لآليــة الانتخــاب الطبيعي - أن يحتفظ البرنامــج بالحروف «الجيـدة المساعدة لظهور جملة شكسبير المرجوة، ثم يبني عليها بعشوائية - وجد أن البرنامج أصبح قادرًا عن طريق تلك الآلية أن يصل إلى الجملة بعد 335.2 محاولة في أقل من تسعين ثانية.

فمثلًا عندما يظهر حرف الـ «T» يُحتفظ به ولكن عندما يظهر حرف الـ «Z» مثلًا لا يُحتفظ به وهكذا، ولم يقل لنا وحيد قرنه وزمانه ماذا يحدث لو احتفظ بحرف الـ «O» قبل الـ «T» مثلًا! وما هي الآلية التي ستعيد ترتيب الحروف مرة أخرى! ولكن على أية حال، دعونا نناقش تلك التجربة ونسقطها علي مسألة وجود الله.

أظن أن القارئ الكريم قد كوَّن فكرة عن أين تكمن المغالطة في هذه التجربة وإسقاطها على إمكانية ظهور الكون مصادفة.

أولًا: نقول إن ظهور الشيء لا يعني دوام استمراره فإن ظهرت الجملة، ما الذي يضمن أن تكون مستمرة؟

هذه واحدة، أما الثانية فهي البرنامج نفسه! ألا يدل البرنامج على وجود قوة عاقلة أو مبرمج له وهو الأخ ريتشارد هارديسون؟!! ألا تدل آلية الانتخاب على وجود قوة عاقلة خالقة هي الله ﷻ؟!

النقطة الثالثة هي أنه لم يقل لنا كيف تتوالد تلك الجمل لتخرج إلينا بقصة هاملت الممتعة بالعشوائية أيضًا؟!

النقطة الأخيرة هي فكرة الخطة المسبقة، فقد قام ريتشارد هارديسون بتصميم البرنامج بحيث يحتفظ بالمرونة المرجوة ليكون الجملة ولكن ألا يعني ذلك أن هارديسون كان على علم مسبق بالجملة التي يريد الحصول عليها؟! أيقبل المنطق السليم أن يحدث الشيء نفسه مع ظهور خلية بسيطة مثل البروتين ناهيك عن الحياة نفسها دون وجود خطة مسبقة لها وبالتالي مخطِّط؟!!

ولو لم تكن هناك خطة مسبقة كما يردد أنصار نظرية التطور دون فهم، فلماذا يُحتفظ بالحروف المرجوة (المرجوة للوصول إلى أين أصلًا؟) هذا هو السؤال الذي يجب أن يرد عليه المؤمنون: بغير الله!

26- «أنا غير مؤمن، أنا سعيد في حياتي، ولا أحتاج إلى الدين أو الإيمان».

نقول إن الإحساس بالسعادة قد يكون خادعًا، وهو في جميع الأحوال ليس بالمقياس الذي يجب أن نقيس عليه. فالطفل قد يشرب مشروبًا سامًّا ذا طعم حسن ويكون سعيدًا بذلك، والعبرة بالنتائج لا بالمقدمات فقط.

ثم إنني أشك كثيرًا فيمن يقول ذلك، لأنه كيف يسعد الإنسان وهو يؤمن بأنه لن يلتقي بعد الموت بأهله وبأحبائه؟ أي سعادة تلك التي

يحس بها وهو يلاعب طفله الصغير وهو يؤمن أنه بعد سنوات قليلة على الأكثر سيفارقه ولن يراه مرة أخرى أبدًا؟!

أي سعادة تلك التي تكون ممزوجة بالخوف من المجهول. وأعني الموت؟!، ألم يأن للطفل أن يكبر؟ ألم يأن للغافل أن يصحو؟ ألم يأن للكافر أن يؤمن؟؟!

27- قد يقول قائل: «إن المؤمن يؤمن هروبًا من ذلك الخوف (الذي عنيناه في النقطة السابقة) وطمعًا في سعادة أبدية. إن المؤمن يؤمن فقط ممنيًا نفسه بآخرة أبدية وممنيًا المظلوم بأنه سيأخذ حقه في دار الحساب.

نقول إننا بالمثل نستطيع أن نقول إن الكافر لا يؤمن حتى لا يشعر بالذنب وحتى يستطيع أن يستمتع بشهواته دون قيود، أقول: نستطيع أن نقول ذلك ولا نقوله في نفس الوقت؛ لأنه منطق ضعيف يحكم على الناس بما نظن لا بما يعتقدون هم.

وليس معنى وجود أشياء جيدة في الإيمان: مثل الإيمان بعدل الآخرة أو الإيمان بلقاء الأهل والعيش معهم بعد الموت - ليس معنى وجود مثل هذه الأشياء التي أجمع الكافرون أنفسهم على حسنها، ليس معنى ذلك عدم صحتها، ولكن على النقيض، وجود أشياء لا جدال فيها مثل الموت المجهول لهو دليل قاطع على قبح الكفر وقبح العبثية!

ما سبق يقودنا إلى النقطة التالية وهي:

28- هل الإيمان اختيار؟ أم هو اعتقاد؟ أم هو وراثة؟ ولو كان اختيارًا، فهل هناك حقًا ما يسمى بالـ Free Will أو الإرادة الحرة؟!

هذه النقطة ذات صلة بما سبق؛ لأن الادعاءين المذكورين في النقطة السابقة وأعني ادعاء أن الإيمان سببه الخوف والأمل، وادعاء أن الكفر

سببه الهروب من الإحساس بالذنب وإدمان الشهوات، لا يستقيمان إلا لو كان الإيمان والكفر على حد سواء نتيجةً لاختيار، سواء أكان هذا الاختيار مُدركًا أو كان في اللاوعي.

ونحن نرى أن إجابة هذا السؤال تحتاج لبعض التفصيل. فليس إيمان كل الناس واحدًا، وليس كفرهم واحدًا أيضًا. فقد يؤمن المرء عن اقتناع كامل، وقد يؤمن عن تقليد كامل، وقد يؤمن لمزيج بينهما. فيبدأ إيمانه مثلًا باقتناع، ثم يعضده خوف من عقاب أو أملٌ في ثواب أو يبدأ خوفًا وهلعًا ثم يعضده باقتناع.

وكذلك الكفر قد يكون تقليدًا كاملًا أو يكون اقتناعًا كاملًا أو مزيجًا بينهما. ولكن يبقى في النهاية أن نقول إن هناك إرادة حرة تختار لنفسها أي طريق تريد أن تسلكه، هل هذه الإرادة مبنية علي اقتناع عقلي (objective) باستحالة وجود مثل هذا الكون دون خالق مؤدِّية إلى الإيمان، أم مبنية على الأخذ بطريق السلامة (Subjective)؟ إلا أن النتيجة واحدة وهي أن العقل يختار أحد الطريقين في النهاية. بسم الله الرحمن الرحيم ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ (الكهف: 29).

أما المقلدون فإما مقلدون لآبائهم ومجتمعهم المؤمن، وهذا يدل على أن الإيمان لا يعارض الفطرة السليمة، وإلا لاصطدم بفطرة أغلبية البشر. وإما مقلدون لتكبر من سبقهم بالكفر ومقلدون لما يدور في عقولهم من الأماني (Wishful Thinking) يتمنون أن يكونوا قد وُجدوا عبثًا وأنهم إليه لا يرجعون، يتمنون أن يكونوا قد خُلقوا من غير شيء وأن يكونوا هم الخالقين!

هؤلاء أرى أن عقلهم لم ينضج بعد لأنهم ينظرون إلى الكون من خلال نظارتهم فقط وكأن الكـون كله يدور حولهم. هم يؤمنون بتفسيرات لا معقولة تعضد من إيمانهم، فهم كالطفل الذي لم يبلغ الثانية كما تقول

الأبحاث العلمية. إنه لا يدرك أنه يوجد غيره في الكون، وكأنه هو مركز الكون.

على قلوبهم وعلى عقولهم غشاوة الكبر التي تُصوِّر لهم بديع خَلق الله - سبحانه وتعالى- أنه نابعٌ من الطبيعة وكأن الطبيعة نفسها تَخلق ولم تُخلق . يرون سمك السلامون يهاجر من النهر الذي وُلد فيه ويعبر المحيط الشاسع ثم يعود إليه مرة أخرى بل يعود إلى نفس رافد النهر تمامًا فيقولون: هذه هي الغريزة، وسبحان الانتخاب الطبيعي! ويرون مخترع البوصلة فيمجدونه ويعبقرونه ويرون مخترع الطائرة فيمجدونه ويعبقرونه ويرون مخترع الكومبيوتر فيمجدونه ويعبقرونه !! ألم يأن لهم أن يمجدوا خالق سمك السلامون والطيور والعقل البشري؟!

فإن لم يكن الإيمان اختيارًا بل وراثة كما يردد البعض من غير المؤمنين، فلماذا أدت نظرية التطور وراثيًا إلى وجود بعض الناس مؤمنين بالله وبعضهم غير مؤمنين؟! وأيهما يعتبرون أنه أعلى في شجرة التطور؟

ولماذا لا يسردون علينا بعض الأمثلة المشابهة للإيمان التي اخترعها -على حد قولهم- بعض البشر كوسيلة أصلح للبقاء؟

نخلص بقولنا إن الإيمان في نظرنا يبدأ عادةً اختياريًا وينتهي اعتقادًا (أو يبدأ وراثة وقد يمر بالاختيار ثم قد ينتهي إلى الاعتقاد).

وأنهي هذه النقطة بسؤالٍ بسيط لهم: إن لم يكن في الإيمان اختيار، فلماذا هم دونًا عن المؤمنين لا يؤمنون؟! أم أنهم يعتبرون أنفسهم مثل الطفل ذى العامين في أعلى شجرة التطور؟!

29- يدَّعى بعض غير المؤمنين أن إحدى الحقائق هي أن الله الذي يؤمن به المؤمنون عادةً لا يُرى ولا يُشاهد بالتجربة العلمية؛ وبالتالي يسألون:

لماذا يدَّعي إلهكم أنه موجود (أعني ذا وجود وليس موجودًا بصيغة اسم المفعول التي قد تعني أن قد أوجده أحدٌ)؟!

نقول إن عدم المشاهدة بالتجربة العملية قد يعني أحد أمرين: إما عدم وجود ذلك الشيء وإما عدم قدرة المشاهد أن يرى ذلك الشيء؛ إما لحجاب بينهما، وإما لاختلاف الخاصيتين أعني خاصية المشاهِد والمشاهَد.

فنحن مثلًا لا نرى الموجات الإلكترومغناطيسية وقد لا نرى حتى تأثيرها إلا لو وجهنا جهاز استقبال قادرًا على التقاط تلك الموجات ثم استطعنا أن نحول تلك الموجات إلى جهاز التلفاز مثلًا أو المحمول لتحويل الموجات إلى موجات منظورة أو مسموعة. هل لو لم نمتلك جهاز استقبال أو جهاز تحويل لعنى ذلك عدم وجود تلك الموجات؟! في المقابل ، إذا ظهرت الصورة نقية على شاشة التلفاز أفلا يدل ذلك على وجود تلك الموجات؟ لماذا تظهر تجليات الله -سبحانه وتعالى- على قلوب بعض من خلقه ورسله وأنبيائه ولا تظهر على البعض الآخر؟ ألم يفكر غير المؤمن أن تجليات الإله الخالق قد تكون حوله في كل مكان بل قد تكون في مرآة قلبه ولا يراها لأن في قلبه صدأً وعليه زيف وغلف؟!

ألا يستأهل الأمر أن يحاول جاهدًا أن يخلي قلبه من الكبر ومن كل قبح؟ فلربما يحدث له ما حدث للكثيرين الذين كانوا غير مؤمنين من قبله ثم شاهدوا آثار الله ثم شاهدوا تجلياته فآمنوا لتوِّهم.

ألم يَأْنِ للذين كفروا أن يُسلِموا وأن يعترفوا أن عدم رؤيتهم للإيمان قد يكون عيبًا فيهم هم لا عيبًا فيمن يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته؟!

ثم إن الحياة الدنيا - كما أسلفنا في فصول سابقة وكما يؤمن بها المؤمنون - دار اختبار. فأي اختبار يكون لو كان الله مشاهدًا عيانًا بيانًا كما يريدون وكما أراد من قبلهم؟!

سنتناول هنا ردود غير المؤمنين على بعض حجج المؤمنين المشهورة:

30- The Cosmological Argument

(ا) كل شيء موجود له سبب.

(ب) الكون له سبب (من أ).

(جـ) لا يوجد شيء يستطيع أن يكون سبب نفسه.

(د) الكون لا يستطيع أن يكون سبب نفسه(من جـ).

(هـ) لا بد أن يكون هناك شيء من خارج الكون أوجده (من ب ، د).

(و) الله هو الشيء الوحيد خارج الكون.

(ز) الله خلق الكون (من هـ، و).

(ح) الله ذو وجود.

رد غير المؤمنين يكون عادةً: من خلق الله؟ إن الـCosmological Argument يستخدمها المؤمنون بإدخال الله في المعادلة للرد على سؤال من خلق الكون؟ ولكن يقعون في تناقض واضح؛ لأنهم يرحلون المشكلة للرد على سؤال من خلق الله؟ وهو ما يناقض افتراضهم في النقطة «أ» والنقطة «جـ» . وفي الحالتين يفترض المؤمن وجود استثناء واحد - على الأقل - للقواعد التي وضعها هو بنفسه، ثم يفترض أن الله هو ذلك الاستثناء دون توضيح لماذا. وبمجرد السماح بقبول استثناءات، فلماذا لا يقبل المؤمن أن يكون الاستثناء هو وجود الكون دون سبب؟ أو أن يكون قد أوجد نفسه؟

وردنا على حجة غير المؤمن هو كالتالي: نحن نقول إن كل «شيء» له سبب. ولا يدَّعي معظم المؤمنين «أن الله» هو شيء، بل إن عقيدة مثل الإسلام مثلًا، تقول إن ذلك الإله «ليس كمثله شيء» وهي بذلك القول تحل الإشكالية بشكل ذكي وبسيط في آن واحد. فهي عقيدة تعترف في أوائل آيات كتابها أن ذلك الإله هو غيب وأنه ليس كمثله شيء. وبالتالي فكرة أن كل «شيء» يجب أن يكون له سبب لا تتعارض مع من ليس كمثله شيء. وليس من المستحيل عقلًا أن يوجد سببٌ ما لهذا الكون ليس كمثله شيء من هذا الكون. فنحن على قدر عقلنا وعلمنا الحالي، نقرُّ أن كل شيء في هذا الكون يجب أن يكون له سبب. بالتالي افتراض أن الاستثناء هنا هو الكون نفسه لا يجوز؛ لأننا نستطيع بالتجربة العملية وبالنظريات العلمية أن نفند ذلك؛ ولذلك لا يُترك خيارٌ للمؤمن إلا أن يؤمن بسببٍ للكون ليس كمثله شيء، وهو ما أراه لا يتناقض مع الحجة الأصلية.

31- ردًّا على ردهم على حجة الـ Classical Teleological Argument (The Argument from Design) «لا بد أن يوجد مصمم للتصميمات التي نراها في الكون»:

في الأغلب تكون ردود غير المؤمنين على حجة التصميم الذكي كما يلي:

ردهم الأول:

(أ) لقد قام داروين بإثبات إمكانية ظهور وهم ما يسمى بالتصميم الذكي من خلال شرحه لمنظومة «النسخ» replication

(ب) Replicators «النواسخ» تقوم بعمل عدد أُسي exponential من النسخ لأنفسها.

(جـ) بما أنه لا يوجد منظومة تناسخية كاملة Perfect ، فإن بعض الأخطاء والتحويرات ستنشأ حتماً.

(د) أي تحوير أو تغيير يقوم بإعطاء ميزة كفائية للولادة أو الاستنساخ، من شأنه أن يبقي على تلك الميزات الكفائية مهيمنة في أحفاد ذلك النوع.

(هـ) بعد عدة أجيالٍ، تظهر النواسخ المهيمنة وكأنها «صممت بشكل ذكي»، إلا أنها في واقع الأمر، ما هي إلا تراكمات من أخطاء النواسخ عبر ملايين السنين.

وردنا نحن على حجتهم الآتي:

نظرية داروين ما زالت عاجزة عن إعطاء تفسير علمي للآتي:

(ا) ما الذي يحفز trigger النواسخ على أن تقوم بعمل تلك النسخ أصلًا؟

(ب) ما الذي جاء بالنواسخ الأصلية التي من المفترض أن تكون معقدة بدرجة ما لتقوم بعملها؟[1].

(جـ) ما زالت النظرية عاجزة عن إبداء تفسيرات علمية للتصميات غير القابلة للتبسيط irreducible complex (يراجع الفصل المخصص لنظرية النشوء والارتقاء)

(د) ما زالت النظرية عاجزة عن تفسير سر عدم العثور على النواسخ الوسيطة في أغلب الأنواع وخاصة النواسخ الوسيطة السابقة للإنسان.

عادة ما يكون ردهم على هذه النقطة هو أن عدم العثور على تلك الحفريات لا يعني عدم وجودها (وهي حجة لا بأس بها خاصة أن

(1) قام عام 1950 John Van Neumann بمحاولات لإثبات إمكان جسم بسيط أن يقوم بعمل نسخ له ولكن لا يعترف المجتمع العلمي كله بتلك التجربة ويعتبرها الكثيرون تجربة واهية لا تصلح لإثبات فكرة النواسخ في نظرية داروين. فضلًا عن هذا، وحتى لو افترضنا جدلًا صحة التجربة ، فنحن نرى أن التجربة نفسها تؤيد فكرة وجود عقل مدبر لإجراء تلك التجربة، وهو عقل نيومان نفسه!

بعض المؤمنين بالله يستخدمونها لتبرير عدم رؤيتهم لله) ولكن حتى لو افترضنا جدلًا وجاهة تلك الحجة، فأين الأنواع الوسيطة التي لم تندثر؟ ألم يكن من المنطقي وجود أنواع وسيطة سابقة للإنسان وهي جدوده تعيش بيننا الآن؟

افتراضهم الثالث في حجتهم المبينة أعلاه، لا يوجد سند أو تفسير علمي له. فما الذي يجعل نواسخ غير عاقلة دون تدخل إلهي تقوم بتحوير نسختها (حتى لو بشكل خطأ) إن كانت تلك المنظومة تحدث بشكل أعمى وآلي بحت؟

علميًا، إن أغلب التحويرات التي تحدث، هي في حقيقة أمرها تحويرات للأسوأ وليس العكس. وبالتالي لو صحت فكرة نظرية التطور، لاندثرت الأنواع منذ زمن بعيد!

ردهم الثاني:

فكرة التصميمات غير القابلة للتبسيط Irreducable Complexity هي فكرة وهمية.

(أ) ففي الكثير من الأعضاء لو حذفنا جزءًا منها، فما زال العضو يستطيع أن يقوم بنفس الوظيفة ولكن بشكل أقل كفاءةً. فالعين من غير العدسة مثلًا، ما زالت تستطيع أن ترى ولكن بالطبع ليس بنفس كفاءة العين ذات العدسة.

(ب) في الكثير من الأعضاء الأخرى، حَذف جزءٍ منها قد ينتج عنه وقف وظيفته الحالية، ولكن لا يمنع ذلك إمكانية أن ذلك العضو بدون ذلك الجزء المحذوف ربما كان له وظيفة أخرى سابقة. فمثلًا

أجنحة بعض الحشرات قبل أن تكون كبيرة الحجم بشكل كافٍ للطيران، كانت تستخدم كأداة لتوصيل وتبادل الحرارة.

وردنا نحن هو الآتي:

- بالنسبة لحجتهم الأولى، وعلى الرغم من أنه ليس كل المجتمع العلمي يوافق على صحة فكرة الأنظمة غير القابلة للتبسيط، فإن الحقيقة هي أنه في أغلب الأمثلة للأنظمة المعروفة حذف جزء من نظام معين يؤدي إلى وقف وظيفة ذلك النظام الأساسية. وإن المعضلة الأصلية التي يجب أن يجيب عليها من يعارض تلك الفكرة، ليست إمكانية وجود نفس الوظيفة بشكل أقل كفاءة في حالة حذف جزء منه أو لا، ولكن يجب أن يقدموا تفسيراتٍ علمية مقبولة بالنسبة لكيفية التقاء وتجميع أعضاء معينة في نظام معقد معين ليصل إلى وظيفته الحالية بعد تحسينها عن شكلها الأول.
- بالنسبة لحجتهم الثانية، ما الذي يحدد أن وظيفة الطيران التي تستخدمها تلك الحشرات عن طريق الأجنحة أجدى من وظيفة تبادل الحرارة؟ ولماذا لا تبقى الوظيفتان في آن واحد؟ وذلك قطعًا كان يمكن أن يعطي تلك الحشرات ميزة تنافسية أفضل للبقاء؟ لو كان ذلك صحيحًا ، ألم يكن من المتوقع أن نرى إنسانًا ذا أجنحة يستطيع الطيران مثلًا؟ لماذا تطورت أسلاف الطيور إلى أن أصبحت أفضل ما يطير، وتطور أسلاف الإنسان إلى أن أصبح أفضل من يفكر؟

32. ردًّا على ردهم على حجة الانفجار العظيم (الـ Big Bang) «بما أن للكون بداية، إذن فلا بد له من مُبدئ؛ لأن الكون لا يخلق نفسه».

عادة ما تكون ردودهم على فكرة الانفجار الكبير واهية وملخصها الآتي:

ردهم: لا يتفق كل علماء الطبيعة والفلك على أن الانفجار الكبير هو أحدية (Singularity) أو ظهور مفاجىء للزمن والكون وقوانين الطبيعة من لا شيء. وبالتالي فإن استنباط ضرورة وجود الله لخلق ذلك الكون ليس بالاستنباط الدقيق.

وردنا نحن على هذه النقطة هو أن ردهم هذا هو مثال حي لعدم القدرة على الرد وإحالة الموضوع لتفريعات جانبية، فإن تعريف نظرية الانفجار الكبير في أصلها تتكلم عن أن تمدد الكون الحالي يستنتج منه أن حجمه في الماضي كان أصغر من حجمه اليوم. أي - حسب نظريات العلماء - كان الكون قبل الانفجار الكبير بحجم رأس المسمار، وأن حجمه في المستقبل سيكون أكبر منها. وإذا تمكنًا من حساب سرعة التمدد يمكننا التنبؤ بالزمن الذي احتاجه الكون حتى وصل إلى الحجم الراهن، وبالتالي يمكننا تقدير عمر الكون وهو نحو 14 مليار سنة تقريبًا. فخلاصة ولب الموضوع هو أن ذلك الكون كان له بداية وأن طاقة تمدده المهولة لا بد أنها جاءت بسبب ما حتى لو كانت قادمة من أكوان سابقة، فالفكرة نفسها تنتقل من كون إلى كون إلى أن تصل إلى البداية لأول كون (إن صحت أصلًا فكرة الأكوان المتعددة-Multiverses).

33. ردنا على ردهم على حجة التوليف الدقيق لثوابت الفيزياء والطبيعة The Argument from the Fine-Tuning of Physical Constants.

عادةً ما يكون رد غير المؤمنين على هذه النقطة هو أنه من الممكن أن تكون هناك عوالم أو أكوان أخرى غير عالمنا هذا، وأن هذه الأكوان قد تكون أعدادها لا نهائية، وبالتالي ليس من المستغرب أن يكون أحد هذه

الأكوان ذا ثوابت فيزيائية ملائمة لوجودنا، وأن هذه العوالم قد تكون موجودة الآن ونحن نتكلم، وقد تكون قد تواجدت وستتواجد بشكل متتالٍ حيث إن انتهاء كون (بانكماشه إلى نقطة أحدية) أو ما يسميه بعضُ العلماء الـــ Big Crunch ، يكون هو ذاته نقطة البداية Singularity لانفجار كبير لكون جديد وهكذا..

وردهم الثاني عادةً ما يكون: إنه حتى لو صح أنه يوجد كون واحد فقط، فإن دقة توليف الثوابت الفيزيائية فيه لا تعني حتمية وجودِ صانع لها؛ لأنها لو لم تكن ملائمة لعيشنا عليها، لما كنَّا موجودين أصلًا لملاحظة ذلك.

وفي الحقيقة، أنا أرى أن ردهم المبين أعلاه، هو مثالٌ على السفسطة وليس الفلسفة.

فبالنسبة لنقطتهم الأولى، أولًا هي مجرد افتراض وهروب من السؤال؛ إذ إن افتراض الأكوانِ المتعددة أو المتتالية ليست مقبولة علميًّا بشكل كبير بعد. ولكن جدلًا، نقول إن مضمون السؤال الأصلي هو كيف يتأتى تواجـد ذلك التوليف الدقيق لخصائص وثوابت الفيزياء في كوننا هذا؟ ووجود أو عدم وجود أكوان أخرى لا يجيب عن السؤال. المشكلة أنهم في ردهم هذا يتصورون أن كوننا هذا مثل النرد (الزهر) الذي رُميٍ بلايين المرات (بخلاف أنهم لا يردون على من الذي يرمي النرد أصلًا؟ ولكننا لن نتوقف عند هذه النقطة) ، فيتصورون أنه من البساطة بمكان أن يأتي كون واحد من بعد بلايين الرميات العشوائية بشكل منظم وبتوليف دقيق كامل لثوابته الفيزيائية. والخطأ هنا أنهم يتصورون أن وجود ذلك التوليف الدقيق هو مثل أن يأتي 20 عشرون زهرًا برمية واحدة جميعها بالرقم ستة مثلًا. أو جميعها بأعداد ذات

توليفة دقيقة تسمح بوجود علاقة بينها تؤدي إلى وجود مخلوقات عاقلة مثلنا. فمثلًا الزهر الأول والثاني يكون حاصل قسمتهما «باي» 22/ 7 وهكذا...

والمشكلة الأخرى هي ثبات تلك التوليفات. فحتى يكون المثال صحيحًا لوصف المشكلة التي لا يجيبون عنها، يجب أن يفترضوا أن العشرين زهرًا في هذه الرمية التي جاءت بعد بلايين أو حتى بعد عدد لا نهائي من الرميات[1]، لم تجيء فقط بهذه التوليفات الدقيقة بين كل الزهر، ولكنها لسر ما لا يعرفه أحد، حافظت على بقاء تلك التوليفات في كل رمية تَلَتْ تلك الرمية!

إن كل دوران للأرض حول نفسها وحول الشمس وكل جسم يُرمى فيسقط بقوانين الجاذبية وكل طائر يطير بجناحيه وكل سفينة تطفو لهي رمية جديدة مستمرة بسبب استمرار دقة التوليفات بين الثوابت الكونية! إن لم يكن هذا الكون مخلوقًا ومخططًا له سلفًا ، فما الذي لا يجعل هذا الكون يفنى في لحظة حتى بعد وجود توليفة واحدة دقيقة صالحة للعيش بعد بلايين الرميات؟! ليس وجود تلك التوليفات هو الحجة الوحيدة هنا، ولكن بقاء تلك التوليفات لحوالي 14 بليون سنة دون فنائها هو السؤال الذي يهربون منه!

أما الشق الآخر الذي يُستخدم في بعض الأحيان وهو ذو صلة بهذه النقطة (أعني نقطة دقة توليف الثوابت الفيزيائية) ، فهي نقطة جمال القوانين الفيزيائية. وردهم عليها يكون غالبًا : إن الجمال شيء نسبي وإن قولنا إن تفسيرًا معينًا هو جميل لا يعني أكثر من أنه تفسير جيد

(1) (ما معنى عدد لا نهائي أصلًا؟ ومن أين أتى الزهر؟ ومن الذي رماه؟ أسئلة يجب أن يجيبوا عنها).

ومنطقي. وبالتالي، فإن جمال القوانين الذي يدعيه المؤمنون، ما هو إلا وجود القوانين نفسها!

أما بالنسبة لهذا الشق وأيضًا بالنسبة لنقطتهم الثانية، فهي تدل على فهم خطأ للسؤال. فكأن السؤال هو : هل خلق الله الأنف بهذا الشكل حتى يستطيع الإنسان أن يضع عليه نظارته؟ فهم يتصورون أن سؤالنا مشابه لذلك السؤال الذي يظهر وكأنه بسيط، ولكن في الواقع نحن نسأل سؤالًا آخر: ما الذي جعل الأنف متوائمًا مع باقي الوجه؟ ومن الذي صنع النظارة بشكل موائم لهما حتى نستطيع وضعها على الأنف؟!

إن إجابتهم على السؤال بأن وجودنا في هذا الكون لهو جزء من الكون وبالتالي فالسؤال نفسه مردود، لهي إجابة واهية وهروب مرة أخرى من السؤال الأصلي. وكأن ردهم على سؤال: ما الذي جعل الأنف متوائمًا مع الوجه، وجعل النظارة متوائمة مع الأنف؟ هو: وجود النظارة على الأنف!

34- ردًّا على ردهم على حجة الوعي «القوي»:

The Argument of the Hard Problem of Consciousnes

«الوعي الإنساني «القوي» هو ما يستخدمه العلماء في وصف الوعي «غير الموضوعي أو الشخصي» (Subjective)، مثل التذوق وتفضيل لون معين وهكذا، وهو مختلف عن قضية الوعي «الضعيف» (التركيز، القدرة على تكامل المعلومات، القدرة على التصنيف، وهكذا..) وسموها «الضعيف»؛ لأنها في نظرهم قضية يستطاع تفسيرها بشكل ماديٍّ (عن طريق سريان الكهرباء في العقل عن طريق النيورونات..)

أما قضية «الوعي القوي»، فهي ما زالت معضلة بالنسبة للكثير من العلماء ، ويرى الكثير منهم أن التفسير الوحيد المقنع لها هو وجود شيء ما وراء المادة يحكم هذا العالم الداخلي للوعي.

عادة ما يكون ردهم على هذه الحجة ضعيفًا، وغالبًا ما يكون ردًّا نموذجيًّا على «الحجة المبنية على الجهل»: «نحن لا نعرف حتى الآن، ولكن قد يكون...» . وفي الحقيقة، إنهم هم الذين عليهم تقديم البرهان (Burdon of Proof). وإلى أن يخرجوا علينا بتفسير مقنع، يبقى وجود شيء «ما» وراء الطبيعة يحكم ويسبب وجود ذلك الوعي الداخلي للإنسان هو التفسير الأكثر إقناعًا.

35. ردهم على حجة القيم المطلقة The Argument from Moral Truth «وهي الحجة التي تقول بوجود قيم عالمية Universal Values، وبالتالي يوجد مرجع يُستند إليه لتوحيد هذه القيم المتفق عليها هو مصدرها وخالقها».

عادة ما يكون ردهم على هذه الحجة هو الآتي: إن مثال حجة القيم المطلقة هو مثال يُرد عليه- في نظرهم- بما صاغه «أفلاطون في حواره الشيق «يوثفرو Euthyphro»، وهو الحوار المتخيل بين يوثفرو وسقراط.

في هذا الحوار، يسأل سقراط يوثفرو: هل الآلهة تحب البِرَّ لأنه بر، أم أنه بر لأن الآلهة تحبه؟».

«Is the pious loved by the gods because it is pious, or is it pious because it is loved by the gods?»

وردنا نحن على ردهم هذا هو ما يلي: إن ردهم هذا هو مثال واضح لما يُطلق عليه في المنطق والفلسفة: الـ False Dilemma «المعضلة الزائفة».

المعضلة الزائفة عادةً ما تتكون من موقف ما لا يحتوي إلا على بدائل محدودة، تفتقد على الأقل بديلًا واحدًا آخر.

مثالٌ على المعضلة الزائفة هو ما أوردناه في أول هذا الكتاب وهو موقف المحامي والحكيم. مثال آخر هو الـ Morton's Fork وهو مثال من تاريخ الضرائب في بريطانيا: إما أن وجهاء هذا البلد يظهر غناهم وفي هذه الحالة يجب أخذ الضرائب منهم، وإما أنهم لا يظهرون أغنياء وهذا ما يعني أنهم يدخرون الكثير من الأموال وفي هذه الحالة يجب أخذ الضرائب منهم أيضًا».

هذا مثال على المعضلة الزائفة أيضًا؛ لأنه يغفل إمكانية أن يكون أحد هؤلاء الوجهاء مفتقدًا حقًا للسيولة المادية.

وهو ما يعرف أيضًا بـ Catch 22 «وهو كتاب ممتع ألفه جوزيف هيللير، وفيه يفسر «دانيكا» -أحد شخصيات الكتاب- لماذا يجب على من يتقدم للطيران أن يقوم بالكشف الطبي لإثبات أنه ليس مختلًا عقليًا حتى لا يقوم بعمليات طيران خطيرة.

«Sure there's a catch», Doc Daneeka replied. «Catch-22. Anyone who «wants to get out of combat duty isn't really crazy.

وبالتالي نحن نرى أن حجة أفلاطون التي يصوغها هي مثال للمعضلة الزائفة؛ لأنها تغفل بعض البدائل الممكنة، وهي -مثلًا- أن هذه القيم ربما لم تكن موجودة أصلًا في لحظة ما، وخلقها الله حسبما يرى لتكون قيمًا عالمية. وبالتالي الله لم يختر تلك القيم لـ«سبب» ما لأنه لو فعل لكان هذا السبب هو الأساس الذي نستطيع أن نقيس عليه بدلًا من الله. وإن لم يختر تلك القيم لسبب «ما»، فهذا ليس معناه أن هذه القيم اختيارية؛ لأن واقع الحال الذي لا ينكره إلا غير العقلاء هو أن قيمة العطف

على الفقراء هي قيمة جيدة، أما قتل الغير دون وجه حق فهو جريمة، وهكذا. فمثالهم هذا هو مثال نموذجي للمعضلة الزائفة؛ لأنه يهمل بدائل مثل أن الله لم يكن مجبرًا على اختيار أو عدم اختيار تلك القيم الجميلة، ولكنه خلق تلك القيم[1].

36. ردنا على ردهم على حجة الإيثار:

The Argument from Altruism

هذه أيضًا إحدى الحجج (أعني حجة الإيثار) التي أرى أن غير المؤمنين لا يستطيعون الرد عليها بشكل علمي. فالحجة ملخصها يقول إن فرضية الانتخاب الطبيعي لا تستطيع أن تفسر حقيقة الإيثار بين المخلوقات حيث إنه من المفترض أن «الأثرة» (تفضيل «الآخر» على «النفس») وهي عكس الإيثار تؤدي إلى بقاء النفس وبالتالي تؤدي إلى بقاء وانتشار «الجين الأناني» وبالتبعية من المفترض أنه كانت تختفي صفة الإيثار في الإنسان وغيره بعد بلايين السنين.

وردهم الضعيف على هذه الحجة يكون عادةً أن من يفعل الخير لغيره مثل أن يدافع عن غيره مثلًا حتى وإن عرَّض نفسه للخطر، يؤدي مهمة من شأنها الدفاع عن نسخة من نفسه للحفاظ على قبيلته ونوعه وعلى المدى الطويل جماعته ستدافع عنه، وبالتالي هو المستفيد من تبادل تلك الخدمات!

وردنا عليهم (وإن كان ردهم لا يستحق الرد لأنه ليس علميًا ألبتة)، ردنا هو من أعلمَ ذلك المخلوق بتلك الخطة الجهنمية المستقبلية؟ أن

(1) المثال المتكرر دائمًا للمعضلة الزائفة هو ما يستخدمه غير المؤمنين دومًا (دون أن يشعروا) عندما يقولون إن حجة وجود الله بسبب أن للكون بداية، هي حجة واهية؛ لأن المؤمن لا يستطيع أن يفسر بداية الخالق، لأن هذا الزعم يغفل بعض البدائل الممكنة والتى منها أن من الممكن عقلًا ألّا يكون لخالق هذا الكون بداية؛ لأننا لا نعرفه على وجه التحديد كما نعرف كوننا هذا الذي يحتاج إلى بداية.

يساعد غيره من قبيلته ونوعه حتى يقوم غيره بمساعدته في المستقبل؟ ماذا لو لم يساعده غيره في المستقبل؟ ألم تكن تلك الصفة وهي الجحود ونكران الجميل أدعى أن تحافظ على النفس؟!

ثم إن ردهم يفترض أن صفة الإيثار هي فقط بين النوع الواحد، وذلك غير صحيح بالمرة، فالكون مليء بالأمثلة التي تحكي عن أنواع تضحي بنفسها من أجل أنواع أخرى. وجمعيات الرفق بالحيوان التي أنشأها الإنسان السوي نفسه مثال حي على ذلك!

والمثل يقول: كن ذكورًا إن كنت كذوبًا. فهم ينسون أن أحد أساسيات نظرية التطور هو أنه من المفترض أن الانتخاب الطبيعي لا يعمل بخطة مسبقة وأنه نتاجٌ طبيعي وعشوائي، فمن أين لهذا المخلوق أن يخطط أن يدافع عن آخر حتى تبقى تلك الصفة في جينات أحفاده؟! وكم من نوعٍ دافع عن غيره فمات ففاته أن تُسْدَى إليه نفس الخدمة؟!

37 . مقامرة باسكال.

Decision/Game Theory (Pascal's Wager)

قبل أن نتكلم عن هذه الحجة والردود عليها ثم ردنا على تلك الردود، نريد أن ننوه أن هذه الحجة لا تُعتبر حجة لإثبات وجود الله، ولكنها تُستخدم عادةً كحجة على أن «اختيار» الإيمان بالله هو الاختيار الأصح.

وهي باختصار تقول بأن اختيار الإيمان بالله أو عدم الإيمان بالله هو اختيارٌ حتمي لا مفر منه. فلو كان الله وآمنت، تنال الخلاص الأبدي. ولو كان الله ولم تؤمن، تنال اللعنة الأبدية.أما لو لم يكن الله وآمنت، لم تخسر إلا أنك أضعت وقتك وأضعت الاستمتاع بالحياة. ولو لم يكن الله ولم تؤمن فقد تجنبت اعتقادًا خطأً وحسب.

	الله ذو وجود	الله ليس له وجود
اختيار الإيمان	الخلاص والسعادة الأبدية	فاتك بعض اللذات في الحياة
اختيار عدم الإيمان	اللعنة والعذاب الأبدي	أصبت في الاختيار!

أو:

	الله ذو وجود	الله ليس له وجود
اختيار الإيمان	تكسب كل شيء	لا شيء
اختيار عدم الإيمان	تخسر كل شيء	لا شيء

وعادة ما يكون ردهم على هذه الحجة هو الآتي:

حتى لو سلمنا أن اختيار الإيمان هو الأصوب، فهل هذا معناه أنه يجب على كل إنسان أن يؤمن؟ هل الإيمان اختيارٌ أصلًا أم أنه اعتقاد قلبي بالغيب؟ هل لو اختار شخص «اختيار الإيمان» - لأن ذلك سيجنبه اللعنة الأبدية وسيدخله جنات النعيم - فهل سيعده الله مؤمنًا؟ وإن لم يعده مؤمنًا فذلك يعني أنه سينال العذاب الأبدي أيضًا!

افتراض أن اختيار الإيمان له ثقل 50 في المائة لهو افتراضٌ غير صحيح أو على الأقل يختلف من شخص إلى آخر.

هذه الحجة اعترافٌ ضمني من قائلها أنه لا يستطيع أن يثبت وجود الله بشكل علمي.

وردنا نحن على ما سبق هو الآتي:

بالنسبة للنقطة الأولى، نحن نرى- كما ذكرنا في فصول سابقة- أن الإيمان جزءٌ منه عقلي وجزء منه قلبي. ولا يعنينا في هذا الصدد أيهما يأتي

أولًا (نحن نرى أن ذلك يعتمد على طبيعة وقدرات الشخص نفسه).
وبالتالي يكون ردنا على أسئلتهم في النقطة الأولى هو أن أسئلتكم هذه تعترف ضمنيًا أن الإنسان له مطلق الاختيار في هذا القرار، كما أن له مطلق الحرية في أفعاله وذلك يبرر محاسبة الله له على هذه الاختيارات.
ونحن بالفعل نرى أن المؤمن يجب أن يبني إيمانه على قدر ولو بسيطًا من المنطق، وأن يقيم باقي الأدلة الأخرى على وجود الله والأخرى التي ضد وجود الله، ثم يختار. ولا مانع حينئذ أن يستخدم منطق باسكال في اتخاذ قراره. وهذا ما يفعله الإنسان العاقل كل يوم في حياته من اتخاذ قراراتٍ بناء على توقع المكتسبات والخسائر. فلا يعني إن ركبت طائرة للذهاب إلى أمريكا أنك تلقي بنفسك في التهلكة، ولكن يعني أنك تعرف أن إحتمالية حدوث الخطورة قليلة على الرغم من كبر حجم الخطورة. ولا تعني رغبتك في أن تسافر إلى أمريكا في أقل وقت، أنك لا تخاف الموت. كذلك فإن من «يختار» الإيمان بالله، لا يعني ذلك أنه ليس محبًا للخير أو أنه يتقي الشر فقط خوفًا من العذاب.
أما بالنسبة لنقطتهم الثانية، فنحن نرى أن تلك النسبة تختلف من شخص إلى آخر حسب قدراته العقلية وحسب نشأته وحسب خبراته الحياتية. وهذه هي المقامرة والرهان الذي يجب أن يأخذه كل إنسان صادق مع نفسه. وأنا شخصيًا أرى أن أي نسبة فوق الـ 50 في المائة تعتبر إيمانًا بالله بشكل أو بآخر وأن النتائج المذكورة في الجدول أعلاه تعني أنه حتى الشخص الذي يرى أن وجود الله ذو نسبة تعادل الواحد في المائة مثلًا، يجب عليه أن يقيم حاصل تلك النسبة في الأبدية ويقارنها بحاصل ضرب نسبة الـ 99 في المائة في لا شيء، ثم يتخذ القرار ويأخذ خطوات عملية. ولعل تلك الخطوات العملية ترفع من نسبته تلك سواء عن طريق العقل أم عن طريق القلب.

أما بالنسبة لنقطتهم الثالثة والأخيرة، فنحن لا نرى أن هذه الحجة اعترافٌ بعجز المؤمنين عن إثبات إيمانهم بطريق العقل، بل أرى أنها حجة وجيهة لكل شيء مستقبلي لا تستطيع أن تثبته أو تستشفه بنسبة مائة في المائة. وهأنا أعترف هنا ضمنيًّا أنني أرى أن الإيمان لا يمكن إثباته بنسبة 100 في المائة وإلا لانتفت فكرة الإيمان من الأصل. وذلك يعني أن من يؤمن بالله بنسبة 1 في المائة وكذا من يؤمن بالله بنسبة 99 في المائة، كليهما يتحتم عليهما أن يُقيما تلك الحجة بشكل عقلي ثم يتخذا قرارهما واختيارهما المبني على حاصل ضرب تلك النسبة بالنتائج المتوقعة، وهذا ما يفعله العقلاء تمامًا بما يعرف بالـ Game Theory أو الـ Decision Theory في علمي الاقتصاد والمنطق وغيرهما من العلوم الأخرى.

38. «الإيمان ليس للأذكياء»

يروج لهذه العبارة المغلوطة بعضُ غير المؤمنين وكأنهم أوصياء على الناس مُلاك للحقيقة وحدهم، وكأن من لا يؤمن بما يعتقدون هو في درجة عقلية أدنى منهم.

ولأنه لا توجد طريقة علمية نستطيع أن نحقق أو ننفي بها العبارة السابقة، فقد اخترنا أن نستخدم بعض الأمثلة لأناس عاشوا علي أرضنا هذه ويكاد الناس لا يختلفون على ذكائهم (بل وعبقريتهم في بعض الأحيان).

اخترنا أن نورد بعضًا مما قالوا عن هذه القضية -أعني قضية وجود الله- وفي ذلك في رأينا أبلغ رد عن الادعاء السابق. وإن كان هذا الادعاء دون دليل أصلًا، والبينة على من ادعى، إلا أننا رأينا أن نرد عليه حتى لا ينخدع به المنخدعون.

وفي سياق ردنا هذا، نود أن ننوه أن وجود بعض الشخصيات الأخرى التي يكاد لا يختلف على ذكائها الناس وفي نفس الوقت لا تؤمن بالله ليس لها علاقة بالنقطة التي نتناولها؛ لأننا لم ندع مثل هؤلاء المدعين بأن عدم الإيمان ليس للأذكياء لأننا نؤمن بأنه «يعرف الرجال بالحق ولا يعرف الحق بالرجال»، (وإنما يعرف الحق بالحق!).

أولاً: العلماء الحاصلون على نوبل[1]:

(1) Albert Einstein ألبرت أينشتين – جائزة نوبل في علم الطبيعة Noble Laureate in Physics (1879 – 1955):

حصل ألبرت أينشتين على جائزة نوبل في الفيزياء، عام 1921 لمساهماته في نظرية الكوانتوم Quantum Theory ولاكتشافه قانون الـ Photoelectric Effect.

هو أحد مؤسسي علم الفيزياء الحديث ومؤلف / مكتشف نظرية النسبية. وحسَب Reuters Dec. 2000 هو «شخصية الألفية الثانية».

الجنسية: ألماني ثم سويسري ثم أمريكي الجنسية.

والجدير بالذكر أنه لم يحصل على جائزة نوبل لنظريته النسبية العامة والخاصة؛ لأن هذه الجائزة تمنح بعد تأكيد تطبيقاتها عمليًا وهو ما حدث بعد وفاته بعدة سنوات.

(١) أريـد أن أعرف كيـف خلق الله العالم ؟ لا تشـغلني هذه الظاهرة أو تلك، أريد أن أعرف أفكاره والباقي ما هو إلا تفصيل.

---

(1) مقتبس من 50 Nobel Laureates & other great scientisits who believe in God- Tihomir Dimitrov, M.S.C, Psychology 1995, MA , in Philosophy 1999.

(Einstein, As cited in Ronald Clark, Einstein: The Life and Times, London, Hodder and Stoughton, Ltd., 1973, 33).

(ب) نحـن مثل طفل صغـير يدخل مكتبـة كبيرة مليئـة بالكتب بلغات مختلفة.

الطفل يعلم أنه لا بد أن أحدًا قد كتب تلك الكتب ولكنه لا يعرف كيـف؟ إنـه لا يعلـم اللغـات التي كُتِبـت الكتب بهـا. الطفل يرى بالتقريب أن هذه الكتب قد رتبت بنظام غامض ولكنه لا يعلم هذا النظام!

هذا بالنسـبة إلي هو نهج أذكى أذكيـاء بني البشر تجاه الله. نحن نرى كونـًا نُظِّـم بإبداع ويخضـع لقوانين معينة ولكننـا لا نفهم بالتقريب هذه القوانين. عقولنا المحدودة لا تستطيع أن تحيط بالقوة الغامضة المحركة للأكوان».

(1) "I want to know how God created this world. (I am not interested in this or that phenomenon; in the spectrum of this or that element. I want to know his thoughts, the rest are details".

(2) "We are in the position of a little child entering a huge library filled with books in many different languages. The child knows someone must have written those books. He does not know how. He does not understand the languages in which they are written. The child dimly suspects a mysterious order in the arrangement of the books, but doesn't know what it is.

That it seems to me is the attitude of even the most intelligent human being towards God. We see a universe marvelously arranged and obeying certain laws, but only dimly understand these laws. Our limited minds cannot grasp the mysterious force that moves the constellations." (Einstein, as cited by Davis Brian, Einstein: A life,

New York, John Wiley and Sons, 1996, 186).

(جـ) كل مـن يُعنى جديًّـا بتحصيل العلم يصبح مقتنعًا أن روحًا ما وراء قوانين الكون، روحًا أرقى بكثير من روح الإنسان، روحًا تتواضع أمام وجهها كل قوانا ...

«Everyone who is seriously involved in the pursuit of science becomes convinced that a spirit is manifest in the laws of the universe – a spirit vastly superior to that of man and one in the face of which we with our modest powers must feel humble.

«Einstein 1936, as cited in Dukas and Hoffmann, Albert Einstein, The Human Side, Princeton University Press, 1979, 33).

(د) كلما اخترق المرء أسرار الطبيعة، ازداد إجلالًا واحترامًا لله!

«The deeper one penetrates into nature's secrets, the greater becomes one's respect for God».

(Einstein, as cited in Brian, 1996, 119).

(هـ) كلما درست العلم ازددت إيمانًا بالله .

«The more I study science, the more I believe in God»

(Einstein, as Cited in Holt, 1997).

(و) وقال أينشتاين عن الملحدين (المتطرفين منهم):

ثم إن هناك الملحدين المتطرفين والذين تطرفهم تمامًا مثل تطرف المؤمنين ويأتي من نفس المصدر. هم مثل العبيد الذين ما زالوا يحسون بثقل الأغلال التي ألقوا بها بعد عناء شديد. إنهم مخلوقات في ظل ترددهم للاعتراض على موروثاتهم (أفيون الشعوب) لا يستطيعون أن يتحملوا أو يروا موسيقى الأكوان.

«Then there are the fanatical atheists whose intolerance is of the same

kind as the intolerance of the religious fanatics and comes from the same source. They are like slaves who are still feeling the weight of their chains which they have thrown off after hard struggle. They are creatures who in their grudge against the traditional «opium for the people» cannot bear the music of the spheres.»

(Einstein as cited in Max Jamme and Einstein and Religion: Physics and Theology, Princeton University Press, 2002, 97).

(2) ماكس بلانك Max Plank – Nobel Laureate in Physics (1858-1947)

حصل على جائزة نوبل في الفيزياء عام 1918 لأعماله في «إنشائه وتطويره لنظرية الكوانتا الأولية Elementary Quanta.

يعرف ماكس بلانك بأبي الفيزياء الحديثة ويعتبر منشئ أحد أهم النظريات في القرن العشرين وهي ال Quantum Theory وساهم أيضًا في تطوير النظرية النسبية ودراسة الـ Electromagnetic Radiation.

ويعتبر أحد مؤسسي ميكانيكا الكوانتوم Quantum Mechanics.

(ا) في محاضرته الشهيرة: «الدين والعلم (مايو 1937)، كتب بلانك:

الدين والعلم كلاهما يحتاج في مضمونه إلى الإيمان بالله. بل على الأحرى: الله يقف للأول (الدين) في البداية وللثاني (العلم) في نهاية كل التفكير . للأول ، الله يمثل القاعدة ، وللثاني يمثل تاج أي تفكير يُعنى بنظرة العالم».

'Both religion and science need for their activities the belief in God, and moreover God stands for the former in the beginning, and for the latter at the end of the whole thinking. For that former, God represents the basis, for the latter, the crown of any reasoning concerning the world's view».

(Max Planck, Religion and Naturvissenchaft, Leipzig, Johann Ambrosius Barth Verlag, 1958, 27).

(ب) في أحد أشهر كتبه: (Where is science going?) (1932) قال ماكس بلانك: لا يمكن أن يكون هناك تعارض حقيقي بين الدين والعلم، لأن أحدهما يكمل الآخر. أي شخص جاد ذي بصيرة يتبين - أظن - أن العنصر الديني في طبيعته يجب أن يُلاحظ وأن يحصد لو اتحدت كل طاقات الروح الإنسانية لتعمل معًا في توازن وتوافق كاملين. وبالفعل إنه ليس على سبيل المصادفة، أن أعظم المفكرين عبر كل العصور كانوا (ذوي) أرواحٍ متدينة بعمق (Planck, 1977, 168).

«There can never be any real opposition between religion and science; for the one is the compliment of the other. Every serious and reflective person realizes, I think, that the religious element in his nature must be recognized and cultivated if all the powers of the human soul are to act together in perfect balance and harmony. And indeed it was not by accident that the greatest thinkers of all ages were deeply religious souls (Planck, 1977, 168).

(جـ) كعالم طبيعة، أي رجل «أفنى كل حياته» للعلم واكتشاف المادة، لا يستطيع أحدٌ أن يدَعي يقينًا أنني Fantast أؤمن بالوهم أو أنني إنسانٌ حالم. وبدراسة الذرة، أقول لكم إنه لا توجد مادة مثل هذه! أي مادة تظهر وتستمر بسبب قوة لتؤدي إلى اهتزازات جزيئاتها وتمسكها ببعض في أصغر مجموعة شمسية: الذرة.

على الرغم من ذلك، لا يوجد في المجموعة الشمسية كلها قوة ذكية أو أبدية وبذلك يجب أن نفترض أن من وراء هذه القوة توجد قوة ذات وعي، عقل ذكي أو روح. هذه هي أصل كل شيء.

As a physicist, that is a man who had devoted his whole life to a

wholly prosaic science, the exploits of matter, no one would surely suspect me of being a fantast. And so, having studied the atom, I am telling you that there is no matter as such! All matter arises and persists only due to a force that causes the atomic particles to vibrate, holding them together in the tinest of solar systems, the atom. Yet in the whole of the universe there is no force that is either intelligent or eternal, and we must therefore assume that behind this force there is a conscious intelligent mind or spirit. This is the very origin of all matter.»

(Plank as cited in Eggenstein 1984, Part 1, see «Materialistic science on the wrong track»).

(د) بسؤاله في مجلة ال أويزرفر Observer: «هل تظن أنه من الممكن أن نفسر الوعي بواسطة المادة؟ أجاب ماكس بلانك:

«لا.. أنا أعتبر أن الوعي هو الأصل، أعتبر أن المادة ناتجة عن الوعي، لا نستطيع أن نصل إلى ما بعد الوعي (قبل الوعي)، كل ما نتكلم عنه، كل ما نعتبره موجودًا يؤكد الوعي.

To the question of the "Observer", Do you think that consciousness can be explained in terms of matter." Max Plank replied:

"No, I regard consciousness as fundamental, I regard matter as derivative from consciousness. We cannot get behind conscousness" (Plank, as cited in de Purucker, 1940, Ch. 13).

(هـ) آمن بلانك بالحياة بعد الموت، آمن بوجود حياة أخرى فوق هذه الحياة (الدنيا). حياة أبدية نستطيع أن نتخذها ملاذًا وملجأ.

Planck believed in life after death, he believed in the existence of another world, exalted above ours, where we can and will take refugee at any time».

(Planck, as cited in Heilbron, 1986, 197)

(3) إروين شرودينجير (1887-1961) Erwin Schroedinger-
Nobel Laureate in Physics, 1933

حصل شرودينجير على جائزة نوبل في الفيزياء عام 1933 لاكتشاف أشكال جديدة فعالة في نظرية الذرة:
(For the Discovery of Productive Forms of Atomic Theory).

ساهم أيضًا في نظرية الموجات للمادة «Wave Theory of Matter» لميكانيكا الكم «Quantum Mechanics» ولأساسيات أخرى.

وهو مؤسس ميكانيكا الموجات أستاذ الطبيعة في جامعات ستوتجارت، برلين، زيوريخ، أكسفورد وفيينا.

يرى شرودينجير أن الحياة هي لعبة خلاقة ذات قوانين مصممة من قبل الخالق ﷻ.

(١) العلم لعبة ولكنها لعبة واقعية، لعبة بسكاكين محددة.

لو قطع إنسان صورة بدقة لألف قطعة، تتمكن من حل الأحجية الـ Puzzle عندما تعيد ترتيب القطع للصورة. في حالة نجاحك أو إخفاقك يُتحدى ذكاؤك وينافس في مواجهة أي معضلة علمية، لم يضع المعضلة فقط، ولكنه وضع أيضًا قواعد اللعبة! ولكن تلك القواعد لا تعرف كلها فنصفها قد تُرك لك لتكتشفه أو لتستنتجه.

عدم التيقن هو كم من القواعد التي نظمها بشكل دائم الخالق وكم منها ظاهريٌ هو نتيجة لقدراتنا الذهنية. والحل يبدو -علي الأغلب- ممكنًا فقط عن طريق التحرر من قيود تلك القواعد. هذه ربما هي أكثر الأشياء تشويقًا وإمتاعًا في اللعبة.

«Science is a game- but a game with reality, a game with sharpened knives.»

If a man cuts a picture carefully into 1000 pieces, you solve the puzzle when you reassemble the pieces into a picture, in both the success or failure , your intelligences compete.

In the presentation of a scientific problem, the other player is the good Lord. He has not only set the problem but also has devised the rules of the game. But they are not completely known. Half of them are left for you to discover or to deduce.

The uncertainty is how many of the rules God has permanently ordained, and how many apparently are caused by your own mental inertia, while the solution generally becomes possible only through freedom from its limitations. This is perhaps the most exciting thing in the game».

(Schroedinger, as cited in Moore, 1990, 348).

(ب) ينكـر شرودينجـير الماديـة (نظرية أن المـادة هي الحقيقـة الوحيدة) ويؤكد شرودينجير أن وعي الإنسان يختلف تمامًا مع المادة: «الوعي لا يمكن تفسيره أو اعتباره بشكل فيزيائي؛ لأن الوعي شيء تأصيلي (أصلي مجرد) لا يمكن تفسيره عن طريق شيء آخر».

«Consciousness cannot be accounted for in physical terms. For consciousness is absolutely fundamental. It cannot be accounted for in terms of anything else».

(Schroedinger, 1984, 334).

4) فيرنير هايزنبرج (1901-1976) Werner Heisenberg –Nobel Laureate in Physics.

حصل هايزنبرج على جائزة نوبل في الفيزياء عام 1932 في ميكانيكا الكوانتوم المؤدية إلى اكتشاف صور الهيدروجين الأولوتروبية (Allotrpic

وفي عام 1927، نشر المبدأ الشهير الخاص بعدم (forms of Hydrogen
التحديد أو عدم الحتمية (Principle of Uncertainty of Indeterminacy)
التي قرنت باسمه.

(أ) النظرة الأولى من خلال كأس العلوم الطبيعية ستحولك إلى الإلحاد، ولكن في قعر (قاعدة) الكأس، الله ينتظرك !

[«Der erste Trunk aus dem Becher der Naturwissenchaft macht atheistisch, aber auf dem grund des Bechers wartet Gott!]

(Heisenberg, as cited in Hildebrand, 1988, 10).

(ب) عندما لا تبقى المبادئ لتحدد الطريق، يختفي مقياس القيم ومعه تختفي معاني الأعمال والآلام ولا تنتهي إلا بالسلبية (والعبثية) واليأس.

الدين إذن هو مؤسس منظومة القيم ومنظومة القيم هي معنى الحياة.

«Where no guiding ideals are left to point the way, the scale of values disappears and with it the meaning of our deeds and sufferings and at the end can lie only negation and despair.

Religion is therefore the foundation of ethics, and ethics the presupposition of life»

(Heisenberg, 1974, 219).

5) جوجليلمو ماركوني Guglielmo Marconi (1937-1974):

حصل على جائزة نوبل في الفيزياء عام 1909 لاختراعه الناجح للتلجراف اللاسلكي.

ماركوني أيضًا هو مخترع الراديو وأحدث ثورة أدت إلى إمكانية الاتصال الإلكتروني في العصر الحديث.

(١) كلما اشتغلت مع قوى الطبيعة، أحسست بإحسان الله إلى الإنسان. كلما اقتربت إلى الحقيقة العظيمة بأن كل شيء معتمد على الخالق الأبدي القيوم، أحسست أكثر بأن ما يسمى «بالعلم» (الذي يملؤني ويشغلني) ما هو إلا تعبير عن إرادة الله العظيم التي تهدف لجمع الناس بعضهم بعضًا لتساعدهم على أن يفهموا أو يحَسنوا من أنفسهم.

The more I work with the powers of nature, the more I feel God's benevolence to man, the closer I am to the great truth that everything is dependent on eternal creator and sustainer; the more I feel that the so called «science», (that) I am occupied with, is nothing but an expression of the supreme will, which aims at bringing people closer to each other in order to help them better understand and improve themselves»

(Marconi, as cited in Mario Cristina, Marconi, 1955, 244).

ب) جهاز لا سلكي يستطيع أن يرسل رسالة في الخلاء. في الصلاة، الروح الإنسانية تستطيع أن ترسل موجات خفية إلى الخلود (الله)...موجات تصل إلى هدفها أمام الله.

A wireless device can deliver a message through the wilderness. In prayer, the human spirit can send invisible waves to eternity. Waves that achieve their goal infront of God.»

(Marconi, as cited in Popov 1992,298)

6- شارلز داروين: مبتكر نظرية التطور (Charles Darwin)

(١) كتب داروين بأنه «يواجه تحديًا عظيمًا بسبب الصعوبة القصوى أو استحالة استيعاب أن هذا الكون الرهيب الرائع - اشتمال للإنسان وقدرته على النظر إلى الوراء وأيضًا استشرافه البعيد إلى المستقبل - مجرد نتيجة لصدفة عمياء أو للحاجة فقط؛ لذا فأجبر أن أنظر إلى

سبب أول لهذا الكون عاقل بدرجة ما مشابهة للإنسان، ولذلك فأنا أستحق أن يقال عني «إنني مؤمن».

He wrote that he was greatly challenged by the extreme difficulty, or rather the impossibility, of conceiving this immense and wonderful universe, including man with his capacity for looking far backwards and far into futurity, as the result of blind chance or necessity, when thus reflecting I feel compelled to look to a first cause having an intelligent mind in some degree analogous to that of man, and I deserve to be called a theist».

(The Language of God, Francis Collins, 99).

(ب) في عـام 1879 (ثلاثة أعـوام قبل أن يتوفى)، كتـب داروين إنه «لم يكن أبدًا ملحدًا بمعنى إنكار وجود الله».

«...never been an atheist in the sense of denying the existence of God».

(Darwin as cited in Bowden, 1998, 273).

7- إسحق نيوتن Sir Isaac Newton (1642-1929): مؤسس علم الطبيعة الكلاسيكية:

(ا) النظام البديع للشـمس والكواكب والشهب لا يمكن أن ينشأ إلا عـن خالـق مهيمن قوي. هو يحكم كل شـيء ليس كروح الكون بل رب كل شيء.

«This most beautiful system of the sun, planets and comets, could only proceed from the counsel and dominion of an intelligent and powerful being. The being governs all things, not as the soul of the world, but as Lord over all.

(Newton, 1687, Principia).

هل يمكن أن تكون مصادفة أن كل الطيور، والحيوانات، والإنسان لها نفس مواصفات جانبيها الأيمن والأيسر- ما عدا التشريح الداخلي- (يقصد القلب في اليسار.. إلخ)، وعينان اثنتان فقط لا أكثر على جانبي الوجه وأذنان اثنتان لا أكثر ، وأنف واحد بفتحتين وإما ذراعان أو جناحان وساقان ولا شيء أكثر؟!

ألا تلفتنا تلك الوحدة الظاهرة (بين الأشياء) إلى شيء سوى هيمنة وإشراف مؤلف مقتدر؟!

«Can it be by accident that all birds, beasts, and men have their right side and left side alike shaped (except in their bowels); and just two eyes, and no more, on either side of the face; and just 2 ears on either side of the head; and a nose with 2 holes; and either 2 forelegs, or 2 wings or 2 arms on the shoulders and 2 legs on the hip and no more?!.

Whence arises this uniformity in all their outward shapes but from the council and contrivance of an Author?!

8- نيكولاس كوبرنيكوس Nicolaus Copernicus (1593-1437)

(Founder of Heliocentric Cosmology)

لمعرفة أعمال الله العظيمة، ولفهم حكمته وقوته المهيمنة، وللامتنان والشكر - ولو بدرجة بسيطة، لأعمال قوانينه المذهلة البديعة، بالتأكيد كل هذا يجب أن يكون طريقًا مُرضيًا ومقبولًا لعبادة الإله الأعلى الذي لا يمكن أن يكون الجهل به أكثر إرضاءً من المعرفة به!

«To know the mighty works of God, to comprehend His wisdom and majesty and power to appreciate, -in degree- the wonderful working of His laws, surely all this must be a releasing and acceptable mode of worship to the Most High (الأعلى) to whom ignorance cannot be more gratifying than knowledge».

(Copernicus, as cited in Neff 1952, 191-192, and in Hubbard, 1905).

9) سير فرانسيس بيكون Sir FrancisBacon (1651-6261):

(Founder of the Scientific Inductive Method)

(١) إنها حقيقة؛ أن القليل من الفلسـفة قد يؤدي بالإنسـان إلى الإلحاد، ولكن العمق في الفلسفة يُرجع عقول الإنسان إلى الدين.

«It is true, that a little philosophy inclineth man's mind to atheism; but depth in philosophy bringeth men's minds about to religion....»

(Bacon, 1875, 64).

في الحقيقـة ، إن قائمـة المفكرين المؤمنين لا حصر لهـا، فنكتفي بهذا القدر في هذا المقام.

ولكننـي أريد أن أختتم بحثنا هذا بحوار مـع أديبنا الكبير نجيب محفوظ الحاصل على نوبل في الأدب عام 1988...

فإلى الحوار الذي أجراه تلميذه وأستاذنا محمد سلماوي في كتابه:

«وطني مصر»:

س : بعـد كل ما حققتـه البشرية من تقدم تكنولوجـي، هل ما زال هناك مكان في عالمنا المادي هذا للدين؟

يقول الأستاذ محفوظ دون لحظة تردد:

ج : بل دعني أقل لك إنه بسبب هذا التقدم الذي سخر للإنسان قوة هائلة لم يكـن يسـيطر عليها من قبل ولم يكـن يتصورها حتـى في الخيال، أصبحت ضرورة الديـن أشـد؛ لأن هذه القوة إمـا أن يُراعى في اسـتخدامها شيءٌ من

المبـادئ الإنسـانية والأخلاقية، وإما أنها سـتخضع لتقديـر العقل والمصلحة وحدهما.

والعقـل والمصلحـة - بعيـدًا عـن المبـادئ - قد ينشـأ عنهـما الكثير من الكوارث مثل الحربين العظميين مثلًا اللتين كان الدافع وراءهما هو المصلحة. إن مـا نـراه الآن حولنا من جرائـم وأحداث اغتصاب وأعـمال عنف إنما هو نتـاج لانفصـال العقل والمصلحة عن المبـادئ. أما حين تخضع قوة الإنسـان للمبادئ الدينية فإنها تصبح لخير الإنسان.

س: أو ليـس الديـن - بهـذه الصـورة - كمنظومـة مـن المبـادئ، يمكن الاستعاضة عنه ببعض الفلسفات الوضعية الحديثة التي تنطوي هي الأخرى على المبادئ الإنسانية والأخلاقية؟

ج: هناك من الفلسـفات مـا يدعو إلى المبادئ العامـة، هذا صحيح، لكن أغلبهـا متأثـر بالأصـل الديني. فلـم يكن جان جاك روسـو مثـلًا بعيدًا عن المسـيحية ولا كان فرانسـيس بيكون، عـلى أن ما يقدمه الإنسـان من اجتهاد ليـس مثـل ما يتلقـاه وهو مؤمـن بأنـه آت من رب الكـون، هنـاك فرق بين الاثنـين، لذلـك تجد مبادئ بعـض الناس أحسـن ما تكون، لكـن أصحاب الإيـمان وحدهم هـم الذين يموتون في سـبيل المُثـل والمبادئ النبيلـة. فوراء التضحية دائمًا إيمان وليس مجرد اقتناع عقلي، وهو ما جعل الفلاسفة أنفسهم يطالبـون بالدين من الفرنسي فيكتور لوزان الذي قال في القرن الماضي إننا في حاجة إلي الدين من أجل الدين.

س: إذن، فالفارق بين الفلسفة والدين هو الإيمان بوجود الله ؟

ج: فقال مبتسمًا:

وهل هذا فارقٌ بسيطٌ؟ إن الذي يخلق المبادئ بعقله قد يتشكك فيها، قد يقول لنفسه: ما الذي يُلزمني بهذا؟ ولماذا أضحي بلذتي وسعادتي السريعة وجميع الفوائد الأخرى من أجل بضع أفكار؟ لكن حين تكون المبادئ مستوحاة من الإله صاحب الكون وخالق الناس، يكون لها معنى آخر...

ثم يضيف:

الله هو الذي يعطي للقيم معناها، الله هو الذي يعطي الوجود معناه. بدونه لا معنى للوجود، لا معنى للقيم، وبديله هو العبث، اللا معنى.

(نجيب محفوظ، وطني مصر، ص 63، 64، دار الشروق).

خاتمة

حاولت في هذا الكتاب مناقشة قضية وجود الله بشكل حيادي قدر الإمكان. وأقول «قدر الإمكان» لأنني أرى أن الحيادية المطلقة صعبة المنال إن لم تكن مستحيلة خاصة في مثل هذه الأمور التي عادةً يشب عليها المرء ويتأثر بها سواءً بالسلب أو بالإيجاب.

فمن تربى في بيئة مؤمنة سوية من المرجح أن يبقى مؤمنًا ومن تربى في بيئة مؤمنة غير سوية و رأى من أهل ذلك الإيمان ما يسوءه فمن المرجح ألا يكون مؤمنًا. وبالمثل من تربى في بيئة غير مؤمنة سوية (تحترم الإنسان والحرية والنظام) من الصعب أن يتحول إلى الإيمان خاصة في ظل انحطاط غالبية المؤمنين حاليًا ، أما من تربى في بيئة غير مؤمنة غير سوية فمن الممكن أن يكون مؤمنًا نظرًا لما يفتقده من معنى للحياة وقيمها العليا.

أيضًا، أنا أرى أن الإيمان ما هو إلا قدر من الترجيح العقلي. فلا أظن أن تعريف المؤمن الصحيح هو من يؤمن بنسبة مائة في المائة بوجود الله. ولو سلمنا بهذا الافتراض (أعني أن الإيمان ترجيح) لعنى ذلك أن من لديه قدر من الشك قد يُطلق عليه لفظة مؤمن أيضًا. وقد يكون ذلك من أسباب استخدام القرآن للفظ «الظن» عندما يتحدث عن المؤمنين في آيات عديدة، مثل: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا

لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾﴾

(سورة البقرة 45، 46).

فلو كان الإيمان المطلوب هو اليقين العقلي بنسبة 100٪ ، لعنى ذلك وجود أدلة يقينية لوجود الله لا تتحمل الشك أو النقد، وهو ما يعني بالضرورة عدم إمكانية نقدها أو نقضها حتى من قِبل غير المؤمنين وهو ما يعني بالتالي انتفاء فكرة الاختبار وانتفاء قضية «الإيمان بالغيب».

و لكن هل الإيمان بالغيب يعني بالضرورة إلغاء العقل؟ لا أرى ذلك على الإطلاق لأن حتى ما يؤمن به المرء بعقله يتطلب قدرًا من الإيمان بالغيب. وما أكثر النظريات والأفكار العلمية التي آمن بها الإنسان بعقله ثم اكتشف خطأها أو إكتشف أن غيرها أكثر دقة عندما أمعن النظر فيها وتبينت له أدلة أو إشارات أخرى. وكذلك الإيمان بالله، يبقى غيبًا في هذه الحياة مهما توصل إليه الإنسان عن طريق العقل أو العلم حتى يترك مساحةً للقلب أن يختار وفي ذلك وفي رحلته بحثًا عن الحقيقة يُختبر.

كما يقول المثل الشعبي المصري: (الصدق منجى).. وتقول الآية القرآنية ﴿يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ..﴾، فهل لو اجتهد إنسان بصدق ولم يستطع أن يؤمن ، هل ينجيه ذلك من غضب خالقه؟ الإجابة لن تجدها في هذا الكتاب وأزعم أن أي محاولة للإجابة عليه في كتب أخرى لن تكون دقيقة لأن ذلك مرده إلى الله وحده.

ماذا عن الصادقين من غير المؤمنين الذين ينفعون مجتمعهم؟ أليسوا بأفضل حالٍ من أولئك المؤمنين الذين يعيشون عالةً على مجتمعهم ويضرونه أكثر مما ينفعونه؟!

الإجابة عن ذلك السؤال في رأيي لها شقان: شق خاص بقيمة إعمار الدنيا وحب الخير من أجل الخير وشق خاص بقيمة الوفاء للخالق وقيمة المحاولة الدائمة للبحث عن الحقيقة.

فمن لا يؤمن دون أن يجهد نفسه أن يبحث عن حقيقة ذلك الكون وما وراءه كمن يمشي في الصحراء ووجد طاولة عليها أنواع وأصناف شتى من المأكولات وكل ما لذ وطاب من الفاكهة والمشروبات فانكب يأكل منها دون حتى أن يسأل نفسه من الذي جاءه بها ليشكره. بل قد ينكر أن يكون قد جاء بها أحد أصلًا لو وجد ثمرة واحدة فقط معطوبة! فهو هنا يفتقد قيمة الفضول للوصول إلى الحقيقة وهي خصلة إنسانية عظيمة وأيضًا يفتقد قيمة الوفاء لمن جاء به ولمن جاء بطعامه.

أما من بحث بصدق وإخلاص حتى آخر يوم في حياته ولم يصل فهذا أمره إلى من خلقه وهو أعلم بالنوايا والخفايا.

بقيت نقطة أخيرة أريد أن أثيرها قبل أن أترك القارئ الكريم ليواصل رحلته عن الحقيقة بنفسه دون تدخل مني أكثر من ذلك، وهي أن عدم الإيمان بخالق وبمنظم لهذا الكون قد يتطلب قدرًا من الإيمان بالغيب أكثر من الإيمان بالله نفسه!

فالمؤمن بأن الكون خلق نفسه بنفسه أو بأن الكون جاء من ذرة خلقت نفسها بنفسها أو كانت موجودة منذ الأزل، أو المؤمن بأنها أكوان متعددة (Multiverse) أو أن الكون كان لا شيء ثم أصبح كونًا ثم أصبح لا شيء ثم أصبح كونًا وهكذا إلى ما لا بداية أو نهاية له، فهو يؤمن بقدر من الغيب مثله مثل (إن لم يكن أكثر) من يؤمن بإله خالق حكيم سابق لهذا الكون ومهيمن

عليه. ويتحتم عليه -في رأيي- إن كان صادقاً أن يبرهن قدر المستطاع على ما يؤمن به هذا حتى لا يكون إيماناً أعمى دون بينة.

و بعـد ، فهـذا جهـد متواضع حاولت فيه عـرض وجهة نظـر لعلها تنير طريقًـا إلى الحـق وقد كنت أعلم منذ البداية أن المهمة صعبة وشـائكة ولكنها تستحق المحاولة والإصرار..

فهذا غيضٌ من فيض أرجو أن يضيف شيئًا مفيدًا ويوضح شيئًا مبهمًا وأن يضيف له المضيفون وأن ينقده الناقدون.

فإن أحسنت فمنه وإن أسأت فمني وأسأله العفو وحسبي أنه الحق وإلى الحق قصد السبيل...

كريم فرحـات

المصادر

- القرآن الكريم.
- «الله»، عباس محمود العقاد.
- «تهافت الفلاسفة»، أبو حامد الغزالي.
- «تهافت التهافت»، ابن رشد.
- «رأس المال»، كارل ماركس.
- «الوجودية، منزع إنساني»، جان بول سارتر.
- «هل الله موجود ، دراسة لمشكلة الألوهية في الوجودية والإسلام»، د.مصطفى معوض عبد المعبود.
- «مفهوم النص»، د. نصر حامد أبو زيد.
- «موقفنا من العلمانية والاشتراكية والقومية»، جمال البنا.
- «وطني مصر»، نجيب محفوظ.

- "On the Origin of Species", Charles Darwin
- "Atheism Explained", David Steele
- Pew Research. Religion and public life project
- http://www.pewforum.org/٢٠١٢/١٢/١٨/global-religious-landscape-exec/

- «When Atheism Becomes Religion», Chris Hedges
- "God is not Great", Christopher Hitchens
- "The Self Aware Universe", Amit Guswami
- "The God Delusion", Richard Dawkins
- " A Brief History of Time", Stephen Hawkings
- "A Briefer History of time", Stephen Hawkings
- "The Universe in a Nutshell", Stephen Hawkings
- " The Grand Design", Stephen Hawkings
- A Scientific Dissent from Darwinism
- "The Language of God", Francis Collins


دار نهضة مصر
للنشر